

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام بين الدعوة والدولة

تقديم :

في دار الإسلام قادة منصرفة همهم إلى "الخطّة الاقتصادية" و"التصميم" و"المذهب"، والثروة والموارد، تريد تغييرا فرضته حالة الأمة الإسلامية المتأخرة، وهم بين "اشتراكيين ثوريين" و"رجعيين" وديموقراطيين كما تصنفهم الإيديولوجية أو كما يدعو بعضهم بعضا إذا تنازوا بالألقاب، وهم لا يسألون عن الخطّة والمذهب والتصميم الكفيلة بتغيير الإنسان. ومن كان عن الخطّة والمذهب والتصميم الكفيلة بتغيير الإنسان، ومن كان منهم يفكر في تغيير الإنسان فإنما يفكر في قطع المسلمين عن "تقاليدهم البالية"، كصوم رمضان مثلا، ويستجمع الشجاعة والجرأة على الله ليضرب بمعوله يخرب الاسلام، ما أبقاه من بنائه ولدانه المفتونون، اعداؤه المستترون والمرموقون.

وموضوع كتابنا هو تغيير الانسان تغييرا اسلاميا على المنهاج النبوي، وأول قاعدة من قواعد المنهاج النبوي الصدق. الصدق في

النية والوجهة، والصدق مع الله في النصح للمسلمين. وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر وأقطع كما جاء في الحديث. فباسم الله بدؤنا وإلى سبيله وجهتنا على السنة النبوية والمنهاج النبوي.

والصدق في النية والوجهة عتاد من ينطق نطقا اسلاميا، ون يكتب كتابة إسلامية، والاسلام في غربته بين أهله الغافلين. ومن الصدق مع الله في النصح المخلص يستمد من يدعو إلى الله وسط الفتنة العارمة الشجاعة والطمأنينة ليقول كلمة الحق لا يوارب ولا يلتمس من ألوان الفكر الجاهلي يموه به فكره لنلا يقال "رجعي".

في عالم يتراوح اضطراب الناس فيه بين الفوضى "الجاهيرية" والقمع المنظم، بين الاعتراض (Contestation) من ذوي الفكر المسمى حرا وتقدما ويساريا وبين هذا المرض الجديد المسمى في بلاد الديمقراطية نخابا (électorale)، نخاب كصداع وسعال وداء عضال. في عالم متجهم ومكفهر يصطدم فيه جشع الرأسمالية بضراوة الثورية اتقدمية، ويختلط فيه صخب الدعايات الانسية اللبرالية بضجيج الوعد الاشتراكي، ضاع المسلمون وفقدوا حتى الحساسية البدائية التي بها يعرف المريض مرضه. ومرض أمتنا الاسلامية تسميه لنا الجاهلية تخلفا وتصف لنا العلاج. ويجري خلف السراب مفكرونا وقادتنا وساستنا وينتهي هذا الاستباق المضطرب بنا إلى مرض ثان مزمن تطحننا رحاه طحنا هو مرض الاقلاية، الانقلابية صورة لتخلفنا وعزنا وفشلنا في مساعينا على درب الفكر الجاهلي،

وعلى نسق العمل الجاهلي. وصبيانيتنا في الفكر تقعد بنا عند العقلية
التبريرية السلبية. بالأمس كان فشلنا نرجعه إلا الاستعمار وطغيانه،
ولما ذهب الاستعمار السياسي اكتشفنا عاملا جديدا هو المسؤول عن
كل آفاتنا، اكتشفنا الامبريالية العالمية وكل ما تحشد من قوة وكيد، وما
تدس بيننا من عملاء. ويلعن بعضنا بعضا، ونتخذ العنف مطية، وتأكلنا
الانقلابية، ونحن أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. والعقلية السلبية
التبريرية لا تستطيع أن تقترح علاجا ولا أن تصف داء، وإنما تشير
إلى الآخر، إلى العدو، وتنفخ في "الجماهير الشعبية" حمية العصبية
القومية، وحميا الشعارات والارتداد، مثل "أمجاد يا عرب امجاد".

داؤنا يصفه الاسلام ودواؤنا بين أيدينا في كتاب ربنا وسنة نبينا،
ولا مجد لنا بقوميتنا ولن يكون. داؤنا الجاهلية، ودواؤنا التربية
الاسلامية على المنهاج النبوي بالسمت الاسلامي، والتؤدة الاسلامية،
والاقتصاد الاسلامي. بالرفق لا بالعنف وبالجهد في سبيل الله لا
بالانقلابية التبت طيح الرؤوس ولا يمس بأسها عدونا في القدس
الشريف وباكستا، وحيثما هضمت حقوقنا وسلبت خيراتنا.

الفكر الحر، في زعمه، التقدمي الثوري يدعو إلى صراع وكراهية
وعنف، والله يدعو إلى سبيله ويبشر المومنين الذين يعملون
الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا. لذلك ندعو إلى الإيمان
وإلى حمل رسالة الاسلام نبلغها للعالم. ودعوة الله لا تقوم على

الكراهية والنقمة، وإنما تحرر الانسان من أنانيته لبذل الخير والرجوع إلى الخير، مع الاخيار من المومنين.

الاسلام في ضياعه بين الدولة والدهوة؟ لا، بل الاسلام في انبعائه حين يصدق رجال الدوة ويهتدي رجال الدولة. ودعوة الاسلام دعوة مفتوحة إلى شبابنا وعلمائنا وقادتنا وساستنا ليرجعوا إلى ربهم ومنهاج نبيهم، فبذلك يبرأ منا العليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرباط في 15 ذي القعة 1391 – 3 يناير 1972.

الجزء الأول

المنهاج

حامل الرسالة

يروى ابن كثير أن سعد ابن أبي وقاص، قائد جيش المسلمين، أرسل رجلا اسمه « ربيعي بن عامر » ليفاوض رستم قائد الجيوش الفارسية قبيل وقعة القادسية. قال: "فدخل عليه، وقد زينوا مجسه بالنمارق الذهبية والزرابي، وأظهروا اليواقيت واللالي الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربيعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط. ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا به: "ضع سلاحك « فقال: إني لم آتكم، وإنما جئكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت ! فقال رستم: "اأذنوا له! " فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقالوا: "ما جاء بكم؟" فقال: "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه. ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: "وما موعود الله؟" قال: "الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر

لمن يبقى". فقال رستم: "قد سمعت مقالتيكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا لأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟" قال: نعم! كم أحب إليكم، يوم أو يمان؟" قال: "لا، بل حتى نكتب أهل رأينا رؤساء قومنا". فقال: "ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تؤخر الاعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم. واختاروا واحدة من ثلاث بعد الأجل" فقال: "أسيدهم أنت؟" قال: "لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم". فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: "هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟" فقالوا: "معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع ينك إلى هذا الكلب. أما ترى إلى ثيابه!" قال: "ويلكم! تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة".

تدحرج المسلمون من عزهم الشمخ، الممثل في شخص مبعوث سعد، إلى مواطئ الأقدام، وخنا تألق ذلك المنطق المعبر عن الرأي السديد والسيرة الصادقة الذي صدع له رستم وأمثال رستم حين كان للمسلمين رأي وسيرة. وذهبت تلك الشهامة التي بثها الإسلام في النفوس لما ذهبت أصولها الخلقية التي جعلت المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فلا يعزون اليوم ولا ترجح أقوالهم. سقطت الهمم من سامق علوها، فلا مطمع في أن نحمل رسالتنا لنحرر الناس ونخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها. كيف ونحن في أشيق مسالكها!

ها نحن أولاء في خطابة التأسّي والحسرة والرثاء للذات! لكن اللوحة التي نصعها بين يدي الكتاب تأخذ بنصاعة ألوانها، فإذا رجعنا الطرف إلى حاضر لا يسر لم نملك أن نكتم زفرة المنهزم يحضر استعراض تاريخه المنتصر، وآهة المغلوب على أمره الكاره لحاضره المنحسر.

يتحدث المسلمون اليوم، وأقصد المومنين الذين يدينون الله بالولاء ويتبعون رسوله ويحبونه ويعزرونه، عن ضرورة الوقوف أمام "تحدي التيار الجاهلي"، والاجابة عن هذا التحدي. وياخذ هذا الحديث والمتحدثون به حيزا صغيرا في رقعة "الكلام" الذي لا يسنده رأي، وأستعمل كلمة رأي كما فهما المسلمون الأولون وعبروا بها عن فكرة رستم؛ الرأي رؤية الفكر السديدة للمبدأ والغاية والوسيلة. يشغل الفكر الاسلامي اليوم حيزا صغيرا في مجالات الفكر وفي اهتمام رجل الأمة المسلمة، وينصرف هذا لاهتمام بكامله لما تفرزه عقول لنا مريضة من هذر إيديولوجي هو سمة الخسف وطابعه على جبين الأجيال التي انبهرت ببريق الحضارة الصناعية الخادع. ويهدف الهذر الايديولوجي عادة "تحليل الوضع" ورسم "طريق اسلامي" إلى الاشتراكية أو الليبرالية أو الديمقراطية. ويتلو القول فعل، بل يتلو الهذر تخبط، وتكون النتيجة هزيمتنا المنكرة في كل الميادين. ذلك لأن حدي ثالفكر الاسلامي الحق لا يكاد يجد أدنا معارة ولا أقل صاغية. أما العمل الاسلامي الحق فالتمسه في مساجد المسلمين ومحاريب المتبتلين، أولئك الذين فروا

بدينهم المتقلص إلى عبادة الله أفراداً، فوسعهم المحراب ولم تسعهم دنيا الناس لأنها تنكرت للدين، بل لأنها فقدت الدين.

ولا يرى المفتونون جاهلية، وإنما همهم الاجابة عن "تحديات العصر". والتعبير في حد ذاته فصيح، فالعمل من أجل الاجابة عن التحدي رد فعل مقابل لواقع لا نرضاه، وليس مبادرة تبدو من حامل الرسالة الذي ابتعثه الله كما ابتعث ربي بن عامر وأصحابه.

و"تحديات العصر" في نظر أصحاب الفكر الذين يعرضون نهوضنا لمحو التخلف واسباب التخلف، وبعضهم يقف عند المطالبة بمحة "آثار العدوان". والتخلف تعريف موضوعي لواقعنا، له أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية، وله علاج موصف هو الديمقراطية أو الاشتراكية، وله طرف مقارنة يظهره ويفضحه هو أشياء الحضارة المنتجة التي لا يملك المتخلف أن يصنعها. ولكي نخرج من التخلف لابد لنا، فيما يرى رجال الهذر الايديولوجي، أن نتبنى فكراً محرراً يخلق فينا وعياً جديداً حياً بواقعنا ووعياً تائقاً إلى مستقبل أفضل. واضيف ملحا أن الأفضلية لا تتعدى أبداً المقارنة الاحصائية للإنتاج والاستهلاك في ضمير رجال القول والعمل المفتونين عن الدين. أي انها لا تتعدى النطاق المادي لوجود الانساني. فالكلمة المحورية عند من ذكرناهم: إنتاج ولحاق بالركب الحضاري.

والاسلام يدعو إلى غير هذا، إنه يعث لروح جديد، انه رسالة يحملها المسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لا يرد على تحدي

الجاهلية فقط، بل يرمي إلى هداية الخلق وتحرير الانسان. هذه حقيقة تاريخية ولا ريب، وليس يزيدا الإلحاح عليها معرفة بالاسلام، بالإسلام الحق الذي يكون حياة على الأرض قبل أن يكون حياة في الروح، ولا يزيدنا الإلحاح عليها فهما لمقاصد الاسلام ووسائل العمل الاسلامي.

وعن هذا نبحث: وسائل العمل الاسلامي، مقاصد الدعوة الاسلامية، وسيختلف تصنيف مشاكلنا بالنظر إلى النقطة التي نضع فيها أفسنا، والنظر إلى الخط الذي في اتجاهه نفكر، وباختلاف الأهداف التي نرمي إليها. نحن في موقف لنتحدى الجاهلية تحديا بناء، لنخرج إلى الناس برسالة الله نيسر لهم الطريق من الضيق الذي هم فيه إلى سعة موعود الله كما عبر رباعي؟ وعندئذ نكون حملة رسالة ويكون وضع مشاكلنا وتصنيفها يرجع إلى العودة والعثور على منهاج صنع ثل رباعي بن عامر، وعد الله من اتبعه أن يمكن له في الأرض ويستخلفه فيها بالإضافة إلى رضوانه. أن نحن في موقف من يرد على تحديات العصر كما نفهمها بعقولنا المريضة التي صاغها العصر وحدد آفاق تفكيرها في أهداف التنمية الاقتصادية؟ وعندئذ يكفيننا أن نتبع الناس ونسير في ذنابي الركب ونتخذ لأنفسنا نمطا فكريا من أنماط العصر. ومعنى هذا أن نبقى كما نحن نبعث بأنفسنا لأننا لا نعلم من نحن، ويعبث بنا تيار المعركة العالمية لعبة للأمم كما وصفنا بحق بعض الأجانب، وتاكلنا الجاهلية غنيمة باردة.

مقاصد الاسلام من وراء النمو الاقتصادي ومن وراء الانجازات الاجتماعية. وإن لم يكن النمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية شرطاً لقيام أمة المسلمين بفتح طريق الحرية أمام الإنسانية، فإن التصنيع والكثرة لا يخلقان أمة تحل رسالة. وإنك متة ألبست الضعيف الجبان ثياب الجندي وحملته سلاح الكمى لن تحصل على بطل، وإنما ينفضح الضعف والجبن على مقدار هيئة البزة ومضاء السلاح.

هذا ربي حامل الرسالة، سينتصر غداً في المعركة، وسيبني حضاة لأنه كان يحمل بذرة التمكن في الأرض ما عاقه عن ذلك ثياب صفيقة وفرس قصيرة. ومن قتلته التي عاناها جسمه ولم تعانها نفسه خرجت القوة وخرج معها الهداية والحضارة.

كل مسلم قرأ ولو قليلاً عن الاسلام يعرف سمو المقاصد الاسلامية، لكن الذي لا يرفه اليوم حتى علماء المسلمين ومفكروهم هو وسائل العمل الاسلامي الذي يكفيننا الشر الذي دفعنا فيه، ويضمن لنا النهضة التي ننشدها. ولسن أزعج أنني أعرف. وإنما أشير إلى النقطة والسؤال، وعندما نحدد النقطة ونصوغ السؤال صياغة واضحة نكون قد اقتربنا من معرفة ما نجهله.

والسؤال يمكن أن يوضع هكذا في شطره الأول:

كيف نخرج بالمسلم من اسلامه الفردي ليصبح عضواً في جماعة

المسلمين؟

والشطر الثاني للسؤال يمكن أن يكون هكذا:

كيف نحرر المسلم وكيف نعبيء جماعة المسلمين ليصبحوا حملة رسالة؟

وإذن فالأمر حل جذري لوضعنا لا أقل من ذلك. وهذا كلام مبهم يوحي بالشك والخوف. إذ تحمل الجلة "الحل الجذري" مفهوما معهودا عند مفكري الجاهلية هو الثورة والعنف. لذلك تجد من مفكري المسلمين من يتحدث عن الثورة والعنف. لذلك تجد من مفكري المسلمين من يتحدث عن الثورة الإسلامية، الثورة الأولى والثورة المنتظرة. ونحن نحب أن نتفاهم تفاهما كاملا، لذلك نقف عند الكلمات لنحدد معانيها، لأن بعضها تداولته السنة متباينة الأصوات وأقلام مختلفة اللغات.

عندما نبحث عن تعبئة إسلامية نقصد تربية إسلامية والتزاما من الفرد لعمل الجماعة على نسق النهاج الاسلامي الذي لا يعرف العنف، وليس على غرار العمل الجاهلي المؤسس على العنف.

وعلى عتبة كل بحث لابد من تبیین بيمنهج، وينتظر منك القارئ الذي تدرس بأساليب الفكر المعاصر الدخول في مظاهرة بيانية تقتضي قواعدها أن تترزن حتى لا تأتي بالنتائج قبل المقدمات، وتظهر الشك فيما لم تدل عليه بحجج كافية، أو تسلك غير ذلك المنطق الجدلي. وربما يقبل منك اللامعقول في المنطق أو اللاقيمة في ترتيب الأقوال والأفعال والأحكام، لكنه يجد نفسه غريبا إن خاطبته من جهة العاطفة ورجعت في حكمك على القيم إلى سلم استنتاجي مصدره النصوص.

وفي عصر اللامنطق واللامعقول وقد تراجعت المنهجية الفلسفية إلى ظواهرية « **Phénoménologie** »¹، تعكف على الأشياء والحداث تتفحصها وتستنتقها وتتعجب من ظهورها، يكون منهجنا إثبات الاسلام كواقع تاريخي وروحي، كواقع انساني حرك الانسان ويحركه لانجازات ذهلت العالم في ماضيه وننتظر أن يعود الله علينا بعوائده خيره فيعود الاسلام ليحرك الانسانية نحو مستقبل تتفادى فيه الوقوع في مصرعها النووي. وفي عصر تراجع فيه رواد الايديولوجيات من موقعهم الأول كمرشحين لاحداث التغيير المنقذ للانسانية إلى التماس المعرفة من واقع الانسان وواقع الأشياء، ونموذج هذا الاتجاه المذهب البنيوي « **Structuralisme** » ، يكون منهجنا التلمذة لقائدنا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وجماعته، فننظر كيف كان هاديا وقائدا، وكيف نشأت الجماعة الأولى وما نوع الرباطات التي كانت توثق هذا البناء، والبنية العضوية التي جعلت الجماعة الأولى كالجسد الواحد، يجير أديانهم على أعلاهم. وفي عصر تسوده الحضارة الشيئية، حضارة التكاثر، حضارة عقلنة العمل الانساني حتى يسير على سير الآلة وينتظم في حركته وفق مقتضاها، بل ويفكر على نهج تفكيرها منذ اختراع الآلة المفكرة ومنذ أصبحت السبرانية « **Cybrénique** » علما ينقل إلى حياة الناس ما تعلمه

¹ ليعذرنا القارئ ان وضعنا كلمات أجنبية بازاء كلمات عربية. وعذرنا أننا نفكر كما يفكر أبناء جيلنا بأدوات نحت في الغرب، وقصدنا أن نتفاهم بدقة، والمصطلحات شتى فنقف عند مصطلحنا.

من سير العقول الالكترونية التي كان هو واضعها. مقابل هذا يكون منهجنا محددا بالهدف الالهي الذي هو تحرير الانسان أن تطفى عليه المادة دون أن يكون ذلك تبريرا لنقصه من الجهاد في تنمية أموالنا التي جعل الله لنا قيما، ودون أن يعوق ذلك عن إعداد القوة كما أمر الله تعالى.

في هذا الكتاب نظر إلى الانسان والعالم لأن أي عمل اسلامي لا يبدأ بالدحول في دنيا الناس كما هم وفي دنيا أفكارهم كما هي، منظورا إلى كل ذلك من وجهة النظر الاسلامي، إنما يكون عملا مبتورا. فإن دنيا الناس وأفكار الناس تعج بتجارب هي ملك للإنسانية كلها، والمسلم لا يخرج الاسلام عن انسانيته، وإنما يرفعه عن متهات الكفر وتضييع مصيره في الدنيا والآخرة، حتى إذا سمع ووعى وآمن طلب اليه أن يعمل عملا صالحا في دنيا الناس مقاوما للفتنة، معرضا عن الجاهلية، سيدا حرا ملكه الله الدنيا لتكون له معاشا وللآخرة زادا. ولئن كان لكل منظومة فكرية « **Systeme** » سراب « **Utopie** » ومثال تضعه نصب عين الناس ليعملوا لتحقيقه، فإن الدعوة الاسلامية تضع للناس في كل زمان نماذج إنسانية رائعة للقدوة والأسوة. وقد كان أروع هذه النماذج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن ثم وقوفنا عندهم وعكوفنا عليهم.

تجديد الدين

كثيرا ما يتحدث مفكروا الاسلام المعاصرون عن "المنهج" الاسلامي في تربية الفرد وإقامة الجماعة، ولعل أكثرهم ولوعا بذلك سيد قطب رحمه الله. وهو رجل عاش في ظلال القرآن وتدبره كما قال بضعا وعشرين سنة. وتجد في ما كتب بركة ذلك ونور كتاب الله. بيد أنه رحمه الله لا يذكر نقطة البدء في حركة الاسلام الأولى على كثرة ما كتب، ألا وهي لقاء الانسان بنور الهداية في شخص حامل الهداية . ويبدو الأمر وكأن مفكري الاسلام نسوا هذه الظاهرة التي فتنت معاصري الرسول الكريم، ظاهرة الاهتداء المفاجئ والتحول الغريب الذي يطرأ على المرء بمجرد اتصاله بحامل الرسالة الإلهية. فقال الناس ساحر، وحق لهم أن يلتمسوا وجه الشبه لما لا يعرفونه بما يعرفونه. كان الرجل يلتبقي بالرسول صلى الله عليه وسلم فيسمع منه فإذا به يتحول، وكأنه خلاج من دائرة ظلام إلى دائرة نور، ويرى حدود كل منهما متميزة فيتكون لديه وعي لذاته الجديدة وقد اكتسب الايمان وطرح الكفر، ويقوى على مجابهة الناس، ويعذب حتى الموت وهو متمسك بعقيدة التوحيد. والطاقة التي تحول الناس بهذا المقدار وبهذه السرعة وتلفت كل همهم عن قيمهم الموروثة إلى قيم جديدة لا تكمن في فصاحة الدعي إلى الله المرسل من عنده ولا في رغبة المدعو وحنينه إلى تغيير ما كان فيه من عقائد وأحوال، إنما تكمن في شخص الداعي إلى الله بإذنه الذي أنزل معه نور. وهذه الطاقة هذا

النور، هذا المغناطيس الروحي للداعي إلى الله الأكبر عليه صلوات الله وسلامه كانت المحرك الأول للإسلام، وهي نفسها التي تعيد إلى الإسلام حيويته كلما برز إلى الناس رجل صادق يدعو إلى الله وهو على بصيرة من أمره ورضى من ربه، وهذه الطاقة هي مناط الوراثة النبوية في قوله الرسول الكريم "العلماء ورثة الأنبياء"، باقياً في هذه الأمة تفعل في الناس فعلها متى تمت شروط وجود الداعي إلى الله الوارث الصادق. وذلك قوله تعالى يخاطب رسوله: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله، على بصيرة أنا ومن اتبعني". فالذي يتبع الرسول وهو على بصيرة هو الوارث. لكننا لا نعلم حقيقته متى نرى ثمرة الاتباع وآثار البصيرة. لاتصدق بوجود الهداية، بوجود الطاقة النورانية حتى نرى أثرها في الناس. ويعرف الذين يدرسون تاريخ الاسلام بعين حديدة وعقل نفاذ أن حركات الاسلام بعين حديدة وعقل نفاذ أن حركات الاسلام المثمرة بدت برجل يدعو إلى الله صادق متبع. وكلما وقع المسلمون في مأزق ابتعث الله تعالى فيهم رجلاً يجدد لهم الدعوة. والايقاع التاريخي لوقوع الأزمات، أي الفترات التي تفصل بين كارثة وكارثة، قد لا يكون رتيباً. والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يخبرنا في الحديث الذي أخرجه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة يشير إلى التجديد على رأس كل مائة سنة، ولن نذهب أكثر من هذا في السؤال عن المائة سنة متى تبدأ ومتى يحق للامة أن تنتظر مجدداً، فذلك مما أمضى فيه علماؤنا الاولون جهوداً كثيرة واختلفوا في نهاية

الأمر عندما حاولوا أن يتعرفوا عن مجدد كل قرن من القرون الفائتة. والذي يسمع كلام الله الذي وعد بأن الدعوة لن تنقطع وأنها مرهونة بالاتباع ووجود البصيرة، ويعتقد أن وعد الرسول صلى الله عليه وسلم حق حينما بشر بالمجدين لهذه الأمة، ويخرج بالفكرة الايجابية التي لا يدخلها عنصر التشكك فيما يرجع للتوقيت، لأن الذي بشرنا لا ينطق عن الهوى ولأنه أوتي جوامع الكلام.

هذه الفكرة الايجابية هي: "ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل سنة من يجدد لها دينها" كما ينص الحديث. والبشرى حق لانها جاءتنا من المعصوم، وبروز المجدد على رأس كل مائة سنة قد يعني في قول من أوتي جوامع الكلام أن أفضل الأزمنة في كل العصور زمن بروز هذا المجدد، فهو هامة الزمن وسيد الوقت ورأس العصر، لا أزيد أكثر من هذا، فرجال الحديث الجهابذة أولى بالتعرض لتأويل الحديث إن كان يحتاج إلى تأويل.

إذا وضعنا هذه الحقيقة سهل علينا أن نفهم أن الذي يبحث عنه مفكروا الاسلام ليس "منهجا" قوامه دعوة وجهاد وصبر فقط، لكنه "منهاج" قوامه الدعوة المؤيدة من الغيب المركزة في شخص الاعي المرشح المرسل أو المتبع على بصيرة، ثم يأتي جهد المدعو وصبره وجهاده. ولفظ القرآن الكريم لا تجد فيه كلمة "منهج" وإنما تجد كلمة "منهاج" على وزن مفعال، بصيغة اسم الآلة، وكان كلمة منهاج بصيغتها هذه إشارة إلى العون الإلهي والتسخير الإلهي والتيسير

الإلهي المرتبط بالدعوة الصادقة إلى الله المشرعة أو التبعة. يقول الله تعالى: {كل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}. ويقول المفسرون¹: "شرعة ومنهاجا أي سبيلا وسنة". ويتضمن السبيل مفهوم التشريع، وهو لغة وضع الشرعة أي السبيل، وتتضمن مفهوم الاتباع، وكلامها مجعول من جانب الحق.

والشرعة والمنهاج طريق النبوة، فيها بعث الله للناس دعاة إليه وأيدهم بوحيه ونصره، وجعلهم رحمة لمن اتبع واهتدى. كان الرسل عليهم السلام يحملون إلى الناس شريعة ومنهاجا، قانونا إليها ومعهة هداية لمن اتبع الرسول، وكان الأنبياء يجددون الرسالات، فهم كانوا أصحاب شرعة. ولهذه الأمة مجددون ودعاة تابعون بنص القرآن والحديث.

فلنقف عند المعنى ولنحتفظ بكلمة "منهاج" مع ما تحمله من الإشارة إلى التأييد والتوفيق للمجدد المتبع. ودعك أخيمين الالتفات إلى غير ما عندك في كتاب الله وسنة نبيه، فلن تجد جوابا لمشاكل أمتك إلا بالنظر فيهما بعين بكت من خشية الله، وتدبرهما بعقل لا تعلق به جراثيم الجاهلية ولا عناكب التحجر الذي تجده عند الحرفيين. ولمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أن يدعو ربه ليفتح له في فهم كتابه العزيز. وله إن صدق أن يعثر على نفائس العلم عندما "يثور القرآن" كما أوصى بذلك مولانا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله.

¹ ابن كثير عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة.

لعلك تتساعل: "إلى أين تذهب بنا ببحثك عن إنسان وهذا كتاب الله بين أيديا؟ وأنت محق في سؤالك فليس بعد كتاب الله بيان. وتجد جوابك في كتاب الله تعالى حين يقول: { أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ } وفي قوله تعالى: { إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات } ويقول عز وجل: { ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة } . فو كانت القلوب قد حررت من أقفالها، ولو كان الأمر يعني مومنين يعملون الصالحات، ولو كنا نومن بالغيب ونقيم الصلاة لما احتجتا لمجدد ولما احتاج من قبلنا إلى أنبياء يتلو بعضهم بعضا ليجدد شريعة الرسول الذي كان قبله. كيف إذن والإيمان بالغيب، وما يتبعه من التحدث عن الغيب، موضوع يحيط به صمت يكاد يكون مطبقا من جانب مفكرينا مع أن الله تعالى بين لنا أنه لن يهدي بالقرآن إلا من آمن بالغيب! وظهور الغيب في عالم الناس كان الظاهرة الكبرى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ معجزاته التي يراها الخاص والعام وملائكة الله تقاتل في صفوف المؤمنين، يرونهم رأي العين ويتحدث عنهم القرآن. وإنه من آمن بالغيب فقد اهتدى. لمن سنة الله أن يجعل الهداية على يد الصادقين من الدعاة إليه، وبهديهم يلتقي المومن بالغيب أول ما يلتقي عند ما يحس بذلك الذي سماه الله نورا وسماه كفار كل أمة سحرا.

انبعاث الأمة إذن رهن ببروز المجدد رجل الدعوة الصادق. هذه مقولة تأخذ كل معناها وكل عمقها إن تأملنا أن القرآن في يد الكافرين أو الشاكين أو فاترى الايمان كتاب كالكتب، قد يوخذ العربي بفصاحته، لكنه لا يهتدي به حتى يمون بمصدره، حتى يومن بالغيب. هكذا يكون دائما، وهكذا كان الاسلام الأول. وتأمل معنى قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يؤتي الايمان قبل القرآن. وتنزل الآية فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها. ولقد رأيت رجلا يوتي أحدهم القرآن قبل الايمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، يدري ما أمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل"¹. نثر الدقل، لله هؤلاء السادة ! وإنك لترى من معاصريك من يلعب بكلمات القرآن فلا تجد أبلغ من بيان عبد الله بن عمر: إنهم ينثرونه نثر الدقل. ويكون الوصف أبلغ عندما ينصب على من يغنون القرآن أغنيات وألحانا ينثرونه للناس لكن أين من يعمل بمقتضاه؟

لن يأتينا خير إذن إلا من الطريق التي جاء منها الخير للأمم التي كتب الله لها الانبعاث والهداية، وهي طريق النبوة الممتدة في هذه الأمة في أشخاص الدعاة إلى الله الصادقين، فحاجتنا الأولى إذن تسمى "دعوة"، ولننعتها في خط نظر الديناميكية الحركية باعتبارنا موجودين في هذا المكان وهذا الزمان: "قيادة روحية". ولا تتصور أن اختيار

¹ كتاب سعيد حوى بعنوان: " الله جل جلاله " ص 5. والدقل هو ردئ الثمر، ولم يذكر المصدر.

دعوة دون دعوة مشكل عويص مادام في هذه الأمة مآت من الدعاة بل آلاف، ذلك لأن الدعوة الصادقة تنم عن نفسها بفعاليتها في التاريخ.

صعد بصرک في التاريخ الاسلامي تجد نبضات الاسلام مقترنة بظهور الداعي إلى الله. أقول "بروز الداعي" و "ظهور الداعي" ولست أقصد أنه يحمل السيف ويحصد العصاة أو يستولي على الممالك وينازع ذوي السلطان. إنما يكون بروزه بالفعالية التي تبدأ من شخصه فتعم الأمة وتبعثها. هذا عمر بن عبد العزيز جدد الاسلام وأثل لنا مثالا مشرقا، لكن ينبغي أن نعلم أن من ورائه رجلا داعيا إلى الله على بصيرة، انحصر ظهوره في تربية عمر بن عبد العزيز، حتى لا تكاد تجد له ذكرا إلا في كتب خاصة تعنى بترجمة أمثاله من الصالحين. ويدعى هذا الرجل "رجاء بن حيوة" هذا مثل من أمثال كثيرة.

دور رجل الدعوة الصادق المؤيد دور الموقظ الباعث، يحل الاقفال عن القلوب بالتربية الروحية، ومتى التقى مثله برال القيادة العلمية رجال السلطان دخل الاسلام في مرحلة جديدة من مراحل تاريخه. هذا صلاح الدين الطلح العربي يلتقي بداع إلى الله صادق فيتحول رجلا، وهذا يوسف بن تاشفين منقذ الاسلام تلميذ الرجل الصالح الذي رباه حت أصبح فحلا، تذكرنا سيرته وأعماله بالسلف الصالح من أمثال ربعي بن عامر وطائفته، تقللا من الدنيا وجراءة على الكافر وقدرة على الانتصار. ولنترك الحديث عن هذه اللقاءات للصفحات الأخيرة من الكتاب.

ويسألني القارئ: "وما بال السلطان وما معنى القيادة العملية؟" ولعله يفكر كما يفكر الناس في عصرنا: "إن أي تغيير لا يبدأ بمحق رجال الحكم لا يحقق الثورة، والثورة وحدها هي البديل عن واقع متخلف منهزم".

ومثل هذا التفكير، وإن أخذ يفقد من قيمته أمام الإيديولوجيات الحديثة التي تجاوزت العنف الاشتراكي الثوري الداعية لإصلاحية علمية متدرجة، قمين باهتمام مفكري المسلمين لأنه العقبة التي وقعت عندها الدعوات الإسلامية دون تحقيق أهدافها. إنه الاتجاه المسيطر على شباب المسلمين وعلى كل ذي فكر حر في بلاد الاسلام متأثرين بالنموذج الغربي الاشتراكي. وحتى بعض رجال الفكر الإسلاميين، ولا أذكر أحدا لأن النقد البناء حوار مع رجال المستقبل لا مع من مضى عهدهم، برون أن التغيير الجذري لا بد أن يبدأ بهدم الطاغوت الحاكم وإبادته. وتقرأ فيما تقرأ دعوة "إسلامية" لانقلاب إسلامي. وعندما يهتم مفكرو المسلمين بهذه النقطة، أو قل بهذه العقدة، ويقرأون كتاب الله وسنة رسوله قراءة أكثر خضوعا واستلهاما يعلمون أن الاسلام ماكان ثورة ولا انقلابا في ماضيه ولن يكون العنف وسيلة لتجديد الدين وإقامة دولة إسلامية. ولنترك تفصيل الحديث في الموضوع حتى نتعرض له بعد حين.

إن ثنائية الدعوة والحكم قانون يتطلبه المنهاج، اقرأ قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ إِبْرَاهِيمَ مَوْلَاً﴾ المائدة: 3. المولى هو الذي يملك على غيره سلطة، والحق أن بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيئ

لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله}. وبعد ذلك بآيات: {وقال لهم نبيئهم إن الله قد يعث لكم طالوت ملكا. قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يوت سعة من المال ! قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يوتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم}

مع النبوة كان ملك، وبوحي من الله وتدبير، إذ هو الذي بعث النبي وبعث معه ملكا. ولا شك أن بعث النبيء كان بالتأييد النوراني لهداية الخلق وتجديد الدين، وبعث الملك ما كان معه روي للملك وإنما كان يسيرا من الله حين يسر رجلا لجماعة مقبلة على الجهاد، وكان تمام التيسير أن اصطفاه لكمال جسمه وعلمه، أي لقدرته على القيادة العملية، ولنسمها "القيادة الجهادية" لتبقى معنا العبارة مع ما تتضمنه من شروط القدرة على القيادة بالمزايا العقلية والعملية، بالبسطة في العلم والجسم.

وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية شيء مخالف لمذهب بعض المفتونين الذين نادوا بالتفريق بين الدين والدولة. أولئك ينحون الدين عن الحكم، ومعناه عند الله الكفر. {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون}. التفريق بين الدين والدولة رجعة جاهلية عما أراد الله للناس من سعادة في معاشهم ومعادهم باستقامتهم على شريعته فرادى وجماعة.

الثنائية بين الدعوة والدولة تقسيم لوظائف الهداية والقيادة ضروري. ووظائف الهداية كان يحملها الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بما أمدهم الله من نور. ووظائف القيادة الجهادية ما تحملها إلا رسولان كريمان فيما يتحقق عندنا النص اقرآني: سيدنا موسى عليه السلام، بلغ الرسالة وقاد إلى الجهاد، كنه لم يجد مجاهدين لأن بني إسرائيل جبنوا أمام العدو وقالوا: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون". وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: كان الهادي والقائد، وكان الكمال في الميدانين، وكان النموذج الذي جعل لنا أسوة صلى الله عليه وسلم. وحمل العبئ بعده مولانا أبو بكر فكان نعم الخليفة، ولم يطل به العهد، وصانه تأييد الله وتوفيقه فجمع بين الوظيفتين وكان القوي الأمين، ثم جاء مولانا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فظهر معه رمز القيادة الجهادية في الدرة التي كان يحملها وكان يستعملها حين تدعو الحاجة إلى استعمال السلطان حيث لا تكفي الهداية، وكان رضي الله عنه القوي الأمين. ثم جاء مولانا عثمان رضي الله عنه وكثرت الناس وتنوعت مشاربهم واختصمت مصالحهم. فكان الرجل الذي يحمل عبء الهداية وعبء القيادة الجهادية بين تيارين قويين أحدهما ينزع إلى الانفساح في الرقعة المفتوحة والاستمتاع بالرخاء الذي تتيحه هذه الرقعة، وثانيهما، وقوته كانت تصير إلى ضعف يوما بعد يوم، ينزع إلى صيانة العدل والميزان كما عاش في ظلها سلف الأمة. وكانت الفتنة، وقال عثمان رضي الله عنه قولته حين أحس

بضرورة الثنائية كما وصفناها: "إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن". وكأ، الهداية تستند إلى القرآن فإن القيادة تستند إلى السلطان، تلك تنظر في المنهاج لتبصر الانسان بمبدئه ومعاده وتحل عقده ليرى نور الله، وهذه ترعى مصالحه التي على الأرض وفق ما خططه المنهاج.

ونضع أمامنا للاعتبار قضيتين، احدهما عقلية والثانية نبعث لنا من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي المنهاج لأنها الاتباع للمرسل المعصوم صلى الله عليه وسلم. العقل يتصور جيدا أن مصالح الأرض قد تعوق الانسان عن التسامي الروحي الضروري لتحرره وتمكنه من الكمال الذي هو موعود الله لكل من آمن وعمل صالحا ثم اهتدى. يتصور العقل وتؤيده التجربة إن الانسان يعتبر من يتحكم في حياته المادية، حتى ولو كان اعدل الناس واتقهم، خصما قبل أي اعتبار آخر. فحيث يكون السلطان القائم القائم على قسمة الأرزاق لا بد أن يكون خصام، ولا بد أن يكون الأخذ والرد والانفعال العاطفي الذي يؤثر على صفاء النظرة وخلوص الحكم ويكون الموقف النفسي للمحكوم الرغبة والرغبة. أما الدعوة فهي هداية إلى الله وتحبيب لدينه وتربية تنبني على ثقة الفرد في رجال الدعوة ومحبتهم والتجرد الروحي المتسامي نحو التضحية والتزلف إلى الله ونكران الذات. ولو كان السلطان والقرآن في يد واحدة، أي لواجتمعت الدعوة والقيادة والجهادية في رجل واحد لما أمن الاصطدام بين طاقة تريد أن تصعد

بالإنسان إلى أفق كماله وبين حاجات الأرض التي تعرقله وتثبطه. ويمكن هذا الرجل من كان، حاشا المعصوم صلى الله عليه وسلم وخليفته، فإن هذا الاصطدام واقع. وبد عندئذ أن تتحول الدعوة إلى سلطان أو إلى جور محض، إن لم يترك رجل الدعوة والسلطان سلطانه لينزوي عن الناس، والتاريخ الإسلامي لا يعطينا إلا المثال الأول: الدعوة تتحول إلى سلطان وجور. وتسمى خلافة أو تأخذ غير ذلك من الأسماء، لكنها في حقيقة الأمر سلطان وجور أي دولة قائمة على مقتضيات التملك والتنظيم السياسي. وفي هذه الأثناء تقبع الدعوة في ركنها أو يقيض الله علماء عاملين يقولون كلمة لحق عند السلطان الجائر تعرضا لوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء لواجب المسلم. أو يقيض الله عندما يعم البلاء دعوة موفقة تلتقي بالدولة فتكون القيادة الجهادية، كما وقع ذلك عند طغيان بني أمية، وعند هجوم الصليبيين في الشرق والمغرب الأندلسي، وهجوم التتر، وغيرها من المواقف التي سنرجع إليها.

ولو كان رجل يستطيع أن يجمع بين الدعوة والقيادة الجهادية زمن الفتنة لكان ذلك الرجل الامام المجاهد مولانا عليا عليه السلام. فقد أخذ الأمر بعد وفاة الامام الشهيد فحارب وأمكر عليه وكانت أيام سلطان بل أيام سيفمصلت بالحق ابتلى الله بالتعرض له من كبار الصحابة من كان لهم الفضل في نشر الدعوة والجهاد من أجلها، وامتنع أن تجمع الدعوة والقيادة الجهادية في يد رجل منذئذ.

ونحن غير معصومين كما لم يكن طلحة والزبير وعائشة عليهم رضوان الله معصومين. لذلك ترى المسلمين ينفسون على صاحب السلطان وعلى صاحب الدعوة معا، ويشتدون في ذلك إن زعم رجل أنه يحمل الدعوة والقيادة معا. ومن خطأ الناس في الحكم وميلهم مع الهوى يتكون جو الفوضى والفتنة. ونحن اليوم أشد الأجيال الإسلامية افتتانا ولاشك. فأنى لنا أن نحكم حل قضيتنا وليس بيننا أمثال أبي الحسن الامام! لكننا إن نظرنا إلى القضية العقلية التي نضعها في هذه الصطور واعتبرناها على ضوء فعل الرسول صلى الله عليه وسلم نوشك أن نهتدي إلى اجتهاد يؤدي بنا إلى قبول ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، واجتهادنا بالطبع غير معصوم.

وفعل الرسول الكريم الذي يستحق منا وقوفا طويلا وتأملا هو أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف عند وفاته. وكأنه ترك الناس لينظروا فيما يصلح أمورهم ويجتهدوا. وما كان للمعصوم الذي أعلمه الله وامته أنه أتم عليهم نعمته وأكمل لهم دينهم أن يترك ثغرة مثل هذه لو لم يكن لحكمة عظيمة. إنه عليه الصلاة والسلام "غلط" في قضية تأبير النخل وأوصى بعدم تلقيحها فلم تثمر، ليخبر الناس أنهم اعلم بأمور دنياهم. معناه أن للمسلمين يجتهدون فيما يصلح دنياهم، سواء كان ذلك أمر تقني محض كتأبير النخل، أو كان أمر تنظيم دنيوي في ميدان توزيع الأرزاق ورعاية المصالح.

ولمن يريد الثورة والانقلاب على الأنظمة القائمة في بلاد الاسلام بعنف، أن يدرك أولا أننا في الانقلاب والعنف سائرون، بل إن الانقلابية أصبحت لدينا الحل الوحيد. أقول الانقلابية لتدل الصيغة على أن الانقلاب أصبح مذهباً، فلنا في كل حين انقلاب جديد وعنف شديد، ونبقى مع ذلك متخلفين مع أن بدء انقلاباتنا يرجع إلى عهد مصطفى كمال. نبقى متخلفين مع أن هم المنقلابين الأول والأخير الخروج من التخلف كما يعرفه الفكر الغربي إنتاجاً واستهلاكاً؛ والانقلابية دوران تائه خارج دائرة الاسلام، وإن كان بعض أصحاب المذهب يتحكمون بالاسلام يلتمسون عنده شعاراتهم تمويها بل جهلاً، لأننا نعتقد أن من بينهم من يريد الخير ويريد الاسلام لكن يضل عن سبيله. ثم على من يحب الثورة والانقلاب سبيلاً للخلاص أن يدرك أن التحول الاسلامي يقترح على الناس "التوبة" أي العودة إلى الله من غيهم، وباب التوبة مفتوح وفهم هذا الانفتاح فهما واسعا يزيل عن ضمائر المفكرين المسلمين غشاوات كونتها عدوى الاساليب الجاهلية بشعور منا أو غير شعور.

الثنائية غير الغنية طريق المسلمين إلى الاعتناق متى توفرت في الدعوة شروط الصدق والتجرد لله وفي الدولة ورجال الدولة ارادة التحرر من عادات جاهليتهم. وعند لقاء صدق الدعوة بصدق الارادة يتحول رجل السلطان إلى قائد جهادي، أي يحول عمله من الاتجاه نحو

التسلط أو الاسلح الاشتراكي أو ما كان فيه إلى اتجاه الجهاد في سبيل الله ليعبد الله في الأرض وتقوم للاسلام دولة.

والقيادة الجهادية المنتظرة شيء غير البطولة في مفهومها المتداول؛ أي قيمة الرجل الذي يكسب لنفسه شرفا ولقومه عزا. سنأخذ مثالين للبطولة في بلاد الاسلام من ماضينا القريب، ونحب أن يفهم عنا أن طلبتنا العبرة والحق، وليس يجدي الدعوة إلى الله شيئا أن تتعرض للأحياء ولا للموتى، أو تنقص من هذا وذاك. ابطال يحب أن يسمع عنه بينما رجل القيادة المجاهد المجدد يعمل مخلصا يبتغي رضوان الله وما عند الله. هذا جمال عبد الناصر بطل العروبة، أي بطل عصبية لا يعرفها الاسلام، وإنما صح الاستشهاد به لأنه ظهر في بلاد المسلمين، قام بأعمل مجهدة وأنجز لقومه مظاهرات وخطابات. لا تعيننا هنا انتصاراته لأنها انتصارات القوى العالمية بعضها على بعض، ولا هزائمه لأنها هزائم لا يحس بمرارتها حق الاحساس إلا المسلمون المخلصون. الذي يعيننا هو حافزه النفسي الذي اقتضى منه مظاهرات مأسوية. يقول عنه رجل أمريكي يدعى كوبلاند، وهو جاسوس قديم كتب عنا كتابه " لعبة الأمم" في مقال نشر بالعربية في آخر كتاب عنوانه "التورط السوفيتي في الشرق الأوسط" في صفحة 298 ما نصه: "فمعظمنا نحن الذين عرفنا عبد الناصر اجتماعيا ورسميا متفقون على أنه يفكر كثيرا بما يمكن أن يقوله المؤرخون عنه يوم من الأيام، كان يتضايق كثيرا حين تشبهه امقالات الصحفية

بصغار القادة أمثال سوكارنو ونكروما الذين يغلفهم النسيان حال ابتعادهم عن مسؤولياتهم... قال لي ذات مرة: أن أتاتورك كان القائد الوحيد البارز في الشرق الأوسط خلال هذا القرن. ولما سألت عما يعني بقوله هذا تبين أن ليس في ذهنه سوى لأن أتاتورك كان لا يزال يعتبر بطلا قوميا، والشوارع والحدائق العامة تحمل اسمه".

وهذا يقودنا إلى المثال الثاني للبطولة في بلاد المسلمين، وأن كانت هذه المرة بطولة مارد كافر قاتم. عمل أتاتورك على تكفير المسلمين بعد أن سخر في هذه الخلافة العثمانية، والخلافة العثمانية رمز كان بقي للمسلمين ولسنا بصدد البحث عن محتواها. وقام بما يقوم به الأبطال من مظاهرات أكثر صخبا مما أحدثه أمثاله وعاشقوه، وأشد نكاية بالمسلمين وتشريدا لهم.

الذي تحتاجه الأمة لاتباعها قيادة جهادية، أي رجل مخلص لله آخر الامر، يضع ارداة الله فوق إرادته ويتطهر من كل رجس ليحمل الرسالة ويحكم بما أنول الله، ويضع رضى الله نصب عينيه لا السمعة والتماثيل والهيكل "المخلّة للذكر". أي بالاختصار يستبدل قيم الباطل بقيم الحق.

مصطفى كمال ألبس المسلمين البرانيط فمس المسلمين في الرمز والشارة وكان عملخ ذلك نكاية بالاسلام، لكنه عمل عملا آخر أعمق أثرت في حياة الأمة المسلمة بتركيا حين غير الحروف العربية بالحرف اللاتيني. وموه على الناس بالشعارات الجديدة الجاهلية كما

موه غيره ممن هم أقرب عهدا منا بالشعارات تعززها الانجازات الاقتصادية الهائلة التي تحسبها الأمة ملكا لها لكنها في الواقع رمز ارتهان البلاد والعباد في يد القوى العالمية المتنافسة المتشاربة. وبعد خمسين سنة من عمل البطل الكافر وعشرين سنة من عمل البطل المسلم التائه بقيت الأمة الاسلامية في تركيا أمة متخلفة وأصبحت الأمة الإسلامية ببلاد العرب أمة منهزمة ومحتلة، عقولها ومعاقلها.

القيادة الجهادية التي ننشدها لا ينتظرها في ميدان العمل واجب حمل شعار الاسلام ورمزه فقط، وإنما ينتظرها العمل الأعرق في التأثير وهو تبديل الحرف، تغيير المفاهيم وتحويل القلوب وإبدال ضعف الأمة قوة شتاتها جمعا. وتلك مهمة لا تتحقق اليوم كما لم تتحقق في أزمت الأمة الماضية كلها إلا بثنائية الدعوة الصادقة والقيادة الجهادية.

عوض البطولة التي تتوق إليها الأمة في تخلف عقليتها وردة بعض أبنائها، نحتاج لرجل آمن بالله وعول على إحدى الحسينين. وستتحقق له مزايا حسن الصيت عند الناس بحق لا يبطل استطاع أن يتجاوز نفسه ويتنكر لها ويحملها محامل الرجال كما فعل الرجل الصالح المجاهد الخليفة الخامس مولانا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. تلك المكارم وذاك الرضى من الله والناس لا بطولة التماثيل والحدائق والشوارع تحمل الأسماء، ولا الذكريات يخطب فيها وينشد.

تقول إن هذا مثالية وطلب للمحال، وتقول أن البرجوازي أو الارستقراطي لا يصلح إلا بالمشنقة تدرج رأسه أو الصف العسكري يطيح به لتظهر دماؤه الأرض. وخط نظرك فيما تقول خط ينشأ من مرارة فقر هذه الأمة ويعرج بعدئذ على المنظومات الفكرية الماركسية أو العنفية بصة عامة. لكني أدعوك لخط نظر آخر أكثر اتساعا وأفسح رجاء وانفتاحا للمستقبل. نظري الذي أدعوك إليه نظر الايمان والفطرة لنقل أنه النظرة الفطرية ولنحتفظ بالعبرة حتى نرجع إليها في الفترة التالية مكتفين بوصفها إنها نظرة رجل يؤمن بالله وبقيمة الانسان، خاصة المسلم، في الكون كله، ويؤمن بأن الله محرك هذا الكون ومسكنه.

النظرة الفطرية لا تتلقى عن العقل في ضيقه بل تتلقى أولا عن خالق الإنسان والعقل وخالق الكون ومسبب الأسباب. والنظرة الفطرية تعطيك الرجاء حين يعطيك العقل اليأس وتعطيك سعة الحيلة عندما يدفعك العقل للعنف استجابة لما فيك من قوى الغريزة. يقول العقل: " أين الإمكانيات الموضوعية لتغيير ما هو كائن بواقع إسلامي يتحقق على وجه الأرض وبأسلوب غير عنفي؟

أما النظرة الفطرية فتتساءل: "متى يفتح الله للمسلمين فتحه الموعد ويمكن لهم في الأرض ويستخلفهم لينقذوا الانسانية من مصير مظلّم وحاضر حرج؟"

ولئن كان اجتهاد العقل لبلوغ أهدافه يسمى نضالا وكفاحا وقتالا، فإن العمل في اتجاه النظرة الفطرية يسمى دعوة إلى الله وجهادا بالحكمة والموعظة الحسنة. ثم انتظارا لموعود الله الذي يقبض ويبسط.

يتلقى المومن كلام النبوة الساطع من مشكاة الوحي فيتخذها هاديا ونبراسا في الطريق من حيث يتناوله العقل، حتى ولو كان عقل مسلم م يبلغ مقام الايمان، فلا يقبل منه إلا الشكل، لأن عقل المومن آمن واتبع فاهتدى، ووقف عقل غيره عاجزا جافا يدعى القوة.

العقل يتأمل التاريخ ويستخرج له قواعد ويصنف أصناف الناس وطبقاتهم ويصبح جذلا عندما يكشف "الجدلية التاريخية" التي تسير الإنسان إلى "صيروته الحتمية". أما المومن فيجد في كل حركة من حركات التاريخ يد الله يقلب قلوب عباده ومصائرهم. لهذا فالمومن يعمل كل ما في وسعه لتحقيق موعود الله لكنه لا ينصرف لحظة عين عن مصدر القوة الوحيد فيدعو الله ويعمل، ويدعو الله ويفكر، ويدعو الله وينتظر بشائر موعوده. والموعود كما نص عليه القرآن "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا". وموعود الله كما فصله النطق النبوي الكريم وصل إلينا في رواية الإمام الشاطبي في كتابه "الموافقات" عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم

ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم يكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جل جلاله. ثم يكون ملكا جبرية فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ويلقى الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض. لاتدع السماء من قطر إلا صبته مدرارا، ولاتدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا إلا أخرجته"¹.

إن ما نراه اليوم من تسلط وظلم زقمع، على حد تعبير الماركسيين الجدد، أقرب شيء إلى الملك الجبرية التي توشك أن يرفعها الله جل جلاله ليعود الإسلام إلى منهاج النبوة ويعم الناس الرخاء ويفرح ساكن السماء وساكن الأرض. وذلك عندما يقيض الله رجلا يرفع راية الإسلام ويجمع حماس سبعمائة مليون مسلم متعطش للكرامة والطهارة فيجعل من الحماس طاقة منظمة فعالة كفيلة أن تقيم للإنسانية المريضة الشقية بحضاراتها نموذجا متوازنا يجد فيه الفرد سعادته دون أن يصبح آلة إنتاج تعصرها جبريات الجماعة المتناحرة وجبريات الحرب الاقتصادية الداروينية التي يأكل القوي فيها الضعيف. يكون ذلك حين يرفع الله البلاء وحين يبعث الله من يشاء من عباده، هذا الجانب الثاني من التوكل على الله أما الجانب الأول فهو

¹ كما قلناه عن أبي الأعلى المودودي في كتابه : " موجز تاريخ الدين وإحيائه " الترجمة العربية الطبعة الأولى ص 57.

سعيانا، أعني كل من في صدره جذوة إيمان، للتبشير بموعدود الله وموعدود رسوله، وعملنا الدائب من أجل تحقيق الموعدود بالعناية الحاذبة على الدعوة أن تهن أو تكل.

وان الله تعالى إذا أراد أمرا هيا له أسبابه. الحضارة الغربية سائرة إلى خراب نرى ذلك رأي العين، أو لنقل أنها سائرة إلى افلاس معنوي لئلا نغيظ بعض كتابنا الذين يعتقدون أن الحضارة الغربية هي آخر صيغة لرقى الانسان وسلطانه على المادة، فهي بالتالي خالدة. والانقلابية التي تاكلنا أكلا لما مدرسة يتعلم فيها قادتنا أن الجري وراء سراب الايديولوجيات في بلاد الشام عبث. ولقد حبط عمل القوميين وعمل الاشتراكيين القوميين في هذا المجال حبوطا مدويا. ثم إن هزائمنا المتتالية المنكرة، ونحن ملايين عديدة أمام شرذمة الصهاينة مدرسة أخرى تدفع قوادنا حتى يتبينوا أن دار الاسلام لا ينبا فيها دعوات الكفر، وأن المسلمين الذين حاربوا مع بيبرس وصلاح الدين وانتصورا انما انبعثوا بدعوة الالاسم لنصرة الاسلام، وبعد كل هذا فإن قادتنا يعلمون أن ضغط المصالح العالمية وضغط الدعوات الثورية الماركسية وضغط الفقر والهزيمة تكون في شبابنا حمى الثورة العارمة التي لن تبقل على الانقلابية المحافظة المتقاعسة المنهزمة ولا على أسبابها. وكل هذه الاعتبارات كافية، إن كان من قادتنا ذوو ألباب، أن توضح الطريق الوحيد الذي نستطيع به أن نقبض على زمام أمرنا قبل أن يفلت الزمام ويفلت الأمر. هذه الطريق هي الإسلا، وإلى

الإسلام وحده تستجيب الأمة الالاسمية في جاوة وفي افريقيا وبين المسلمين الصفر والسمر والبيض. وكل محاولة لخداع الأمة عن نفسها والتلويح لها بالشعارات وتسميتها شعبا ليسهل الخداع إنما تكون تهيئاً لهزائم جديدة.

قيادتنا السياسية قيادات متملقة. تدفع الوعود بلا حساب للأمة التي مسخوها شعباً وحصروها في عصبية القوميات، لذلك نرى شبابنا يلتبس رمزا للقوة والصدق والصراحة، وليس ذنب الشباب الذي تتملقه الأحزاب السياسية ويتملقه كل ذي سلطان أن يلعب بشخصيات قوية رائعة في دورها القيادي وتجردها لتحقيق مثلها العليا. إن كان شبابنا يغرم بماوتسي تونغ فذلك لأن ماوتسي تونغ رجولة وذكاء وفكر وتماسك، وإن كان يغرم بتشي غويفارا فلان تشي غويفارا مثالية ونكران للذات، وإن كان يحب هوشي مينه فلأن هذا نموذج لرجل المبدأ والتضحية والقوة. لا نسأل الشباب ما ليس يستطيعون لأنهم أبناء عصرهم يتغذون بما تقترحه عليهم الساحة العالمية من افكار ونماذج، وجهلهم بالثراث الإسلامي جناية أجيال مفتونة. ثم لا يكفي أن يطلعوا على تاريخ ملتهم وأمجادها حتى تقدم لهم الساحة الإسلامية نموذجا حي يسعى ويعمل ويحقق للأمة حريتها، ويكفي أن يتحرر جزء من الأمة في رقعة مهما صغرت، وينتصب متجردا مضيا متماسكا واضح المبادئ قوي العزم نير الفكر. لا يكفي أن يقرأ شبابنا تاريخ عمر بن عبد العزيز حتى يروا بديلا له يقودهم

بقوة وأمانة إلى كرامة الإسلام، ويومها يعز المومنون ويفرحون بنصر الله.

إن انفتاح باب التوبة معناه لعصرنا وأمتنا رجاء رحب في أن ينفتح للأمة منهاج النبوة فيتجددون ويتجدد لهم ما أعطى الله لمن آمن واتقى. ومن هذا الباب دخل تاريخ الإسلام أعظم رجاله: عمر بن الخطاب، عمر بن عبد العزيز، وصالح الدين وغيره ممن قاموا في الأرض قيام صدق وقعدوا عند ربهم مقعد صدق. حين يرفع الله جل جلاله عنا الجبرية الطاغية ويشاء أن يقيم لنا تجديدا على منهاج النبوة لهم يلهم من يشاء من عباده أن يتجرد فكريا وعمليا عن ماضيه وماضي أجيالنا المفتونة حتى يصبح رمزا، حتى يصبح حامل الرؤية وحامل الرسالة، وسيلهم أن يحرك الرمز ليتجمع انتباه الأمة وتتحرك عاطفتها، لأن بهذا تبدأ كل حركة تجدد. الأمة التي انتفضت وبلغ بها الحنق أي مبلغ حين أبح بالخلافة العثمانية ولبس الناس مرغمين برانيط أتاتورك، تتحرك مهجتها وما أبقى لها عهد الظلم الاستعماري وكذب السياسيين وملقهم من همة نحو الذي يقول على رؤوس الملأ ربى الله، ويعيد العمامة على رأس المسلمين، ولست أعني غطاء الرأس إنما أعني إشارة الاسلام في حياة الناس، في البنك والمسجد والسوق والادارة. والتحرك العاطفي استجابة للقائد المومن المنتظر قاعدة ربط ارادة الأمة بأهداف الاسلام ومقاصده، وهذا الربط يقابل تغيير الحرف العربي الذي بت به مصطفى كمال حاضر الأمة

الاسلامية في تركيا بتاريخها وكتاب ربها. القاعدة العاطفية، حماس الابعاث عندما يحرك الرمز، تمكن القائد المجاهد من تغيير الوجهة والتحول الجذري إلى المنهاج بالمنهاج.

التحول الاسلامي الجذري بناء وكل بناء للجماعة لابد أن تسبقه تعبئة. وقد يكون خيال تعبئة دون أن تكون تعبئة وذلك يحدث لأبطال التاريخ مثل من ذكرناهم آنفا. وقد تكون التعبئة دون أن تنتهي إلى تربية كما هو الشأن في منجزت ستالين الذي عبأ شعبه لهدف مادي فتحقق هدفه لكن ضاع الشعب. ويظهر تفوق الماوية الصينية في كون تعبئتها تصطبغ بتربية الشعب وتتفتح للنقد حتى يتم التغير في نفس الانسان ووعيه موازيا لتغير أحوال معاشه، والتحول الاسلامي، وقبله التعبئة الإسلامية لا بد لها من إرادة قوية قيادية، وبدون هذا الشرط لا أمل في أي تغيير، ولوبقيت روسيا تسير مترددة على سير لينين الذي يحب الاستشارة والإقناع قبل العمل لما حققت تعبئة، ولا يلام ستالين على السفك والاستبداد الأعمى اللذين قاده إليهما سذاجة فكره وضلاله عن سبيل غير سبيل العنف، والقوة غير العنف، بل العنف هو وضع القوة في غير موضعها.

البطل التاريخي يعتمد على الحماس "الشعبي الجماهيري" في مظاهراته، كنه لا يحقق تعبئة ولا يحقق بناء ولا تربية. والقائد ذو الإرادة القوية قد يضل الطريق بالاجحاف والإرهاق وقد يفر من

المعركة عندما يكتشف أن الجمع بين التربية والبناء الاقتصادي مع احترام الانسان وتكريم أمر مستحيل كما فعل غويفارا.

رأينا ورأى الناس كيف أجحف البطل التاريخي عبد الناصر بقومه حين غزا اليمن وقتل الآمنين ودفع بجيش المسلمين في الهاوية بعد أن أفتا المفتي، وتأمل كيف تغزو الجاهلية معاقل الإسلام، بأن من غزا اليمن مجاهد في سبيل الله. ورأينا ورأى الناس أية عاقبة آل اليها المسلمون في مصر وفي العالم من جراء هذا الإجحاف حيث كانت تربية الجيش تقتضي من الجندي أن ينزل من على ظهر ذبابته إذا رأى العدو وينجو بنفسه. ورأينا ورأى الناس أية تربية رباها البطل التاريخي عبد الناصر غداة هزيمته التي سماها "تكسة"، حين استقال فخرج الناس، وقد عادوا شعبا وجماهير، أي مجموعة فوضوية، لكثرة ما لقتوا ذلك. خرجوا كاليتمى يتصايحون ويتعلقون بأذيال البطل وذلك يعبر عن طفولة لم تنل من التربية ما يبلغ بها الحد الأدنى من الاعتماد على النفس، أما الاعتماد على الله فلو كان في النيات لما كان في تاريخنا هزائم. واسمع صحفيا فرنسيا هو جان لاکوتير يصف تضاعفي "الشعب" لما هدد البطل بالاستقالة، ولا نلام أن استشهدنا بصحفي أجنبي بعد أن سردنا كلام جاسوس قديم لأن مثل هؤلاء وحدهم يجدون فرصا للقاء أبطال التاريخ بل يجدون لديهم القبول والترحيب. قال لاکوتير في كتابه: "عبد الناصر" ص 202 من الطبعة العربية يروي حديث صحفي آخر يصفه بأنه أحد كبار المختصين في شؤون الشرق

الأوسط قال: "قال أريك رولو: كنا نستمع إلى عبد الناصر من التلفزيون، وكان التعب باديا عليه، وكان مرهقا. كان متهدج الصوت، حزين النبرة، يكاد يتعثر بالكلمات وهو الخطيب الكبير. كان صوته مختنقا وهو يعلن انسحابه من الحياة السياسية. وسرعان ما سمعناه، ونحن في الطبقة الثانية عشرة من البناية حيث كنا، ضوضاء وصخباً وجلبة مهددة مزمجرة كالزوبعة. لكن الطقس كان جميلاً. عندئذ خرجنا إلى الشرفة، وشاهدنا الناس كالنمل قادمين من جميع الجهات، خارجين من المنازل، والرؤوس تظهر من النوافذ، فنزلنا. كان الوقت غسقاً، والمدينة نصف غارقة في جهمة نظام التعتيم. كان مشهداً خارقاً بهؤلاء الناس المتراكضين من كل ناحية صارخين باكين بثياب النوم حفاة، والنساء بقمصان النوم، والأطفال كذلك جميعهم فريسة عذاب لا يطاق، يصيحون: ناصر، ناصر لا تتركنا! نحن بحاجة إليك. كانت هذه هي الضجة التي سمعناها وكأنها إعصار عات لا يرحم".

هذه هي التربية التي نتجت عن نحو عشرين سنة من البطولة والمظاهرات. ولا عجب أن نقرأ بعد هذا الكلام بصفحات كيف أهمل قواد الجيش واجباتهم، وكيف سخر رؤسأهم أجهزة الدولة للدعارة كما صرح رئيس البوليس السري المكمة قبل أن يعلن رئيس المحكمة سرية الجلسات.

إننا نبحث ونعتبر ونتحدث عن البطل العربي لا عن حزاة وحقد، وإن كان البطل قتل علماء المسلمين وشرذ المخلصين، لكن لننظر وجه

تاريخنا في مرآة من يرقبنا علنا ندرك لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. أمامنا التعبئة الشيوعية الناجحة في كل مكان وبوجه من الوجوه، وإلى النجاح تلتفت أعناق شبابنا. وتحتنا كنز الانسانية ورصيда ونحن غافلون.

عندما يحمل القائد المجاهد راية الاسلام ويستقطب انتباه المسلمين وحماسهم يبدأ الجهاد ويبدأ البناء وتبدأ التربية. لأن غاية كل تجديد لابد أن تكون إكساب المسلمين المنعة ضد الجاهلية الميطة، وتوضيح الأسباب المخرجة من الفتنة حتى تتحرر الأمة وتصبح أهلا لان يكون أمرها ثورى بينها. لكن مرحلة التربية لا يمكن أن تجتازها الأمة إلا بقيادة تربوية تأخذ الارادة السياسية التنفيذية أخذا قويا لترشد وتجمع الهمم، وتشدها نحو هدف البروز إلى الناس صفا واحدا أمة واحدة أمرها شورى. ويرحم الله جمال الدين الافغاني الذي أثل لنا زيدة تجاربه حين قال: "لا يصلح الشرق الا مستبد عادل" والاستبداد العادل أو العدل المستبد قد تسميه لغة العصر "دكتاتورية بيداغوجية". وليس تعينا الاصطلاحات اللفظية، إنما يعنينا أن يتحول "الشعب" إلى أمة، وتتحول الجماهير من نصب يعبدها الديماغوجيون إلى "جماعة" كالبنيين يشد بعضها بعضا وأمرهم شورى بينهم. وجلّى أن الروح الذي يمكن أن يدث هذا التحول ويحدث قبله توثرا إراديا في الافراد يسير بهم إلى الفلاح يجب أن يكون روح رجل ترك الدنيا وراءه وأقبل على الله يبغى

رضوانه. هذا الروح القوي بطهارته لن يهدف إلى البقاء في زيف المناصب لأنه إن فعل فوسيلته إبقاء الناس في طفولتهم.

المسلمون تضطرب بهم زعازع الصراعات الجاهلية وتنشئهم في ديارهم أفاعي الجهالة الفكرية وجاهالة العصبية القومية والمذهبية، الفارسي يقاتل العربي، والكرد يقاتل العربي والبنغالي يحارب البنجالي والشيعة يعيش مأساة التمزق الإسلامي باستمرار ويقدر على السني، وفي أحضان السنة مذاهب وفهوم وقهر فكري محتكر مغلق يكفر فيه السلفي الصوفي ويتيه فيه المتصوف على الناس بعكازته ومرقعته ... ومظاهراته الملونة أو الصاخبة أو الراقصة.

وتربية الأمة أمامها كل هؤلاء، والطريق صعب لتجاوز الأمة خلافاتها المذهبية وتكتشف نفسها مرة ثانية في محمديّة متبعة، ولنحتفظ بالكلمة حتى نرجع لتفسيرها.

وبداية العمل الإسلامي يتوهمه بعض الناس، بل أغلب مفكري المسلمين الذين يحضرون المؤتمرات الإسلامية، هو التهيء لاندماج سياسي، في "كومنولث إسلامي" مثلاً، ولا تقف طويلاً عند تناقض العبارة وعجمتها ومحتواها مع ما نحن بصدد البحث عنه فإنك تصطدم بمثلها حتى عند فضلاء المسلمين المعاصرين الذين يتحدثون عن "انقلاب إسلامي" أو "ثورة إسلامية"

وعندنا أن البداية هي قيام رجل سلطة مومن بجمع الإرادة السياسية والعزم لقومه بابتداء دولة إسلامية في بقعته حيثما كانت

ومهما كان حجمها. وعندما تتدرج الدولة المنبعثة حتى تصبح أمة وجماعة أي حتى تتلقى التربية الضرورية بوازعي القرآن والسلطان، وعندما تبقى حياتها بناء اسلاميا خالصا وتتجح وتتجز أعمالا بارزة في الاقتصاد وتهذيب الإنسان، تصبح "قترينة" تجلب أنظار المسلمين وأنظار الناس أجمعين. وبعدها يسلك المسلمون — من أعيته منهم الحيلة وطاردته الهزيمة — مسلك الجماعة الرائدة، وتذهب التربية بالعصبية والخلافات المذهبية، ون شاء ربنا أن يرفع عنا العنت يسر للأمة جمعاء سبيل التوحد، وأعطى بذلك، أو قبله، مثالا للإنسانية تحتديه.

والحديث، على ما نعتقد، في الخلافة وتجديد الخلافة هذر، إن لم يسبق قيام الخلافة الاسلامية تربية اسلامية تبدل مفاهيم المسلمين وعاداتهم ومواقفهم الفكرية والعاطفية، إنك لاتبنى منارة من قطع التبن وانما تبنيها بالصلب المتماسك. ونحن اليوم غشاء كغشاء السيل عبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وسنبقى مجتمعات غنائية متدبرة متناحرة بأسنا بيننا، ولقمة سائغة لكل غاز ولكل آكل الا أن يعود الأمر كما بدأ، أي من رج صالح قوي أمين يريد بقوة ويقول بقوة: ن يكون الاسلام واقعا، أن يكون الاسلام حياة، أن يكون الاسلام منهاجنا للعودة إلى رضى الله وإلى الكرامة التي يخص الله بها المومنين، يرحم الله الامام مالكا حيث قال: " لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها".

وظيفة الدعوة الصادقة، دعوة العالم العامل حامل الطاقة النورانية الذي يحول من صحبه كما تتحول الأجسام بتأثير الفاعل الكيماوي، ووظيفة القائد الجهادي المجدد، حين يتيح الله وجودهما للأمة هي التربية ثم التربية ثم التربية، تربية الروح والجسد والعقل والعمل وتربية حاسة الفعالية في الدنيا وسيلة لنى جزاء الآخرة، وتربية الارادة، وتربية روح البذل والتضحية من أجل الجماعة، وتربية الشعور بعزة المومن وسمت المومن وقصد المومن، كل ذلك بأسلوب المنهاج الذي يتضمنه كتاب ربنا وسنة نبينا.

إن كان جهد أبي حامد الغزالي وهجرته إلى يوسف ابن تاشفين لم يحدثا أثرا لموت المجاهد المسلم قبل أن تصل هجرة العالم العامل إلى مداها. وإن كان سعي الأفغاني رحمه الله في بعث الخليفة العثماني عبد الحميد لم ينجح لأن عبد الحميد تصور أن إعادة مجد الخليفة يتم له برشوة كل من يقبل الرشوة وجمع كل من يكرى شذقيه ليصبح في الاس بأن الله ملك في السماء وأن عبد الحميد ظلّه على الأرض. ولم يسعد الامام عبده رحمه الله في توجيه الملك توفيق وقد كان في فترة من حياته يظن أن الرجل قد يصلح أمره وينفع المسلمين. وكان الشهيد المرحوم حسن البناء الرجل الداعي إلى الله المخلص يسعى دائما للقاء فاروق عسى أن يرجع فاروق ويتحول من دابة مخربة إلى رجل. لكن فاروق، والعلم أصبح صفة لكل ماجن فاسق، كان يخاف لقاء الامام الشهيد حتى إذا سفك دمه، كما روت الصحف بعد الثورة،

أخذ الهاتف وحيى ندماءه تحية الصباح مبشرا إياهم: إن قد مات "البعبع" والبعبع فب عر الأطفال ضبح مخيف.

إن كانت هذه الجهود لم تنجح ولم يتم لقاء بين رجال الدعوة ورجال الدولة فقد نجحت جهود أخرى أعطتنا من ذكرناهم من أئمة مجاهدين. وما عقلت هذه الأمة عن أن يخرج الله من صفوفها رجلا، ولا كان وعده ان يظهر هذا الدين على الدين كله محصورا في زمن دون زمن. ويبقى متألئا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المبضر بأن الله يرفع آخر الامر الملكية الجبرية ليحل محلها خلافة على منهاج النبوة ويعم الرخاء وتمطر السماء ويفرح عمار الأرض كما يفرح الملاء الأعلى. وايا ما كانت درجة صحة الحديث فإن دين الرحمة والرجاء والبشرى يفتح للانسانية كلها منفذا من الشر المستطير والبلاء المحيذ بالأرض وسكانها.

ولعل الله الذي خص أول هذه الأمة بالفضل والخير أن ذخرا لآخرها فضلا ورحمة وخيرا. ومن يسمع أذن مسلمة لا يتردد في اعتقاد ما يذخره الله لآخر الامة من خير. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقو فيما رواه الحكيم الترمذي في "توادر الاصول" عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يكون في آخر الزمان ديدان القراء، فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وو الانتنون. ثم تظهر قلانس ابرد، فلا يستحي يومئذ من الزنا.

والتمسك يومئذ بدينه كالقابض على جمرة، والتمسك يومئذ بدينه
أجره أجر خمسين. قالوا: منا أو منهم؟ قال: بل منكم!"

تشريد رجال الدعوة وتقتيلهم والسخرية بمن يصلي لله ونبذه
باتخلف العقلي لتعلقه بغيبية تجاوزها العقل الانساني المتطور وما إلى
هذا من البلاء هو معنى القبض على الجمر. ولمن صير على ذلك
جزاء خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويتضمن
الحديث أن ظهور الفاحشة وفسق القراء وغربة الاسلام بين أهله يزيد
أجر المومن الصابر على دينه يومئذ. وهذا أوان الوعد، وفي تضعيف
الأجر ترغيب للعمل على نصره الاسلام مهما كان الثمن. ولعل ذلك
يحفز قادتنا الذين يحبون الاسلام لكن لا يصبرون على قبض
الجمر. ولعل ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم يهدي القائد المجاهد
المجدد للصبر على ما ينتظره من البلاء لأنه ستعرض للانتقاد
والسخرية إن جاء ببدع في دنيا الخطابة البطولية والشعارات اتقدمية
والتشريع تلوضعي والأوهام الفلسفية والمذهبية.

طيب الأحداث تهواه الأنفس، لكن ما عند الله خير وأبقى، وإن لم
تكن الهمة عالية واليقين كاملا لا يثبت أحد على قول الحق وعمل
الحق.

تحرير العقل والإرادة

هذه الدمية الانسانية التي تسعى على الأرض وتملأها ضجيجا
وتريخا وفكرا وفنا وخيرا وشرا من أين جاءت وأين تذهب؟ سؤال

عكف عليه الفلاسفة ورجال السياسة، أولئك يبحثون عن قيمة الانسان المطلقة وهؤلاء يعنيههم أن تسير الدمية وفق منهج عملي وتخضع لقوانين علمية لتحقيق مثلاً أعلى. الفلاسفة أفنوا أعماراً في المراهنات العقلية عن وجود الروح وخلود الانسان أو عن مزية الاخلاق والمعرفة اللتان تشرفان الانسان. بحثوا عن الوجود وسر الوجود، وعن المعرفة وإمكانها وحدودها، وعن الخلق والجمال. وتردد رجال السياسة بين أساليب تسيير الانسان وتمدينه وبين القيمة المثالية التي يضعونها نصب عينيه لتكون له حافزاً على العمل. ورغم صيحات الوجوديين وقلقهم ومناداتهم بالويل والثبور لأن الوجود عبث لا معنى له، فإن الفكر الفلسفي السائد اليوم والفكر والعمل السياسيين تلتقي في تحديد الانسان بخط التطور الحيواني، الذي يجيب عن امتياز حيوانية الانسان عن حيوانية احيوان، وبخط التطور التاريخي الذي يجيب عن تقدم الحضارة في جدية ترفع وتخفظ وتوجد وتعدم. ونظرة الفكر الفلسفي والسياسي إلى مصير الانسان، والانسان صيرورة قبل كل شيء، تخطط آفاقاً تطورية جديدة تساهم فيها علوم الحياة والسريرية والاجتماع. وفي هذه الآفاق مستقبل مشرق، تتغير فيه خصائص الوراثة حسب الطلب، ويختار فيه الفحل من الرجال لينسل نسلاً متفوقاً قد تحضن أجنته في القوارير، وينشأ مجتمع متخصص كتخصص أجزاء الآلة أو كتخصص أنواع المفكرات والمنفذات

الالكترونية. ويتجاوز الانسان مرحلة أخرى في طريق تطوره القاهر
نحو ... ولكن نحو ماذا؟

عندما يبني العقل شبكة محكمة قوامها المنطق، ولا يضر الشبكة
أن يتغير المنطق بتطور الفكر، يصبح العقل سجينا في شبته. هذه
الشبكة هي العقلانية أي المنظومة الفكرية المنطقية التي صنعها العقل.
ولا يمكن للعقل العقلاني أن يحكم أو يختار إلا برضى سجانه. وإذا كان
العقل يفسر وجود العقلانية لأنه هو خلقها، فإن العقلانية لا تطمح فقط
في تفسير العقل بل تفسر أيضا ما وراء العقل ... ان كانت تعترف،
وهي لا تفعل، ان وراء العقل شيئا. لكن أن رجع العقل إلى تجريده
الأول، إلى براءته أمام ما تخبره به الحواس وأمام شعوره الباطن
بوجوده واستقلاله وحرية ارادته، تساءل واحترق: من أنا وأين أنا
ذاهب؟ يفرع العقل أمام الموت ان بقي على براءته فيلج عليه السؤال.
أما ان جعل نفسه رهينا للفكرة « **Cogito** » التي تؤسس وجوده،
سجينا في الحلقة المفرغة التي تنبني على الفكرة، فإنه قد يشتغل
بألغابه العقلانية عن السؤال المركزي، أو يتناول إلى إلى الإجابة
مفسرا ما ليس له أن يفسر، وينتهي مثلا إلى أن الوجود عبث وأن
معاناته تبعث على الغثيان. وقد يقف في الإجابة عن السؤال عند نقطة
الموت فيجعل الموت غاية للحياة في يأس شديد كما فعل هيدجر مثلا.
ولعمري ما يقوله إنسان الطبيعة البدائي خير من هذا لأنه يومن بما
وراء الموت. والدهريون في كل زمان ينفقون مما معهم، ودهريو

الفلاسفة يفلسفون جهلهم، عن اقتناع عقلائي طبعاً، كلن مرتبتهم بالنظر إلى الحق هي خي مرتبة الذين كفروا بما وراء الموت للعلّة البسيطة وهي أنهم لم يروا أحداً منموتاهم يبعث.

ورجال السياسة الذين تعنيهم القيم وموازينها يرون في الانسان حيواناً متطوراً، له حاجات، يتحرك بحوافز. فهمهم أن يحققوا له إرضاء الحاجات ويقترحوا عليه قيماً تكون له حافزاً للعمل. هؤلاء يلوحون بالمثل الأعلى لحرية الفرد وحقه في التفكير والتعبير والملكية والعمل، وأولئك يهتفون بالأخوة الانسانية والعدالة في المجتمع. وكلا الفريقين يرجع الانسان إلى وظيفة إنتاجية أي أنه يفسر الانسان وجوده بما ينتج ويستهلك.

هكذا، دهرية عند الفلاسفة، واقتصادية « Economisme » عند رجال الفكر والسياسة. ويغم على العقل السجين فلا يرى عبث كل هذا وهو أن الانسان إن لم يكن الانتاج تطور وحمار رحي وموضوعاً للتجارب العلمية التي تعالج دماغه ليصبح أكثر فعالية وقدرة على التحكم في الآلات.

الاسلام حرية الانسان، يسمو به إلى قيمة كونية، ويعتقه من بخس نفسه مقامها بالتردي في المادة. اسلام يوقظ الانسان ليشعر بقيمته فيصبح فيه الوعي الشامل لمكانته. والاسلام يخاطب العقل أولاً، بخاطب الارادة بعد ذلك. يخاطب العقل ليعرف حدوده وإمكاناته وينفتح للتلقي من عالم ما فوق العقل. ويخاطب الارادة لتوجه عمل الانسان

لتحقيق هدف وجوده. الاسلام يعطي العقل حلا لسؤاله عما بعد الموت ويعطيه معها حافزا يدفعه لتحقيق هدفه، فالاسلام حياة وحرية. حياة تمتد إلى الأبد تحت نظر الله وحرية تزيل عن العقل أوهاقه وعن الإرادة عبوديتها للمادة.

ولست أتحدث عن الإسلام كنظرية ولا على مستوى الجدل الفلسفي. ومنذ لم يعد الإسلام للمسلمين حياة ولا حرية، يصعب أيضا أن نتحدث عن الاسلام كواقع سياسي في حياة الناس إلا أن نتخذ من تاريخنا الماضي شاهدا، وهذا ما يلومنا عليه خصومنا وجهلة أبنائنا، فما بقي لنا إلا أن نتحدث عن الاسلام كما هو، أي لقاء بين الانسان وعالم الغيب، بين العقل وما فوق العقل، بين إرادة الانسان وإرادة الله. الاسلام كما هو في حقيقته تجربة إنسانية يتعرض لها الفرد ثم يسري مفعولها من الأفراد للجماعة. عندما نسمع عن إنسان مسلم كان أو غير مسلم، انه اكتشف الاسلام على يد مرشد ونشاهد تحوله وتغير ساوكه، والأمثلة على هذا كثيرة، يخرج إلينا الاسلام الحق فيصبح حياة ويصبح حرية بالنسبة لمن تحول وتغير. يخال الناس أن الاسلام في طيات الصحف والكتب الدينية، وليس في الكتب والصحف إلا وصف للاسلام. القيادة الجهادية المنتظرة والدعوة الصادقة مطلوب اليهما أن يخرجوا المسلمين من ظلام الفتنة وغبش الشك ويزجوا بهم في حياة جديدة هي اسلام. وهذا معنى التربية وهدفها.

الدعوة إلى الله دعوة وعي الإنسان وجوده مخلوقا قائما بين يدي الله، مرادا لغاية سامية على الأرض، مصير جميل إلى الجنة بعد الموت وإلى رضى الله في الدارين إن أراد واختار وعمل. هذا الوعي بالمخلوقية والمسؤولية أمام الله هو الفطرة. ونريد أن نزيل عنا فهما شائعا لمعنى الفطرة. كثيرا ما يعبر الناس بكلمة الفطرة عن السذاجة والبراءة، وإن كان هذا مصطلحا شائعا فإنه ليس هو المفهوم القرآني الذي نقصده ونتخذه معلما لمذاكرتنا. فطر الله السماوات والأرض بمعنى خلقها. هذا المعنى جاء في القرآن. لكن معنى الإنسان الفطري هو الذي تبينه الآية الكريمة: { فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها }.

إقامة الوجه لله والإيمان به هو الفطرة. وبهذا المعنى فالإنسان الفطري هو القائم بين يدي الخالق الواعي لقيامه. والنظرة الفطرية هو ما يعبر عنه بعض مفكري الإسلام المعاصرين بقولهم "التصور الإسلامي لله والإنسان والحياة". ونحن نفضل عبارتنا لأن النظرة الفطرية نظرة العقل الذي يتلقى من الجنب الإلهي عن طريق الوحي، والعبارة الأخرى تتحدث عن التصور العقلي، والتصور العقلي لله والحياة والإنسان تعلق للعقل بما لا ينال، ولو نعت التصور بكونه إسلاميا. قبل أن يصل العقل إلى موقف النظرة الفطرية يخاطبه الله تعالى ويدعوه للتأمل في خلق السماء والأرض، وفي خلقه هو ومصيره، وفي خلق الدواب والأنعام والسحب والجبال. ثم يؤكد الدعوة

لينظر الانسان مم خلق، يريد منه أن يطرح على نفسه هذا السؤال: لم أكن ثم كنت، وكنت من ماء دافق وبهذه السهولة، فمن أين جئت؟ ويعبر العقل آماذ الحياة فيتمم السؤال: وإلى أين أصير؟ ويرشد الله تعالى العقل إلى حدوده وعجزه ويرجعه إلى التأمل في الآيات الكريمة التالية التي تحتوي هداية للعقل تامة. قال تعالى: {تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن ملا. وهو العزيز الغفور. الذي خلق سبع سماوات طباقا. ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت. فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير. وقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير، وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم، وبئس المصير}.

الغاية من الحياة والموت، بل من خلق السماوات والأرض، هو ابتلاء الانسان في عمله، إذ به يستحق مصير التكريم أو مصير الهوان. والبصر المتردد بين السماء والأرض ومن حوله في خلق الله لا يرى فتورا وإنما يرى نظاما محكما يزداد انبهار العقل من إحكامه كلما تقدمت الكشوف العلمية. وإذا رجع البصر كرتين، بصر الحسن وبصر العقل، تأملاته فسيرى معجزا ويرتد خاسئا وهو حسير. فإذا رضي عندها أي يقر بقدرة الخالق الفاطر وأتبع ذلك ما يقتضيه من الطاعة والامتثال والتلقي عن الوحي الذي جاءت به الرسل، تمت حرية الانسان، وذهب الظلام وجاء انور والطمأنينة والسعادة في

الموقف الإيماني موقف الفطرة. وأصبح لكل شيء معنى واتخذ كل شيء دلالاته النسبية في الكون الحسي وفي الخلق الغيبي وعالم الامر الالهي.

ولا يوصل الانسان، ابتداء من المسلم الجغرافي أو المسلم الفردي الذي يؤدي ما استطاع من الصلاة والصيام، أو ابتداء من المرتد و الكافر، لا يوصل الانسان لموقف الفطرة إلا التربية. وهذا مصداق قول الرسول الكريم: "كل امرئ يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". الفطرة الايمانية أصل لأنه الله تعالى بعث في كل أمة رسولا كما أخبرنا، ولكن تمتد الآجال وتنسى الأجيال وترتد بتربية الأبوين، وافهم البيئة المؤثرة المربية.

ابتداء من المسلم الجغرافي، كما يصف السيد الأفغاني، أو من مسم لا غير أو من مرتد وكافر، يفتح للدعوة الصادقة مجال لتربية الفرد حتى يتحرر ضميره ويرتد إليه عقله خاسئا وهو حسير، فيشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويتلقى الأوامر الأولى عن الرسالة التي شهد بها واعترف بأنها الحكم وطريق الخلاص فيصلي ويزكي ويصوم ويحج، ويكون بذلك مسلما. وهذه هي الدرجة الأولى المؤدية للموقف الفطري، موقف المومن. ومراتب الاسلام الثلاثة: إسلام ثم إيمان ثم إحسان، أساس كل نظام إسلامي وقليل ما يلتفت إليه مفكروننا. وهو تصنيف للفرد داخل الجماعة لكنه تصنيف تحرير لا تصنيف استعباد، تصنيف حركي لا تصنيف طبقي. ولأهمية هذا

التقسيم نرى أن الله تعالى أبلغه المسلمين الأولين بطيقة م يعتادوها. فقد كان الرسول يبلغهم فيصدقون، لكن إبلاغهم هذا الأساس الموضح لسلم الارتقاء في درجات الاسلام جاءهم عن طريق اتصالهم المباشر بالغيب، جاءهم به جبريل يرونه ويجالسونه. حديث جبريل رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال : صدقت! فعجبنا له يسأله ويصدقه ! قال: فأخبرني عن الإيمان: قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت ! قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربثها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في

البنيان، ثم انطلق. فلبث مليا ثم قال: يا عمر ! أتدري من السائل؟
قلت: الله ورسوله أعلم ! قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم!"

هكذا تلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معرفة درجات
الاسلام، والمراقي المؤدية إلى الكمال الانساني.

الاسلام الفردي درجة أولى لقبول الرسالة والاعتراف بالالوهية
والرضى بحكم الله. وقد يكون مجرد دخول فيما دخل فيه الناس، أي
انتماء سياسيا ظاهريا، وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلام
المنافقين وزجر أسامة حين قتل رجلا شهد بلسانه إن لا إله إلا الله
ولم يقبل منه التذرع في إسلام الرجل، وإنما قال له زجرا: "ه شققت
على صدره!".

أما قوام الاسلام ومادته ونواته الصلبة فهم المومنون، أي الذين
زادت درجة وعيهم وشعورهم بموقفهم أمام الخالق فأمنوا بالله ورسله
وغيبه، وعملوا بما يقتضيه ذلك من امتثال غير مشروط. والمومن هو
العامل المتصل بجماعة المومنين اتصالا عضويا، الملتزم التزاما كاملا
بأوامر الله في سره وعلايته الذي باع نفسه لله لقاء جزائه ورضاه.

الايمان وعي وعمل، هذا ما تقوله الآيات والحديثان التالية. قال
تعالى: { إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون }. وقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الايمان بضع وسبعون أو بضع
وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن

الطريق. والحياء شعبة من الايمان¹. وقال عليه الصلاة والسلام: "الظهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الاس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها²".

إنما المومنون الذين لم يرتابوا بعد إيمان وجاهدوا بالمال والنفس، أي باعوا أنفسهم ونفيسهم لله ولم يسعوا عبثاً، وإنما كانوا طاهرين وكانت لهم الصلاة نورا، وسلکوا شعب الايمان التي تبدأ بالاعتراف وقول لا إله إلا الله ثم تغطي مجال العمل وأدناه اماطة الأذى عن الطريق، ومجال القيم الخلقية وأرقها العمل بحافز الحياء.

والمرتبة العليا هي الإحسان، مرتبة الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، وهذا هو الموقف الفطري في أكمل صورته، والوقوف بين يدي الله بالمحبة والشكر، بعد الطاعة والعمل الجهادي بالمال والنفس. وإن كان المومن ينتظر جزاء الجنة فإن المحسن ينتظر رضى الله ومحبته، لأن الله أخبرنا أنه يحب المحسنين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب أصنافا آخرين من أصناف العمل. وفي العبادة احسان وفي كل عمل احسان، وبالإضافة على ما فرض على المومن، وبإحسان هذا العمل التطوعي تنال درجات الإحسان. وجزاء المحسن أن يصبح الله عينه التي بها يبصر وأذنه التي بها يسمع ويده التي بها

¹ متفق عليه، مروى عن أبي هريرة.

² رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري.

يبطش. لا أتحدث عن اجتهاد، لكن أروي حديثاً قدسياً هو في درجة أمتن الأحاديث لأنه حديث متواتر، أما كيف يصبح الله تعالى عين العبد وسمعه ويده فتالعبير عنه كان مزلة للصادقين لأنهم حاولوا التعبير عما لا يعبر عنه بأكلام فرماهم الناس بالزندقة. وكان تردده من جانب الكفرة فتنة للمسلمين على مر الأعصار والأعاصير، وبدر من كل ذلك بين المسلمين بؤادر القول حول وحدة الوجود والحلول وغير ذلك من المعميات التي كانت وسطاً تغذت فيه وعليه جراثيم الباطنية وأصحاب الرياضات. قول الله تعالى في الحديث القدسي حق، والتجربة قائمة وعلمية وواقعية، ووعد الله لا يتحقق إلا لمن سلكوا الطريق إلى الله كما وصف الله في الحديث الذي رواه الرسول الكريم عن ربه قال: "قال الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته¹".

الأولياء الصالحون هم زبدة الأمة، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهو الذين أحبههم الله تعالى. كافأهم بأن أصبح لهم عينا ويدا وعونا مؤيدا. لكن المسلمين في تدهورهم العقدي والتاريخي اتخذوا قبور

¹ رواه البخاري عن أبي هريرة، ورواه أيضا بصيغ أخرى ومن طرق أخرى أحمد والطبراني والحاكم وأبو يعلى والبيهقي فهو حديث متواتر، أي في الدرجة الأولى من الصحة.

الأولياء الأموات وأوثاننا، ونسوا طريق السعي إلى تحقيق قابلياتهم للكمال كما حقق رجال الله العاملون.

والمشكل الأول أمام رجال الدعوة الصادقة أن يوجدوا الرغبة عند المسلم الجغرافي أو الفاتر في الرقي إلى درجة الايمان، أي في تحقيق اسلامه تحقيقا أوسع في ميدان العمل. وأعوص من ذلك أن يقتنعوا من آمن وعمل صالحا أن يسعى ليحسن في كل شيء ويتقرب إلى الله ليحبه الله. وتبحث عن هذه المعاني في كتب الفكر الإسلامي المعاصر فلا تجد لها أثرا وكأنما نسي المسلمون أن الاسم رحمة وسلم لنيل الكمال الإنساني عبر العمل الصالح بين يدي الله ووسط خلقه. والاسلام السياسي الذي يسود في فكرنا الاسلامي المعاصر، أي هذه الدعوة التي تتحدث عن الأرض وخلافة الانسان فيها وتحجم عن التحدث بالايما بالغيب وتشير إلى الجنة اشارة خفيفة، هذا الاسلام السياسي ليس هو الرسالة كما جاءت وكما يجب أن نحملها شاهدين على الناس، انما الاسلام هو هذا الذي عرفه الله ورسوله: ارتقاء إلى الايمان بالغيب وربط الأعمال في النيات والغايات بالتقوى، ثم الصعود إلى درجات الكمال التي يحمل كل انسان قابلياته، والمرء يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم، ومعناه أن الحياة مدى لتحقيق الصورة الروحية التي ستلقى بها الله وتخلد بها إلى الأبد. فإن أنت حملت هذه الدمية الآدمية المليئة بالنزعات الترابية محمل الصدق، واتقيت وآمنت وأحسنيت لقيت

الله على أحسن الصور وكنت في مقعد الصدق وفي ظل الله كما قال القرآن والحديث. بل يحب الله بعض عباده فيخصهم بمنابر من نور يغطهم الأنبياء والشهداء. هذه هي المحمدية، أي الاسلام كاملا كما عاشه الرسول وصحبه الكرام. ولعل بعض مفكرينا يحجمون عن التحدث عن الاسم الرحمة عن الاسلام كت تحقيق للكمال الروحي مخافة أن يوصموا بأنهم صوفية أو متصوفة. وهذه أيضا طفولته، لنقل روحية، لأن الأسماء من صنع الناس ومحتواها أيضا فيما يرجع إلى السعي والاجتهاد. وما جاءنا في كتاب الله وسنة نبيه عليه المعول. والذي نجده يعيش الاسما محمديا ويحيا بإسلامه بين الأموات¹؛ له نور من الله يهديه، ذاك من نسترشد به، وذاك من نلتمس عند نورا. وإنما قيل لاهل النار ان يرجعوا إلى الدنيا ليلتمسوا نورا لأنهم لم يتقلوا الرسالات ولم يصحبوا الصادقين. قال تعالى في صفتهم: {يوم يقوم المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا}.

المحسنون أقاموا وجههم للدين ووقفوا بين يدي الخالق. ويتلقون من رسالات الله عن طريق الوحي والرسول قول الله: {اقرأ باسم ربك الذي خلق} وقوله تعالى: {سبح اسم ربك الذي الأعلى الذي خلق} يؤمرون بذكر الخالق وتبيحه باللسان وذلك أعلى شعب الإيمان وأفضلها كما جاءنا به الحديث.

¹ ينظر كلامنا إلى قوله تعالى: " أفمن كن ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمش به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منا؟"

والناس في هذه الدنيا بين ميت وحي وذاكر وغافل، ويتحمل الصنف الميت الغافل مراتب تتراوح بين الكفر والنفاق والاسلام الفاتر، ويتحمل صنف الأحياء الذاكرين مراتب تتراوح بين الايمان، الذي ينقص أو يزيد بزيادة اليقين والعمل على سلوك الشعب الايمانية، وبين الاحسان الكامل الذي يتحقق فيه الكمال الانساني في عالمي الشهادة والغيب، في عالمي السعى على الأرض والوجود النير في عالم الروح. والذكر باللسان والقلب يجدد الولاء لله وإرادة التقرب منه، وهو التملق إلى الله كما اء في لفظ الحديث والتزلق إليه آناء الليل وأطراف النهار.

وهنا أيضا مفتنة بين المسلمين، لأن من بين الحرفيين من ينكر أن يكون في القرآن أمر بالذكر باللسان، واتخاذ ورد عندهم كفر. ولسنا نحب أن نعود إلى جدل مزق أوصال الاسلام، وأوهى قواه. لان الورد أو اللورد واتخاذ الشيخ والاستغناء عنه أمور إحسانية، فمتى كانت همة من يجادل لا تتجاوز النطق الاسلامي إلى العمل الاسلامي ثم إلى التزكية الروية التي هي طريق الفلاح، قال بهواه ورأيه. ولا نسمع إلا لمن قال عن تجربة ومعاناة. ووزن الغزالي في هذا المجال، وهو الذي هبط من علياء مجده الدنيوي بصفته حجة الاسلام ومفتي العالم الاسلامي ليلتمس شيئا ووردا ثم يشهد بعد سنين أن من سماهم الناس صوفية هم زبدة المسلمين، وزن الغزالي يعادل وزن أجيال لا

حصر لها من الذين ينطقون عن هوى أي عن اجتهاد نظري وهمة هابطة.

ولنرجع إلى كتاب الله وسنة نبيه لنتجاوز الخصومات الطائفية. يروي الله لنا وصية لقمان لابنه، وفي أولها الموعظة بين الوالدين ثم ياتي بعد ذلك مبشرة النصح باتباع رجل صادق: {وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي}. وفي كل قوم منيبون إلى الله وهداة. قال تعالى: {ولكل قوم هاد}. والدعاة المتبعون الذين ليسوا بأنبياء هم المعنون في الآية التي سبق ذكرها في قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: "قل هذه سبيلي أدعو إلى اله على بصيرة أنا ومن اتبعني" والاتباع والتعلم من أهل العلم والنور تمثله أنصع تمثيل قصة موسى عليه السلام مع الخضر، هذا العبد الذي آتاه الله رحمة منه وعلمه من لدنه علما، وربما يقرأ الآية من لا يهتدي بالقرآن فيمر بها ولا يتدبر، والله تعالى ما قص علينا كيف نزل الرسول المعصوم موسى الكليم عليه السلام إلى مكان التلمذة بين يدي رجل ليس رسولا ولا نبيا إلا ليتذكر أولو الألباب.

وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حث على صحبة الأخيار ومجالسة الذاكرين والصبر معهم، لما علمه الله أن يصير في مجاليتهم ليقبسوا منه نورا، وليس سنة عظيمة هي مجالس الذكر. قال الله تعالى لنبيه، وهو أمرنا معشر أمته: {واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}. هذا أمر

بالصحبة والمجالسة للذكر والعلم. ويروي الطبري في تفسيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم فوجد جماعة يتذكرون القرآن ويذكرون الله فقال: {هؤلاء الذين أمرت أن أصبر معهم} والصحبة حين تتعمق وتصفو وتصبح رابطة روحية تسمى خلة. وعندئذ يكون الخليل على دين خليله أي أن بركة الصحبة تصعد بالأدنى في إيمانه إلى درجة المتمكن. وذاك معنى قول الرسول الكريم: "المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من بخله"¹.

ابتداء من المسلم الفاتر أو المسلم الجغرافي أو المرتد تبدأ عملية تربية أساسها الصحبة، وقوامها ذكر الله، ومجالها وقت المريد تستغرقه كله بالعبادات والاوراد، وأخص مجال هذه التربية مجالس الذكر لأن بذكر الله تطمئن القلوب. وتذكر مرة أخرى أن الذكر ليس فقط عملية باطنية بل هم أيضا ترديد وذكر دائم لاسم الله. قال تعالى: {قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى}. {واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا}. ومن ذكر اللسان يشع الإيمان في القلب حتى لا يغيب عنه ذكر الله عند الفعل والترك. بواسطة ذكر اللسان يخرج الإنسان رويدا رويدا من دائرة الغافلين ليدخل دائرة الذاكرين. يتحول من عاداته الجاهلية ليتخذ موقفا جديدا لا يغيب عنه فيه ذكر الفاطر، المنعم عليه بالحياة، والمنعم عليه بآدميته القابلة للكمال الانساني الذي يصبح فيه

¹ أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه. روياه عن أبي هريرة.

الطالب لله محبوبا لديه والذاكر له مذكورا عنده، ويصبح الله تعالى له
عينا ويدا وعونا ومؤيدا.

العملية عملية تربية بمعنى المعالجة الدائمة، بمعنى التزكية. ولفظ
التزكية يشير إلى تحول من خبيث لى طيب، ومن ذل إلى عز. فالتزكية
تمريض، واحتياج الأمة إلى تجديد شامل يتضمن احتياجها أولا وأساسا
إلى تمريض عام يقيم أود الأرواح ويزكيها. وفي كل عملية تمريض لا
بد من طبيب. ومن معاني الصحة والجماعة الذاكرة دخول إلى حضرة
طبيب يعالج الروح. لنسمع كيف يفصل ذلك رجل طبوه ومرضوه
فعرف بحق الطبيب. يقول الغزالي في احيائه: "وهذا النوع من الطب
(يعني طب القلوب) واجب تعلمه على كل ذي لب. إذ لا يخلو قلب من
القلوب عن أسقام لو أهملت تراكت وترادفت العلل وتظاهرت. فيحتاج
العبد إلى تأنيق في معرفة عللها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها
وإصلاحها. فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: {قد أفلح من زكاها}.
وإهمالها هو المراد قوله: {وقد خاب من دساها}. ونحن نشير في هذا
الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها. وقد
فعل رحمه الله في هذا الكتاب وفي كل كتبه منذ عرف الحق. وقد نصح
للأمة جزاه الله خيرا.

ومن الناس من لا يشعر بأن له قلبا ولا يعترف بأن له روحا،
ومثل هذا لا علاج له، ومنهم من ينكر أن يكون ثم طبيب للقلوب لديه
الدواء الذي يحيي موات القلوب. وهذا ميؤوس من تدرجه في معراج

الإسلام والإيمان والإحسان، إلا أن يشاء الله فيلهمه سلوك الصالحين. وما كل الناس يضعون بصدق واستماتة سؤال: من أنا وما قيمتي؟ وليس لكل الناس همة الغزالي أو بسكال المسيحي أو غاندي الوثني. وليس في كلامنا خلط، ولسنا نضع إماما من أئمة المسلمين في كفة واحدة وصف واحد مع كفرة ضالين، وإنما إنسانية الإنسان ومعدنه وهمته توحد الأصناف على حسب همتها وإبائها أن تعد مع البهيمة في احصاء التطور التلقائي الذي يومن به الدهريون. وهداية الله وحدها توجه الهمة إلى عمل السعداء المحبوبين أو الأشقياء المبتلين.

قال الله تعالى لنبيه: {إن عليك إلا البلاغ}. وإن على الدعوة الصادقة إلا البلاغ. أما أن تمرض من يرى نفسه معافى وتزكى من لا يحب أن يتزكى، وهذا لا يمكن لأن الله تعالى أمر كل عبد أن يزكى هو نفسه، وكلمة العبد وجدناها عند الغزالي ولها مدلولان. هناك عبد القهر المعرض عن ربه عبد مخلوق واقعه يغني عن اعترافه. قال تعالى: {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمان عبدا} وهناك الذي خضع لخلقه وعبده وتقرب إليه، فتحرر من أوهامه ووقف بين يدي ربه يذكره بقلبه ولسانه، ويدعوه بغدوه ورواحه، ويتقيه بنياته وعمله. ومثل هذا هو الحر الذي على وجود أمثاله في الأمة قيام الأمة وشهادتها بالقسط بين الناس. وصفة هذا العبد في قوله تعالى: {وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خطبهم الجاهلون قالوا سلاما} إلى آخر الآيات ولنا إليها عودة بحول الله.

ولعباد الرحمان صفات وسمات، وهم العمود الفقري للأمة، ولا ياتون إلا نتاج تربية نورانية، على غرار ما تربى وخرج إلى الناس أبو بكر وعمر و خالد وربعى الذي رأيناه حرا بين عبيد، وإن كن عليه الثياب الصفيقة وبيده الرمح البدائي، وعليهم الديباج والحريز ورهن اشارتهم الجيوش المدربة المسلحة.

ما على الدعوة الصادقة إلا البلاغ، ويتجمع ذوو الهمم العالية يريدون وجه الله، وتتكون النواة الحية لجماعة المسلمين المرتقبة لتعيد للمسلمين وللإنسانية الأمل في كرامة الإنسان وقد أهان نفسه وهو المتحضر القاهر.

يحيد الإنسان ع اتجاهه الصاعد به بحكم الفطرة التي فطر الناس عليها إلى درك المادية، وينحرف عن المنهاج فيشقى. ويصف الفكر الماركسي تردى الإنسان وانحرافه في كلمتين هما: الانسلا ب « Aliénaton » والتشيء « Réification ». الفكر الماركسي حين يصف انحراف الإنسان تحت عوامل المادة والضغط الاجتماعي الاستغلالي لا ينظر إلى قيمة للإنسان خارج حياته على وجه الأرض، لكننا نقترض الكلمتين والمفهومين ريثما نحلل انحراف الإنسان وفق المنهاج ووفق الحق الموحى به. ويقصد الفكر الماركسي بالانسلا ب انخاس الإنسان أمام أعماله وسلطان ما ينتجه عليه وعبوديته لمقتضيات عم ينحرف به عن خط الحياة التي خق من أجلها، ومعنى الكلمة في اشتقاقها اللاتيني صيرورة الإنسان إلى غيرية تنافى ذاته.

أما التشيء فهو تحكم الأشياء في الإنسان واعتبار الإنسان شيئاً من الأشياء. وهناك كلمة ثانية، أو قل عتادا ايديولوجيا ثالثا، في قاموس الفكر الماركسي، كلمة التوهيم « **Mystification** » ومعناها التضليل الفكري الذي يقيم منظومات فكرية تتحكم في الإنسان وكان لها وجودا ذاتيا وهي ليست إلا بناء عقليا موجهها لاستغلال الإنسان.

يحدثنا الله تعالى عن قوم غضب عليهم فمسخهم. ولا حاجة أن نعرف كيف تم المسخ، لأن فيما علمنا الله كفاية وهداية. وآيات المسخ لا يكاد المدافعون عن الاسلام من موقف الضعف يذكرونها لأنها في نطاق الغيبية، بل أنها موعلة فيها. قال الله عن بني إسرائيل: {و غضب الله عليهم ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت}، عبد بفتحتين بمعنى عبدة، فهو جمع، والمفسرون الأولون يتحدثون عن المسخ كأنه أمر طبيعي، وهو كذلك فإن كان حس البشر لا يدركه.

وهكذا أصبح ناس ملعونون قردة كالقردة تحاكي وتهارش وتلعب وتقلد، وخنازير تاكل الخبيث وترتع في الخبيث ولا تشبع، وعبد الطاغوت تذلل ولا تعز، وتعبد أوثان الجاه والثروة ولا تعبد الله. ومسح بني إسرائيل ناخذه كما وصفه الله، ولا نتعب أنفسنا في السؤال هل كان مسحا جسمى أو معنويا، فإن الله أمرنا ألا نسأل أسئلة فضولية.

والمهم أن نعلم أن المسخ انحراف الانسان عن قصد ما خلق من أجله. ولو كان لنا نور لرأينا من الناس، ممن حولنا أو من البعيدين عنا، ممسخين على صور أعمالهم، يتفاوتون قذارة ونذالة. وقد وصف لنا

رجل من رجال الله أهل النور ما شاهده من مسخ عندما فتح الله عليه أغلاق الحس، وأنار له عوالم المعنى والمثال ينفذ إليها ببصيرته. ولا تقف عند هذه الكلمات ولا يغرنك ما يثبت لك المحجوبون، فإننا إذ نتحدث عن الكشف والنور وعالم المعنى والمثال لا نعدو كتاب الله وسنة رسوله، وقد تحدثنا عن معجزات الرسول ونرجع في صلب الكتاب لذكر بعض كرامات الصحابة رضي الله عنهم، واترك من يومن بما يملأ يومه وغده من صخب المادة في عالم الحس ويشك في غيب الله الذي سيخلد فيه بصفة من الصفات سعادة أو شقاء حسب إيمانه وشكه. يقول سيدي عبد العزيز الدباغ، هو ولي عاش في القرن الحادي عشر بفاس، يملئ على تلميذه العالم النحرير، وهو الأمي المسكين عبد الله الغني الله، كتابا ملاء حكمة وعلم ما فتح الله تعالى به عليه¹. يقول إنه دخل يوما المسجد فتوجه ببصيرته إلى رجال كانوا يتوضون فرأى منهم من كان على صورة خنزير أو قرد أو غير ذلك من الدواب. ولكيلا تعجب من أن يرى الإنسان ما لا وجود له في عالم الحس أورد لك قصة رواها عالم من علمائنا المعاصرين دكتور يحمل لقباً جامعياً يبرئه من الغفلة والسذاجة اللتان يفسر بها اعداء ديننا من المستشرقين والمفتونين وإن كان لا يبرئه من تعليقات التحليل النفسي، وهو "علم" تائه يضع كلمات طنانة فيحسب أنه عرف أمراض الإنسان وحل مشاكله. والمحلل النفسي إن حدثته بأنك ترى ما لا يراه

¹ كتاب ابريز محمد بن المبارك، ولعل قراءته تكون ترياقاً لسموم الفكر الغافل عن الله.

الناس أخبرك بأنك مريض لأنه يعيش مع الحمقى والمخرفين.
واستطاع الدكتور عبد الحليم محمود أن يقول أنه شاهد في غرفته ما
لم يكن فيها، رجلا من نور وصفه أدق الوصف¹.

المسخ يتناول كلية الانسان فيشمل حياته على الأرض وحياته في
الدار الآخرة. وقد ورد في الحديث أن الناس يعيشون على صور
أعمالهم في الدنيا. وبهذا تكون أعمال هذه الدمية الانسانية التي تسعى
على الأرض وتتفاعل مع الناس والطبيعة وتستجيب أولا تستجيب
لداعي الله الذي يوقظها من غفلها لتدرك قيمتها وقيم حركاتها على
الأرض؛ تكون هذه الأعمال بناء للوجود الروحي الذي سيخلد الانسان
فيه. فمن مسخته أعماله في الدنيا بعث مسخا وبقي إلى الأبد مسخا.
ولا تؤدي مفاهيم الإيديولوجية التي اقترضنا هذا المعنى لأنها لا
تتعدى الحياة المادية، وأن تعدتها فلكي تحوم حول إنسية الانسان
وأناية الانسان. ولا تناقض في كلامنا، فإن كل إنسية إنما تنبني على
رعاية أناية الفرد وحب للظهور ونيل الاعتبار في جماعته، لشرف
الانسان وحب للعدل وعاطفته الأخوية نحو بني جنسه، كل هذا يرجع
إلى أناية أي حب للظهور في الجماعة. وإلى هذا يرجع من تحرر من
انسلابه وشيئيته والتوهيم المضلل له. وهذا مسخ أيضا، فيظهر أن
فهم قيمة الانسان كما تقدمها لنا الايديولوجية فهم مبتور لأنه يكفر
بالانسان إذ يكفر بالله واليوم الآخر يكفر بالإنسان كمخلوق مكرم وجد

¹ انظر كتابه عن شيخه أبي الحسن الشاذلي، وتجد القصة في فصل متأخر من الكتاب.

ليخلد عند الله في دار النعيم إن آمن وعمل صالحا. نمسخ الانسان إن حصرناه في أنسيته إي في علاقاته مع أبناء جنسه، وما تتيحه هذه العلاقات من أعمال ترضي أنانيته وتعبيرات بطولية أو فنية في ميادين الثقافة والقيم الحضارية. ومادام الانسان في دائرة الانسية وحياة الأرض فقد بخص نفسه حقها وعمى عن الحق، فهو مسخ.

المومن بالله ورسله وغيبه، الذاكر غير الغافل، انسان الفطرة كما عرفناه بالمعنى القرآني للفطرة، انسان حر. فإن هبط عن هذا الموقف وكان في عقيدته دغل أو في عمله افتيات على شريعة الله وسنة رسوله تعرض لوبال المسخ، القردي أو الخنزيري أو العبودي. وإننا لنرى، زيادة على المسخ الكلي مسخ الكفر والردة، مسخ المقلدين المفتونين بالكفر الجاهلي، ونرى المسخ الخنزيري عند من اتبعوا الشهوات واستأثروا بالمال، ومسخ عبدة الطاغوت الذين يكتمون الحق ليرضوا الطاغوت، ولهؤلاء مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي سبق المروى عن أنس بن مالك: "يكون في آخر الزمان ديدان القراء، فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهم الانتنون الخ". وديدان القراء هم علماء السوء، ويوضح لك البيان النبوي الذلة الدودية والنتانة والدب على الأرض دبا لزجا.

انسان الفطرة نتاج للتربية والتطبيب، يزيل عنه ايمانه عوامل المسخ ويتغلب على أنانيته وشهواته، ليس له هوى إلا في ما جاء به

الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به".

العناصر المومنة المتبعة للرسول المتحررة من شهوات النفس كانت على مدى تاريخ الاسلام أقلية في الامة، لكنها كانت النواة الصلبة في جسم الجماعة. و عندما عنت الفتنة ثم ضربت بجرانها و كثر الخبث ، غابت هذه العناصر عن مسرح التاريخ فلا تظهر الا في هذا العالم العامل الذي وقف أمام الخليفة أو السلطان الجائر فأدى حق الله في الزجر، أو هذا الواعظ الذي نصح الناس أو هذا الصالح الزاهد في الناس الذي اعتزلهم و ما يعبدون من دون الله.

و لا زالت العناصر المومنة الحية باقية في دار الاسلام مغلوبة على أمرها، فهي مع "الأغلبية الصامتة" أغلبية جماهير المسلمين سواء منهم من تعرف على الاسلام كرحمة ومعراج للكمال الانساني أو من بقي الاسلام له عقيدة وقومية أضعفتها عوامل التعرية الجاهلية، كما يعبر الجغرافيون، قليلا أو كثيرا. وتطبيب الأفراد وتمريضهم وتربيتهم تربية إسلامية جديدة مجددة يزيد ولا شك عدد العناصر اليقظة، لكنه لا يكفي ليخرج الاسم من التكيات والزوايا والمساجد ويصبح واقعا منتصرا في دنيا الناس. لأن الاسلام الذي تقلص من كونه معراجا روحيا وتعبيرا في الحياة الواقعية عن طاعة الله في الصغير والكبير من الأعمال إلى كونه اسلاما فرديا على مستوى ما من اليقظة إسلام

أفراد لا إسلام جماعة. وفي هذا الاسلام الفردي وجدت الجراثيم الأجنبية عن الاسلام مجالا لتتوالد وتضرو، وكثرت الخرافات، وأصبح الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به وجعل لقائنا به في تجليات المريدين كالدكتور عبد الحليم محمود أو في كشف الأولياء الكمل كالسيد الدباغ، جعل هذا اللقاء لكي نزداد يقينا ثم نرجع إلى العمل الذي يرفع قيمتنا، نرجع إلى مجاهدة النفس في الجماعة. أقول إن الغيب أصبح في الاسلام الفردي شيئا يجري وراءه، أي سرايا تضيع في طلبه الأعمار، ومن هنا كثر تجار السراب المشعوذون، وحفلت المدن والقرى ببائعي الحجابات ومتصوفة المرقعات ولحقات، وسكت العلماء فلا تسمع إلا دبيب الديدان من القراء الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.

ولتقوم الأمة الاسلامية ويتم تجديدها لا بد مع الطبيب والتمريض والتربية الشاملة من تحرير إرادة الفرد حين تذهب عنه أنانيته لتوه هذه الإرادات المتفوقة وجهة العمل الجماعي. وإن نجحنا في تحرير الإرادة بعد تحرير الضمير كملت لنا التعبئة التي ننشدها. وستكون تعبئة لا كالتعبئات التي أشرنا إليها من قبل عند ماوتسي تونغ أو ستالين، لأن تعبئة الشيوعيين تجنيد وإجبار بالتصفية الجسدية أي بالقمع المجرد الكامل، كقمع ستالين، أو بالتحميس والتربية الموجهة إلى الانجاز البطولي الذي سيحققه الجنس الصيني قاهر الطغاة ومحرر الشعوب المتخلفة، كما تقول الشعارات الملوح بها.

أما التعبئة الإسلامية فهي جمع لجهود الإنسان الفطري، الإنسان الصادق، الإنسان الذي له ذمة وحرمة وكرامة تتجاوز حياته على الأرض، لتتصرف هذه الجهود، وهي جميع، إلى ابتغاء موعود الله وموعود رسوله.

التعبئة الإسلامية طاعة مطوب بها المومت لله ورسوله وأولى الأمر، والطاعة لإنسان الفطرة هي كمال انضباطه، لأن من يقف أمام الخالق الذي يعلم سره وعلايته والذي خلقه ويتحكم في مصيره لا يملك إلا أن يطيع الله ورسوله وأولى الأمر من المومنين كما أمر، بلا مراوغة.

تحت حكم القوانين الوضعية يمكن للمومن أن يطيع حسب ما تضمنه له الطاعة من مصالح، لأن أولى لأمر لا يحكمون بما يحكم به من كان منا. لكن إن قام أوا الأمر برفع راية الإسلام أصبح المومن يرفع حق الله في الطاعات العملية التي بينه وبين أولى الأمر كما يرفع الطاعات العبادية التي بينه وبين الله.

ولتحقيق الطاعة لأولى الأمر شرعت البيعة. وأول ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب ممن آمن به أن يبايع، رجلا كان أو امرأة، على السمع والطاعة، وإذا بايع المومن، رجل الفطرة والذمة، التزم بالمر والنهي ما لم تنتهك حرمة الله، وارتبط بالإرادة القيادية التي تعكس إرادة الجماعة عندما تكون الجماعة مكونة، أو تعكس ما سوف تكون عليه الإرادة الجماعية في مرحلة بناء الجماعة، مرحلة

الاتباع الاسلامي، مرحلة الحضانة والقيادة التربوية قبل أن تجتاز الأمة مهاوي الفتن ويكون أمرهم شورى بينهم.

على يد الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم القائم بأمر الله يمضي المومن بيعه نفسه وماله لله لأن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. فالرسول يمضي الصفقة بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أنه يصافح المومن ايدانا بأن البيع بين الله تعالى وعبداه قد أمضي. فهي بيعة وبقيت الكلمة وتغير معناها عبر التاريخ الإسلامي. والبيعة الصوفية إحدى صور البيعة الأصلية، وهي ارتباط روحي محض، أما البيعة الجهادية منذ قام معاوية رحمه الله، فقد تحولت من عملية جماعية يتفق بمقتضاها المومنون والرجل الذي ارتضوه خليفة لنبيهم على شروط تدبير أمرهم، وأصبحت بيعة من جانب واحد أي التزاما من جانب الناس دون أن يلتزم الحاكم بشيء. ومعنى هذا هو الملك العضود الذي أخبر ارسول صلى الله عليه وسلم بأنه يكون بعده.

البيعة للرسول بيهة وساطة وبين الله وعباده، أما البيعة لرجل الحكم والامامة، أو لنعكس الجملة لتكون أكثر دلالة على النظام الإسلامي وتصنيفه للقيم، أما البيعة للإمام الحاكم فما ينبغي أن تكون إلا مبايعة أي التزاما من جانبين. هكذا فهم الصحابة رضي الله عنهم البيعة للخليفة. وكانت فتنة البيعة أعظم فتنة في الإسلام بعد مقتل الإمام عثمان وخروج الناس على علي رضي الله عنه. وبويع يزيد بن

معاوية والسيف على رقاب الناس. ومع ذهاب المعنى التشريعي للبيعة بدأت الأمة في تدهورها التاريخي نحو حاضرها المنهزم المر. وكل بيعة بعد يزيد إنما كانت مهزلة وجبرية وملكا عضودا وإن تعددت أسماء الدول.

والانبعاث الالاسمي، المنتظر، أي تعبئة الارادات لتحقيق العمل على الأرض فيما يرضي الله، لا يمكن إن لم تعد البيعة مبايعة أي التزاما من قائد ذي ذمة ومومنين ذوي ذمة على إقامة إقامة شرع الله. وهذا يقتضي بالطبع أن يتحرر القائد من أنانيته وأن يرفع عينيه عن متاع الدنيا ليمدهما إلى موعود الله ورسوله. ولا يكون انبعاثا اسلاميا وتجديدا للاسلام أن يجمع القائد بيعات ونيته لما تصف لله وهمته ولا تزال في الدور والقصور.

إن الأمة تعيش أزمات مادية وروحية ونفسية، ومن أهك هذه الأزمات، بل أهمها في نظري، أزمة الثقة. ولن يبايع المسلمون مبايعة صادقة من لم يسترجع ثقتهم. ترى الذين بكدون لنيل ثقة الجماهير الشعبية، كما يعبرون، يعدون الوعود ويخطبون الخطب الحماسية، ويقيمون المهرجانات للاحتفال بإنشاء معماري، وربما يكون المهرجان وما يليه بارزا "الجماهير" في مالها وفوت عليها فرصة الاستماع إلى الخبر الرزين الهاديء الذي يصدق فيربي ولا يبرر. والمهرجانات تعظم بعظم الإخفاق الذي يراد منها أن تغطيه. وقد قرأت وصف المهرجان الجماهيري الذي حيى به الشعب هزيمة عبد الناصر.

ينال ثقة الأمة أحد رجلين، رج خرج من الصف وبقي مع الصف،
ياكل كما ياكل الناس، وينفق كما ينفقون، ونمثل برجلين معاصرين
هما ماوتسي تونغ وهوشي منه. ورجل مترف أراد الله به خيرا فوفقه
لسيرة كسيرة مولانا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أعاد الضياه
إلى أهلها، وانتزع حتى حلى زوجته، واستكثر ثمن قميص بعشرين
درهما وقد كان زمن ترفه لا يقتع مجلة مائتي دينار. وإنما ذكرنا
رائدين شيوعيين لنذكر سر التعبئة العجيبة التي تبهر -اعيننا في
الصين وفتنام، وإلا فأين نحن من بيدنا الإمام عمر بن الخطاب حين
لبس الموقع وحرّم عل نفسه السمن عام الرمادة لئلا ياكل إلا ما ياكل
الناس! وأين نحن من مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام
لبس المرقع وزجر من رآه يقلده وفسر له أنه امام يتأسى به الناس
فما ينبغي أن يلبس خير مما يلبس أدناهم!

والناس، جاهليين أو مسلمين، ياخذ بألبابهم تحرى العدل ويعطون
ثقتهم لمن يخاطبهم ويدهاه صفر وقلبه عامر.

سيرة عمر بن عبد العزيز سيرة الطريق الصعب، لكن سلوكها هو
الوسيلة الوحيدة لاستعادة الثقة واستحقاق القيادة المجددة. ومن سلوكها
كان له أن ينتظر مبايعة يرضاه الله والرسول، وأن يتوقع نصر الله
الذي يدافع عن الذين آمنوا.

عند سبعمائة مليون مسلم على وجه الأرض كفايات ومهارات
وايمان يتفاوت، وعنهم حماس قوي مصدره اعتزاز بقومية إسلامية

وتاريخ إسلامي، ولكن كل ذلك مبعثر يتسرب في مظاهرات أو مؤتمرات تعقبها خطابات وبلاغات، ولا يفعل المسلمون السبعمئة مليون عملا مجديا، لماذا؟ لأن الإرادات فردية ولأن ولاء من لهم ذمة من المومنين لا يتعدى الولاء لله ورسوله إلى الولاء لذوي الأمر، لأنهم يرون من تصرف أولى الأمر إن أولى الأمر ليسوا منهم، أولوا الأمر يركبون الفخم والمسلمون لا يركبون، أولا الأمر يسكنون الشامخ من القصور والأمة المسكينة تسكن الكوخ، أولوا الأمر يخونون بالبلايين أموالا جمعها المسلمون بقروش تترك ثغرات في كساء الأطفال وغذاء المرضى. أولو الأمر فكرهم ممسوخ وهواهم تبع لموضات المتع.

من يذهب بهذه الأمراض إن لم تكن مبايعة من ذوي ذمة لقائد ذي ذمة على سيرة عمر بن عبد العزيز ، مبايعة تجمع الهمم وتحزم الجهود لتمحو الفقر والجهل والمرض والاثرة، لتمحو الترف وآثار الترف عن حياة الأمة المشتتة.

وفي أي بقعة من بلاد الاسلام تظهر الظاهرة الاسلامية ويلبس الوزير لباس العامل ويبذل جهدا حقيقيا بناء كما يبذل العامل المياوم الخائف على رزقه اليومي، في أي بقعة تظهر ظاهرة الاتبعات الاسلامي ويطمئن المسكين ويخف الجائر، في تلك البقعة يبارم الله، وإليها يجلب الله قلوب المسلمين السبعمئة مليون ليكتشفوا أن إسلامهم قوة لا ضعف وعزة ولاخنوع.

وإني لأرأى بالقارئ أن يعتبر هذا ضرباً من الخطابة، فإن وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم، وإن الله تعالى يرفع الملك الجبرية متى شاء لتجييننا الخلافة على منهاج النبوة. ويجيء معها الخير للإنسانية المريضة المتعبة وتمطر السماء وتنبث الأرض وتخرج فلذاتها، ليعم خير الإسلام في الغد القريب الذي نشرف عليه، كما عم في الأمس المشرق الذي بقي لدينا خبه أسوة وأملاً. ومن حيث خرج ابن عبد العزيز يخرج إمام مجدد يطهره الله من هوى نفسه وثقل ما في يده ومن لوثات الفكر الجاهلي، ويحليه بالصفات القيادية؛ القوة والأمانة، ثم يرد إليه ثقة الأمة ويهديها به سواء السبيل.

المبايعة على نصرة دين الله تقتضي بذل المبايعين أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، كما تصرح الآية: {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة}. ولا يخرج المومن خروجاً كاملاً من لجاهلية إلا بهذه المبايعة، ولنسمها « المبايعة الجهادية »، ولنلح على صيغة المفاعلة الدالة على الاشتراك والتبادل. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"¹ ويقول: "... من فارق الجماعة شبراً فقد خلع الإسلام من عنقه"². والجماعة والبيعة اللتان عليهما عماد العمل الإسلامي ويمزق منهما المبايع والمبايع له بالسواء متى خاس أحد منهما بشروط الصفقة،

¹ من حديث رواه مسلم عن أبي عمر.

² رواه أبو داود وأحمد عن أبي ذر.

وهي للجانبين معا بذل المال والنفس لله، على المبايع السمع والطاعة في المنشط والمكره على أن يكون له حق ابداء الرأي، وللمبايع له العدل. وجزاء الله للجماعة التي هذا وصفها أن يستخلفهم في الأرض ويمكن لهم ويعددهم بتوقيقه للعمل الصالح في الدنيا ولكرامته في الآخرة. وللإمام العادل المكانة الأولى في ظل الله إذ هو أول السبعة المبشرين في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "سبعة يظلهم الله في ظله بو لا ظل إلا ظله" إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال: "إني أخاف الله، ورجل تصد بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"¹.

يخرج المومن من الجاهلية خروجا كاملا بالمبايعة الجهادية لأنه يرصد منذئذ ماله ونفسه لإعلاء كلمة الله، فهو في مرابطة دائمة ويقظة تامة، حر يطيع قيسم، معباً في المنشط والمكره. وهو انسان غير الإنسان الذي نراه يسعى بيننا، إنه إنسان جديد، انسان حر كحرية ربيع وأصحاب ربيع، بايع عن طواعية عارفا شروط الصفقة وربحها، إنه المومن اليقظ الذي لم تمسحه أنانيات الذين حملوا على الناس السيف بيعة من جانب واحد بلا قي ولا شرط.

¹ متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ولسنا نقصد أن أجيال المسلمين الكثيرة الذين لم تح لهم مبايعة جهادية، وإنما أعطوا بيعة لخلافة سورية أو سلطان مستبد عاشوا عيشة جاهلية. لا نقصد ذلك لأن المسلم إذا لم يجد امام بالمعنى الكامل للإمامة ولم يجد جماعة فله أن يفر بدينه، من حديث طويل لسيدنا حذيفة بن اليمان يسأل فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي أُنذر بها الرسول أصحابه قال حذيفة: "إِنْ لم تكن لهم جماع ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذاك¹."

هذه شروط التعبئة الإسلامية: رجل يهتدي من قادة المسلمين ويتطهر ويتزكى ويخرج إلى الناس ببرهان صدقه ثغر اليمين إلا من حبلى الله المتين، خالي القلب إلا من ذكر الله وانتظار مواعده، مصمماً على بذل النفس والعدل والمال جهاداً في سبيل الله، ثم تطيب عملاً للإسلام الفردي حتى تتكون جماعة تربطها بالقيادة الجهادية مبايعة صادقة.

والمؤمن المعبأ، أي إنسان الفطرة الذي دخل الجماعة، إنسان خرج من عاداته ومألوفه، وتيقظ لحركاته ونياته يوجهها الوجهة التي فيها خلاصه، فهو المؤمن السني المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو إن آمن بالغيب واتقى، يهتدي بالقرآن ويستقي من معينه الخالد حياة وقوة. المؤمن السني إنسان منضبط يقظ، وهذا هو المعنى الكامل

¹ أخرجه مسلم.

للمحمدية التي نتحدث عنها. يقظته بالتربية تعطيه البعد الروحي، وانضباطه بالمبايعة يوجهه إلى الجهاد على الأرض ليحقق شريعة الله. ومن الناس من يرى أن السنية هي اتباع لحركات الرسول ووصاياه اتباعاً أصم أي بدون مشاركة الشعور والإرادة في الحركات والكيفيات والأقوال السنية. ولمن فهم السنية هذا الفهم أن يعتزل ساحة الجهاد وله بذلك أجره عند الله بنيته ومحبته لرسوله. والسنية الحق هي الاتباع اليقظ المنضبط، فيه تصبح كل حركة وكل كلمة عملاً له قيمة خ=حاسبة في التقدم على المعراج الذي يؤدي إلى الكمال¹.

والسنية بهذا المعنى وبما يسبق تحقيقها ويليه هي المحمدية، هي اتباع النموذج الكامل صلى الله عليه وسلم. محمدية اليقظة والانضباط، يواجهها عند الإنسان الميت الغافل عن الله مجموعة العادات والمألوفات المحمدية انفصال عن الجاهلية التي تربط بين أعضائها علاقات مصلحة للدخول في حيز الإسلام، اسلام الوجه لله، وفي حيز الفطرة، إقامة الوجه لله حنيفاً.

ويصح لنا أن نتمم مفاهيمنا الإسلامية بإبراز المعارضة بين إنسان الفطرة وإنسان العادة. الأول يقف بين يدي الفاطر يتبع سبيل الله وينتظر موعود الله، والثاني يعيش لعاداته مخلداً إلى الأرض، همه رغد العيش وغايته انتهاب اللذة في الحياة القصيرة التي تتيحها له الفرص في اعتقاده، وتنتهي بالموت. هذا لا يمنع إنسان الفطرة أن

¹ اقرأ كتاب "الإسلام في مفترق الطرق" للسيد محمد أسد. خاصة الفصلان النفيسان اللذان تحدث فيهما المسلم السني عن السنة.

تكون له في عالم المصالح الدنيوية مآرب، كما لا يمنع انسان العادة أن تكون له في عالم الفطرة ظنون وتوقان إلى مثالية ترفعه عن دنيا العادات. والمومن انسان الفطرة يقضي مآربه الدنيوية لكنه لا يغفل لحظة عن مغزاها وجزائها، ويتحرى فعل الرسول وقوله لئلا يزيغ به الهوى.

وكيفما عبرنا بعد الآن فإنما نقصد بعبارة انسان الفطرة المومن اليقظ المنضبط السني¹ المحمدي، ونقصد بانسان العادة الغافل الكافر أو الغافل غير المنضبط، ونترك في كل الحالات من اعتزل وفر بدينه عن ساحة الجهاد فما لنا عليه من سبيل.

جماعة لا مجتمع

ما زالت المجتمعات المتحضرة تولي اهتمام كبيرا لدراسة علاقات الأفراد بعضهم مع بعض، كيف تنشأ وكيف تتطور وكيف يمكن أن تتغير ليعيش الناس في مجتمع أكثر إسعادا لأهله. وكلما زاد ضغط الحضارة وثقلها بما تفرضه من علاقات جافة قوامها العقود القانونية والحقوق المتنازع عليها، زاد إحساس الناس بضرورة البحث عن مجتمع أفضل، يبذل الوجه القاتم، وجه المجتمعات المدنية التي يجهل فيها مكان الفرد ويسخر ويصير ويدفع للمضاربة والمقاتلة للبقاء على حقوقه، بوجه إنساني يعود فيه الفرد إلى إنسانيته في جو التعاون الأخوي والبذل الذي لا ينتظر جزاء.

¹ لسنا نقصد بكلمة السني التفريق بين المذاهب. فالشيعي عندنا مومن أن أقام كتاب الله وسنة رسوله ومحبه لآل البيت لا تريده إلا إيمانا.

علم الاجتماع اليوم قبله نظر المثقفين، وصيغة الأكثر حداثة، المذهب النبوي، يحاول أن يطبق مناهج البحث العلمية على دراسة المجتمعات لعله يهتدي السبيل لصلات أوثق وأمتن بين الناس. ومنذ أحلام دور كهائم الفرنسي وطونيز « Tönnies » الألماني بإمكان وجود مجتمع ذي تركيب عضوي فيه التعاون وفيه العطف على الضعيف. وعلماء الاجتماع في جهد، لأنهم يرون المجتمع العقلاني « Société rationnelle » لا يزداد إلا تعقدا ولا يزداد الفرد فيه إلا عناء وشقاء تزداد حاجاته يتقدم العلم والاختراع، وتزداد المنافسة على الأرزاق ضراوة. فهو اليوم أبعد من أي وقت مضى عن تحقيق مجتمع عضوي متعاون. ويبقى الحلم حلما على السنة الساسة وتحت أقلام المفكرين، بل إن الحلم يزداد إغراء كلما ازداد امتناعا.

آفة المجتمع أنه صنع الناس للناس، قوانينه التي تحكمه، ونظامه الذي له يتعامل الأفراد، وأسس في توزيع الأرزاق، وأفكاره ومثله، وأمانيه وغاياته. والانسان يتسلط على الطبيعة ويتملك ناصيتها باطراد، ويظن أن بإمكانه أن يسيطر أيضا على نفسه، على الجماعة، ويوجهها إلى فعالية إنسية تسعد الإنسان مثلما فرض على الطبيعة فعالية وجدوى أكثر بفضل العقلنة « Rationnalité ».

والذي يريده علماء الاجتماع هو الرجوع إلى مجتمع طعي يذوق فيه الفرد حلاوة الصلات التي ترضى حاجته للمحبة والألفة، ولا تعزله انعزال الانسان المتحضر اليوم، عبد الوقت والحاجات المتجددة

المتكاثرة. وهم يعبرون عن هذا المجتمع المنشود باسم "جماعة" عة ض اسم "مجتمع".

تتالى الفلاسفة بعد أفلاطون وكل يتصور مدينته الفاضلة، ولاوح رجال الفكر والسياسة بشعارات الحق والحرية لمجتمع أفضل. ومهما تنوعت المذاهب وأغتننت الآراء فإن العقد الاجتماعي الوضعي الذي يعطي الانسان الطمأنينة ويرتفع به فيشموليته لا يزال حلما وشعارا على الورق. يقول الديمقراطيون إن الإنسان لا يسعد إلا بالحرية، ويقول الاشتراكيون إن مجتمع الغد هو مجتمع العدل مجتمع الشيوعية الذي يزيح كل التناقضات. وفي انتظار الحرية والعدل يعيش المجتمع الجاهلي في ظل القمع والضغط على الحريات والظلم الطبقي والعرقى. ويعيش المسلمون في فتنة التابع المستضعف، في العصبية الطبقية والعرقية، وتسمى قومية ليغطي الاسم بشاعة المسمى، وفي الظلم العام الاناني. يعيشون في "مجتمع الكراهية" كما وصفه رجل من قومنا العرب عاش في لظى الكراهة وظلم الأنانيات والذلة¹.

المدنية مازادت الانسان إلا إمعانا في أنانيته وبدائيته. والمدن الكبرى اليوم في بلاد الغرب والشرق معا غابات تنتشر فيها الوحوش الكاسرة، إجرام وسطو على الأبرياء. وكان ذلك خاصا بمجتمع الحريات، أما اليوم فالعدوى تسري بل سرت إلى مجتمع العدل السوفيتي أيضا. ولكي يحد أصحاب الحضارات من انسلاخ الانسان عن

¹ انظر كتاب "مجتمع الكراهية" لسعد جمعة، وهو زير أول سابق. نفث في كتابه نفثة مصدور بانفعال شديد وكلمات مقاتلة.

إنسانيته، يلجأون إلى الثقافة يظنون أن الإنسان المثقف أميل للهدوء والتعاون. وعند المدرسة الألمانية لعلم الاجتماع تتعارض الحضارة مع الثقافة بوصف الأولى نشاط الإنسان لمتجه إلى الطبيعة وبوصف الثانية نشاطا للإنسان في تحسين علاقاته بالآخرين. فإذا نظرت إلى محتوى ثقافة المتحضرين، وجدت محتوى على مستوى التفكير والتعبير يحاكي ما تتضمنه الحضارة من عنف وتنافر وخيانات وأنانيات على مستوى الواقع اليومي. وسائل التعبير الثقافي تعكس على مرآة الكاتب والفنان الشاعر والممثل صورة مجتمع الانحلال الغربي في بلاد "الحريات" وتعكس في "مجتمع العدل" ضغطا إيديولوجيا ذي إيقاع رتيب مما يوحي به الحاكم خطة العمل ويوهم به المحكوم أنه في جنات ونعيم يخدعه عن نفسه.

الذين ينشدون جماعة لتحل محل المجتمع إنما يتعلقون بمحال، فلكي يرقى الإنسان عن مستوى المنازعة الأنانية في طلب حقه إلى مستوى البذل والتضحية في سبيل الجماعة يجب أن يوجد لديه حافز أقوى من الحوافز التي يقترحها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة. ويجب أن يكون عمله منضبطا بوازع أسمى من وازع السلطة والعقاب. وهذا هو الفرق الجوهرى بين روح الجماعة وروح المجتمع. فالمجتمع تجمع مدني قائم على الحق والمطالبة بالحق، والجماعة بناء عضوي قائم على التساند والتضحية. والحوافز في مجتمع الرأسمالية حوافز مادية محضة والوازع فيها وازع ردع

محض، فهو مجتمع حياته بين البنك والمحكمة. أما في مجتمع الاشتراكيات فالحافز في أول الأمر حماس ينفخه في الشعب قواد الثورة ومؤسسوها: "لكي نبني مجتمعا عالميا اشتراكيا متحررا"، ثم يمضي الوقت فيصبح الشعار: "لكي نبني وطننا القومي". ويخبو الحماس وشيكا فلا يريد الانسان في دنيا الاشتراكيات أن يتحرك إلا لشعار واحد: "لكي أنال أجرا أعلى وكسوة أفضل وقوتا أوفر". وتتعب الإيديولوجيات لأنها تصر على أن يعمل مجتمع العدل الموعد بحافز غير مادي أي بحفز الجماعة لا بحافز المجتمع. لكن ذلك لا يكون ولا يعوضه وازع الردع ولا السجون ولا حتى التصفية الجسدية. وسائل استالين الجبار وخروشف الماكر عن تخلف بلدهما في ميدان الزراعة حيث تصعب المراقبة لتطبيق الوازع في غياب الحافز.

يعترفون جميعا بأنك لا تغير أي مجتمع حتى تغير الانسان، وإلى تغيير الانسان يعمدون أول ما يعمدون، يغسلون دماغه ثم يمهونونه ويحشون ضميره بالشعارات، حت إذا تمت العملية وحذق الضحية في المذهب ووثق بالوعد، اعتبر متحررا. لكن سرعان ما يصبح وعيه الثوري سلما للصعود في سلم المنظمات الثورية حيث ينال أجرا أعلى ورزقا أوفر، ويعود لأنانيته بوعي ومهارة بعد أن كان يمارسها بسذاجة.

إت الله خلق الانسان ويعلم ما توسوس به نفسه شرع لنا خطة للحياة الجماعية، خطة متسامية لكنها واقعية، والتعبير بواقعية

ضعيف، كان يجب أن نقول مطابقة للحقيقة التي يحملها الانسان تنفك عنه. الجماعة المسلمة جماعة مومنين، لكنها ليست جماعة ملائكة مطمئنين. كابن آدم خطاء كما قال الرسول الكريم، لذلك شرع للجماعة حافز كما شرع لها رادع، وبينهما حدود الله حد العمل على إحراز رضاه، وحد الوقوف عند النهي، ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه وحق عليه الحد.

الجماعة الاسلامية ليست جماعة تلقائية منطلقة وفق عواطفها، بل تنظمها الشريعة كما عاشها الرسول وأصحابه. وللعاطفة فيها مكان الحافز الأول. انها جماعة الرحمة والألفة. ما بين أفرادها روابط وليست علاقات، لأنهم مرتبطون بالمودة والمحبة والتعاون التي تضمن لهم رضى الله، فإن الله لا يعتبر من الأمال إلا الصالحات، والأعمال الصالحة هي التي تصلح فيها الجماعة.

وصف الله الجماعة المسلمة في قوله: " محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار". الرحمة أبرز خصائص الجناعة وهم كالزراع طلع ثم استغلظ ثم استوى على سوقه يعجب الزراع، قوة وخير وانسجام.

الجماعة بناء عضوي كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم:
"مثل المؤمنين في توادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو
تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" وقوله: "المومن للمومن
كالبنيان يشد بعضه بعضا".

وفي حواشي الجماعة المومنة من ليس له إيمان ولا همة، وهذا
يواجه باردع الشديد، بالحد الشرعي، وفي الحدود الشرعية الإسلامية
عدل عليه أقام الفاطر العظيم نظام الكون والحياة، فالقصاص لنا حياة،
لأنه تشذيب من شعت الجماعة لكيلا يتفشى فيها الظلم والطاغوت.
وانسان الحضارة يتغذى بثقافة مائة تكون لديه حساسية مرضية
يسميها انسانية، لذلك نراه يقاوم الاجرام العاتي المنتشر باعطاء
حريات أكثر للمجرم عقوبة الاعدام. ارحم الراحمين بخلقه يقول: {إنما
جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا
أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم، من خلاف أو ينفوا من الأرض،
ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم}.

قسوة هذه؟ لا بل رحمة للجماعة، وربنا أعلم بمن خلق وهو
اللطيف الخبير، ويعلم الذين يقارنون الاحصاءات أن البلاد الإسلامية
التي لا تزال تطبق الحدود الشرعية أقل بلاد العالم نسبة إجرام. وهذا
لا يعني طبعا أن في دار الاسلام اليوم جماعة اسلامية مستقلة بالمعنى
الكامل.

يقول الامام عثمان: "إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن" فالناس بين مومن تقي يخاف الله، وبين غليظ القلب لا يردعه إلا عقاب السلطان. وانسان الفطرة ذو الهمة المتحرر من أنانيته يكون العنصر الوحيد في الجماعة وإلا لما لزم وازع السلطان، فمن يفعل وينفعل يتم له نوره ويبلغ كماله لا يكاد يحتاج لرقابة. أقول لا يكاد لأن العصمة للأنبياء وحدهم، وغليظ القلب قليل الايمان التابع للجماعة يعيش في حواشيها يقاد ولا يقود ويضبط ولا ينضبط.

عبر تاريخ الإسلام تكونت جماعات إسلامية تشبه من قريب أو بعيد الجماعة العضوية الموصوفة في القرآن والحديث، يؤثر في درجة صفائها عدل الحاكم وتربية المومن الحر ذي الهمة والذمة، وضراوة الفتنة المحيطة أو مؤاتاة الظروف. وإن اعتبرت التسلسل التاريخي، أو قل التدهور التاريخي ابتداء من الجماعة الأولى، تبين ك أ، الجماعة سرعان ما تحولت إلى مجتمع، وإن كان مجتمعا اسلاميا. وتقلصت معاني الرحمة والمؤازرة والمحبة فلم تبقى آصرة تضم الجماعة كلها، وإنما كانت تظهر هذه المعاني من طائفة دون طائفة وبين رجال دون آخرين. وكانت الرباطات الجهادية مواطن صالحة لتحيا عند المجاهدين روح الجماعة بفضل الحافز الجهادي ودواعي التناصر والتعاون في وجه العدو، وكانت جماعات الصوفية محدودة تكون جزرا صغيرة في خضم المجتمع الاسلامي جهادها في نفسها ويفيض خيرها من حواليتها حسب الوقت والإمكان. وأعني الصوفية الصادقين لا

محترفي المرقعات والسبح. قال الله تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} وتغيير مجتمعنا الحاضر، المجتمع المفتون غير الإسلامي لأنه لا يقيم شريعة الله، يتوقف على نجاح الدعوة الصادقة في تربية الفرد وتحريره وخلقه انسانا جديدا. وأذكر بأن ما نقصده بالحرية ليس حرية الهوى، حرية كل واحد ليمارس نشاطه وفق مصالحه، بل نقصد حرية الإنسان من أنانيته التي تحبسه عن بلوغ كماله الروحي، حريته من هواه وانضباطه تحت راية القرآن، يدخل في الجماعة لأن العمل في الجماعة هو وحده طريق الخلاص.

إن نجحت التربية في تغيير نفس الانسان، ووجدت القيادة الجهادية ومعها برهان صادق، فالمبايعة هي ميلاد الفرد في الجماعة. كنا تعرضنا للمبيعة وقلنا أن من يبايع من يبايع له لا بد أن يكون ذا ذمة، ولم نقل ما هي علامات الذمة وما هي قابلية الثقة: وبرجوعنا للقرآن الكريم نجد. يقول الله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا}.

تعرض علينا الآيات الكريمة وجوه الاستحقاق للدخول في جماعة المومنين، بل شروط هذا الاستحقاق الملخصة في الهجرة لكي يرتبط المرء بولاية المؤمنين، أي برباط المودة والرحمة التي تميز الجماعة، لا بد أن يكون هاجر إلى الله ورسوله، فإن آمن ولم يهاجر فما لنا من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. وتفصيل هذه الهجرة جهاد في سبيل

الله كما جاهد المهاجرون الأولون، تركوا في مكة المال والولد وقتلوا وقتلوا، ويضاهي ذلك إيواء المومنين ونصرتهم. فهذا تصنيف نموذجي الحي في تاريخ المهاجرين الأولين والأنصار، وهو جار إلى يوم القيامة. ومن هنا نكتشف أن ذا الذمة واثقة، المومن المستحق للمبايعة هو الذي هاجر إلى الله ورسوله. باصطلاحنا هو الانسان الذي خرج من العادة وتحول انسان فطرة بالمعنى القرآني. ترك مألوفاته، ما حرم الله منها وما أباح مما ليس ضروريا ولا حيويا، وانضبط بالمبايعة مع الذين يجاهدون بالمال والنفس في سبيل الله.

وإن أردنا بيانا لصفات المهاجر إلى الله عضو الجماعة يزيدنا فهما، ففي كلام عمر بن الخطاب ما يجيب عن سؤالنا. يقول الامام وهو يحلف على ايمان ثلاث: "والله ما أحد أحق لهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبدا مملوكا. ولكننا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالرجل وبلاؤه في الاسلام، والرجل وقدمه في الاسلام، والرجل وغناؤه في الاسلام، ولرجل وحاجته. والله لو بقيت لهم لأوتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه¹".

أفي الاسلام بقية؟ سؤال يلح علينا في عصر الصراع الطبقي. هذا عمر يصنف المسلمين حسب منازلهم من كتاب الله وقسمهم من رسول

¹ رواه أحمد عن أنس بن مالك.

الله صلى الله عليه وسلم. لا تراعوا يا من أكلت عقولهم الإيديولوجيات، فإن في الاسلام تفضيلا ودرجات ورجلا خيرا من رجل وامرأة أفضل من امرأة، وأصنافا عزيزة وأخرى رذيلة. الطبقة عصبية مبقة مغلقة، والدرجات التي بها يتفاضل المسلمون مراق في معراج الايمان والاحسان والعمل الصالح، وهي مجال مفتوح للمناقشة يتقدم فيه كل من نهضت به همته، ويدعو الله عباده ليتنافسوا للسبق وراقي الدرجات. الصراع الطبقي المعاصر يريد أن يزيل التفاضل في الأرزاق ولاينجح في ذلك إلا قليلا. أما الاسلام فيرقى بالانسان، كل الانسان، نحو الكمال. الطبقات تفاوت على مستوى العادة أي على انسية مغلقة على نفسها، وتفاوت الايمان يكون على مستوى الفطرة مستوى رباط المومن بربه. ويفضل الله من جاهد على قدر جهاده. قال تعالى: {فضل الله المجاهدين على القاعدين درجات}.

وتبرز في جماعة المسلمين نخبة هي النواة الصلبة للجماعة وهي صاحبة المبادرة في الخير. وبين أفرادها، مومنين ومومنات، يسود رباط الولاية والرحمة، ولا يكون نخبة الا من هاجر وآوى ونصر. والهجرة صدق، وإيواء الاسلام ونصرته صدق، فأساس كيان النخبة المومن أساس صدق. فإذا نزلنا إلى مستوى العادة في مجتمعات الكفار والغافلين والمفتونين، سواء الذين يزعمون إنشاء مجتمع لا طبقي، أو الذين يريدون أن تتاح للفرد فرص تحقيق إمكانياته في النجاح، إذا هبطنا إلى هذا المستوى فأمامنا نخبة هي التي تسير البلد أو تستغله

أو تمارس سلطة القمع فيه، فعند الديمقراطيات نخبة وللأشتراكيات نخبة يجمعها أنها تقنوقراطيات تمتاز بالعلم وسعة الحيلة. وسعة الحيلة أو لمفاتيح الأجواء العليا، أجواء الخبة الرائعة في بحبوحة العيش. فحيث يرقى المومن درجات عند الله وعند الناس بالصدق في بذل المال والنفس والصدق في الهجرة والصدق في البلاء¹ والرسوخ في العقيدة، يتمايز الناس في المجتمع الجاهلي بالدراية مبدئيا لكن المفتاح هو سعة الحيلة، المال الذي يسخر² الانتخابات حيث تكون انتخابات، والغلو الايديولوجي أو الاستاخانوفي حيث تسود الايديولوجيات.

النخبة المومنة تمتاز بالسكينة حين يضطرب الناس، وباخذ الله تعالى بمقاليد أمرها إذا صح منها العزم على الجهاد فيثبتها على النية والعمل المغانم والفتح، وميقات كل هذا ومستوفاه وقت البيعة، وبالنسبة لنا المبايعة، الصادقة المصممة، قال تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها}.

النخبة المومنة حاملة للأعباء، وسائر الأمة اما حامل نفسه واما محمول. ولا تنتظر النخبة جزاء ماديا على حملها الامانة، فهي عند

¹ أى بلاء حسنا، بمعنى جاهد جهادا كبيرا.

² نستعمل كلمة التسخير بأزاء الكلمة الغربية « Manipulation »

التوزيع تاخذ رزقها كما ياخذ الراعي بجبل صنعاء كما بين الفاروق
عمر رضي الله عنه.

التعبير القرآني يستعمل كلمة أمة بينما نجد السنة تامر الجماعة.
وليست للكلمتين إلا مدلول واحد. الجماعة في نفسها باعتبار ما يربط
أعضاءها من روابط الأخوة والتعاون وما يجمعهم من جهاد لاعلاء
كلمة الله، والأمة بمقارنة الجماعة مع من هم خارجها. الجماعة تعطي
معنى الحركية الداخلية بين المومنين والمومنات، وهي هي أمة تخالف
الأمم وتتميز عنها.

وإذا ذكرت الأمة الاسلامية بالنظر إليها كيانا متميزا عن أمة
أخرى، ففي ضمن الأمة الاسلامية من لا يستحقون ولاية المومنين
والمومنات لأنهم لم يهتجروا إلى الله ورسوله ولم ينصروا ولم ترسخ
أقدامهم ولم يبلوا ولم يجاهدوا. ويصف القرآن الأمة على عهد الرسول
صلى الله عليه وسلم فإذا فيها أصناف من الناس لم يبلغوا درجة
الايمان بل لم يرسخوا على إسلامهم. ومع ذلك فهم من الامة¹. ومعنى
هذا أن الخبة المركزية القوية بإيمانها وتضحيتها المخاطبة في القرآن
{ياأيها الذين آمنوا} الكلفة بحمل الرسالة وتبليغها، وبذل المال والنفس
في سبيل الله، هذه النخبة لا يمكن طبعا ولا شرعا أن تتسع فتشمل كل
الأمة. ولسماحة الاسلام ولينه ولمعرفة الله تعالى بخلقه وما هم
مجبولون عليه من الضعف أمام الهوى والشيطان، يقبل في حزن

¹ اقرأ سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من الوحي في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة.

الأمة كل من أدى الشهادة وأعلن ولائه لله وللرسول. ومرده إن لم يف بما أعلن عنه الحد والزجر، إذ نقص عن مرتبة الإيمان.

لجملة الناس حافز هو السير مع الجماعة القوية المنتصرة، وللمومن حافز الرجاء رجاء دخول الجنة ونيل الرضوان، ولمحسنين رجال التضحية حافز الحياة من الله المنعم المتفضل ألا يفوا له بحق الشكر، والحياء من الناس ألا يؤدوا فيهم حق الله. وكل هؤلاء أمة، لكن الجماعة، صاحبة المبادرة والقيادة، تخص من لهم الولاية من المومنين والمومنات.

وقد تصبح الجماعة المومنة غريبة بين الأمة فتصبح بذلك أمة وسط أمة، مجموعة تمتاز عن سائر الناس بتمسكها بالحق. إن الله تعالى رضى بالأمة التي أنشأها الرسول قمدحها حيث قال: " كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر". وفي أية أخرى خاطب الأمة على مدى الدهر وأمرها لتتكون من بينها أمة، قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر}. هكذا يريد الله للأمة أن تتجدد وأن يكون منها جماعة قيادية لا تزال تدعو إلى الخير وتقف على حدود اللت لتحترم. هذه إشارة إلى حركية متجددة ودعوة دائمة.

ولنا في هذه الآية الكريمة منهاج لنشأة الجماعة حيث لا جماعة. منهاج لنشأة الجماعة في زمان الفتنة الذي عيشه والذي انحلنا فيه فأصبحا لا نكون أمة إلا باعتبار خصائص على مستوى العادة يدعونها

أصالة قومية أو ثقافة ملونة أو قل فلكلورا، ويدعونها تخلفا أو عالما ثالثا، فنحن أمة بما عرفنا به غيرنا لا بما هو أساسنا العقدي والعملي الجهادي الذي يرشحنا لقيادة الانسانية نحو التحرر والكمال. نحن مأمورون أن تكون منا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، هكذا بالتدريج: دعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة ثم أمر بالمعروف إذا قويت الدعوة وظهر فضلها وعملها، ثم نهى عن المنكر إذا فشلت الدعوة وتبلورت في جماعة متماسكة فاعلة وسط الأمة.

وإذا أتاح الله الدعوة الصادقة والقيادة الجهادية معها برهان صدقت وتمت المبايعة، فالمنهاج النبوي أمامنا وضاح؛ ندعو إلى الخير قبل كل شيء. ويقتضي ذلك أن نكون رجال خير، أن تكون فينا استقامة وأن يكون لنا نور. ثم نأمر بالمعروف، ويجب أن نعرف بالمعروف حتى نأمر به. ثم ننهي عن المنكر ويجب أن نعرف المنكر وننتهي عنه قبل أن ننهي.

تبتدئ الدعوة غريبة، دعوة أمة وسط أمة، ف، وفقها الله وتكونت الجماعة وأخذت الزمام آل الأمر إلى كيان أمة إسلامية، على غرار الأمة الأولى، فيها أبو بكر وعمر، وفيها المومنون المجاهدون، وفيها المنافقون والمخلفون ما وصف القرآن. الإسلام لا يحقق إلا يقترح المدينة الفاشلة. لأن الله يعلم من خلقه أنهم سيختلفون وفق مراده، فيكون العاصي والطائع والصادق والمنافق. وليس لديمومة الجهاد في

سبيل الله وتجده إلى يوم القيامة مبرر لو أمكن أن يهتدي الناس جميعا.

جهاد مستمر للجماعة وسط الأمة، جهاد الحاملين للرسالة وسط المحمولين اللائذين الداخلين فيما دخل فيه الناس. وهذا الجهاد يرجع إلى خصال ثلاث هي البذل والعلم والعمل.

البذل لا تعرفه المجتمعات المتحضرة، وإن كانت تعطي المال وتتبرع وتؤسس المؤسسات الاحسانية، إنها تعطي على وجه الناس وطلبا للحظوة الاجتماعية، ولا عبرة بالافراد القلائل الذين يعطون بدافع أعلى من هذا. أما الاسلام فيريد من الذي باع نفسه وماله أن ينفذ الصفقة كلما حلت، حق الله عنده بمقتضى رضاه بالبيعة، فهو يعطي مال الله لله. وسبيل الله في الانفاق العطاء للمعوز والمحتاج عرضا، والعطاء للأمة أساسا، بذل المومن معناه تعبئة ماله لإقامة الأمة وتقويتها. وبذل النفس أهونه بذل الساعد والعرق والجهد، ويبلغ إلى بذل الدم عند الحاجة.

أما الخصلة الثانية من خصال الجهاد في الجماعة فهو العلم. علم ما يذر وما يأتي لخلاص نفسه من غضب الله ولخلاص أمته من الوهن والضعف. وعلى هذا الأساس يكون العلماء بما أحل الله وحرم وبما شرع من الدين هو العلم أو أساسا. وسائر العلوم الدنيوية، علوم الحكمة كما كان يقول سلفنا، تبع للعلم المنجي المخلص. ولاجدال في أن علماءنا العاملين المتقين هم القادة لبعث اسلامي، وقد آن أن

نتحرر من ترهات أعدائنا الذين علمونا أن ننظر بازدراء لمن سموهم علماء الدين وليس لهم اسم إلا اسم العلماء لأن العلم كتاب الله وسنة رسوله، ما أم يكونوا من ديدان القراء علماء السوء. فأولئك مسخ يتحمل وزر الذين نفروا من الاسلام لما شاهدوا الانحطاط الدودي. علماء الدين يملكون أن يحرروا الانسان بما يدلونه عي قيمته وخلود روحه، وبما يمثلونه أمام عينه من إحسان وتضحية وطهارة. ويبقى بعد ذلك علم الدني علم التكنولوجيا، وما أفخم الاسم في أفواه المتخلفين التائقين إلى الحرية المبتورة حرية الاقتصاد، لكن ما أهون كسب التكنولوجيا لامة غيرت الانسان وحولته، فضاعفت قدرته الفكرية والعملية كما يستطيع الاسلام أن يفعل.

والخصلة الثالثة في جهاد الجماعة هي العمل. يقول المحللون الاجتماعيون المهتمون بالانسان المتخلف، ونحن لا ريب متخلفون في ميدان العمل لكننا لا نحب أن نوصف بالتخلف لأن التخلف المادي جزء يسير من وبائنا ومسخنا، والقمة التي خلق الله المومن لتسئمتها في الأرض والسماء هي خلافة الله في الأرض ومقعد الصدق عنده بين يديه أبد الآبدين. يقول المحللون إن الانسان المتخلف لا يعمل ولا ينتج ولا يبذل. وكل ذلك حق وهو ينطبق علينا أمة العصبية والقوميات المنحطة عن درجة اسلامها. والمشكل عندنا هو "علم المنهاج" الذي يحرر المسلمين الجغرافيين إلى أمة مسلمة تحركها جماعة إسلامية نحو العمل. والمشكل عندن هو نوع العمل وأسبقيات العمل التي أمامنا

الحق والواجب، المطالبة والتضحية، البذل والتعاضد السوقي بالحساب البارد الشحيح. تتعارض هذه المعاني كما تتعارض الجماعة مع المجتمع ، وكما يتعارض المومن انسان الفطرة الذي مستقبله عند الله وانسان العادة الذي يرى مستقبله محدودا في الأرض. هذا حقي أطالب به! هكذا يفكر انسان العادة ولهذا يعمل، ويعمل المومن الذي وقاه الله شح نفسه للواجب يبذل ويضحى ويجاهد.

وللباحثين الاجتماعيين، ومنهم من أبناء جلدتنا، أن يقترحوا علينا حلولا على مستوى الناس، لأنهم لا يميزون بين الدرجات. وما دمننا مجتمعا، ومجتمعا منحلا متخلفا، فسيجري علينا ما يجري على الناس، وسنستجيب لنفس الرغبات والحاجات التي استجابوا لها، سبيلنا في حرصنا على الاسراع لنخرج من التخلف الانقلابية ودوامتها التي لا ترحم، وموئنا إلى ما آل إليه المسلمون في تركيا بعد انقلاب أتاتورك البطل الزعيم بأكثر من خمسين سنة، تخلف مادي مزمن مستعص، والفتنة على أدها، ينزع المفتونون المرتدون إلى مزيد من الكفر والتفرنج وتمتنع الأمة ولا تجيب. ولن ينبت في بلاد الاسلام كفر وإن كان انقلابيا عنيفا.

ماذا نعمل، وكيف نعمل؟ أظن أن الأولى أن نسأل: من يعمل؟ وجواب هذا السؤال العملي هو البحث عن الجماعة وروح الجماعة التي شيعناها. فإن استعدنا الجماعة وعملنا بروح الجماعة فإن أول

عملنا ولا شك تحديد مبادئنا وأهدافنا كأمة تريد أن تخرج للناس كما خرجت الجماعة الأولى تحمل الرسالة وتحرر البشر.

السمت الإسلامي

يتناول الفكر الفلسفي والفكر السياسي وفلسفة التاريخ الإنسان من وجوه مختلفة، وتضع كل هذه الفلسفات الإنسان في خط تطوري أرضي بحث. والمسلمون فقدوا فكرهم وتاريخهم معافلا يستطيعون إلا المحاكاة للعقل المنتصر الجبار، العقل العقلاني المخترع الذي يفسر كل ما على الأرض، ويفسر الإنسان ووجوده وتاريخه. وفي بحثنا عن الذاتية الإسلامية تسلك بنا النظرة الفطرية مسالك العقل العقلاني لكنها لا تنتهي إلى ما انتهى إليه لأنها تسترشد بالكتاب والسنة فلها فيهما هاد وعاصم .

على محور الفكر السياسي يبرز للنظرة الفطرية واقع الجاهلية في أخص صفاتها، وهي الجهل بالخالق ودينه وقوانينه والجهل بقسمة الإنسان، والحكم بغير ما أنزل الله. وعلى محور فلسفة التاريخ تبرز لنا صفة ثانية للواقع الجاهلي، وهي الجهل المناقض للحلم، أي هذا العنف الذي تتعاور الناس أمواجه، وتطوينا في فتنة تنقض، منظومة أو غير منظومة، من كل ركن وجانب. وعلى محور الفكر الفلسفي نجد الميزة الثالثة للجاهلية، وهي ميزة وجود الإنسان وتاريخ الإنسان وتطور الإنسان.

فحيثما ولى المومن وجهه لا يقع نظره إلا على معالم الجاهلية الشاملة المستوفزة لغزو الأرض كلها وحكمها، والمسلمون الاسميون أو الجغرافيون أو الفرديون ضحية الجاهلية المحيطة، فهم في فتنة ومعاشهم رهن بمزامتهم في سوق الجاهلية التكاثري .

المستقبل للإسلام، هذه مقولة قد يردّها هلى قائلها من لايعرف الإسلام ولا الجاهلية ومن لا يرجو موعود الله ورسول. والإسلام هو الوجه النير للحياة يتعارض والظلمة الجاهلية. هو الحرية والجاهلية مسخ وترد. والإبعاث الإسلامي المنتظر إعادة لجو النورانية الإسلامية والحرية الإسلامية والذاتية على مسرح الواقع اليومي. وقد رأينا أن حركية المسلمين حين يعودون إلى الحياة حركية جماعة لا تركيب مجتمع، ورأينا شروط الابعاث والتطبيب والتمريض اللازمين لتحرير الإنسان وإرجاعه للفطرة مخلوقا مكرما صائرا إلى دار الكرامة من دار الجهاد والعمل.

وبقي أن نتعلم كيف تحكم الامة، وكيف تخرج أقواتها من الأرض وأي أسلوب يكون أسلوبها في العمل وهي في محيط جاهلي مستعد لكره الحركة الإسلامية وعرقلتذة سبيلها. وبعبارة أوضح: ما هي السياسة وما هو أسلوب العمل وما يكون اقتصاد الأمة المنبعثة ؟

إننا إذ نجتهد للعودة إلى الذاتية الإسلامية لا نفعل ذلك لنرجع لأصالة فقدانها أو نمط ألفه اجدادنا. وإنما الاسلام نور والنور لما فقدنا نور الإيمان. فمى رجعنا لإيماننا، أو نعبر عما يعبر الصحابي عبد الله بن عمر، متى أوتينا الإيمان، ظهر في دنيا الجاهلية سمت لا يعهدونه، نورانية لا يعهدونها، لنقل وضوح وشفافية يطلبها الفلاسفة والساسة الجاهليون فيصيبهم الجهد في تصورها، ويمتنع عليهم تحقيق جزء منها في مجتمعاتهم الكثيفة المظلمة.

نورانية الإسلام، السمة السائدة في كيانه الذاتي، نتيجة استنارة القلوب المومنة، قلوب الجماعة المجاهدة المرتقبة لرضى ربها وموعوده. والاستنارة تأتي لمن اقتبس نورا من نور النبوة، وللنبوة خصائص يشترك المومنون مع الأنبياء في التحلي ببعضها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "السمت الحسن والتؤدة والإقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة"¹.

والامة المسلمة المتحررة تهتدي بالنور الذي أنزل إليها، فلها سمت، وفي عملها تؤدة، ولها قصد لا تزيف عنه. السمت الحسن يميزها عن الاضطراب الجاهلي، والتؤدة اسلوبها في معالجة الفتنة، والاقتصاد ملاك حياتها المادية. وبعبارة أخرى

¹ رواه الترمذي عن ابن عباس .

فإن تميز الامة في نشأتها المنتظرة عن المحيط الجاهلي يظهر في سمتها السياسي وتؤدتها إزاء العنف السائد بين الناس واقتصادها بين من ألهاهم التكاثر.

اتخذ لفظ " السياسة" محتوى جاهليا يبعد به عن المعنى الأصلي للكلمة العربية. الكلمة تدل على الرفق في المعاملة والحيلة للصالح والمصالحة بين الدوافع المصلحية المختلفة. وأصبح في الإصطلاح تعبيراً عن التشريع الوضعي المصلحية المختلفة.

وأصبح في الاصطلاح تعبيراً عن التشريع الوضعي الذي يتوج جهود من توصل لمنصات الحكم بوسائل التسخير و التهويش و الانتهاز . و بهذا المعنى فالاسلام الرحمة ، الاسلام النور ، لا تكون له سياسة . و إنما يكون له عمل إسلامي له سمت، أي عزة و نزاهة و حسن. و إنما استعملنا عبارة السياسة الاسلامية فإنما نفعل لنتفاهم ، و علينا ألا ننسى السمت الاسلامي البرئ من هذه العلائق و المساعي التوصلية التي يسمونها سياسة .

مناط العمل السياسي ،أي موطن الارادة المجتمعية ، هي هذا الكيان القليل الوضوح الذي يسمى "الدولة" الدولة هي القهر الذي ال وجه له ، رمزه بارز في شخص رئيس الدولة ، لكن وسائله للتأثير في المجتمع، تتستر ، و تتخذ في عين المحكوم ، أسفل السلم الاجتماعي، صورة عدائية مهاجمة تجافع و تقاوم و ترفض و يعترض

عليها . فلا تعطي السياسة ، اشتراكية مستبدة كانت أو ديموقراطية ، الشفافية للعلاقات بين المجتمع و حكامه . ظلال إدن و لا نور، و من لم يجعل الله له نورا فما له من نور . و بيروقراطية ستالينية أو بيروقراطية لبرالية عبارتان عن القهر المتعدد الثكنات، السائر وفق عقلنة عاتية نحو التكاثر و التنافس و العنف يطحن طحنا.و الاسلام أصبحت له دولة منذة بدأ في تدهوره . كانت الخلافة واقعا اسلاميا ، واقع مسؤولية و عدل ، فلما تدهورت الجماعة الاسلامية ظهرت دول منها الدول الخليفية ، و منها السلطانية .و جاء مع الدول الأبهة السلطانية و اللامسؤولية يدعم كل ذلك عصبية قبلية أو مذهبية كما وصف العلامة عبد الرحمان بن خلدون رحمه الله . و تدول الدول إذا ذهبت عصبيتها و تجئ دول . ويظهر أحيانا فيتاريخ الاسلام وجه يذكر بالعهد الاول، فيحارب الجاهلية المتمركزة و تحيس للامة ما استطاع من قيمها ، و يبدو الامر كأن الخلافة الحققة ظهرت مجددة موطدة ، لكن الملحمة تسفر عن قيام دولة تدول،و تترسب في الضمائر المومنة شيئا فشيئا آمال في تجدد الاسلام و الرجوع الى الخالفة التي على منهاج النبوة . عمر بن عبد العزيز سموه لقيامه مثلا حيا للسمت الاسلامي ، للنزاهة و العدل و الامانة و القوة ، و ابن تاشفين ملك البرين و البحرين، لم يحد عن معاشه الصحراوي البسيط ،حلوبه بشرب لبنها ، و ثيابه الصوف العادية ، و جاهد و أنقذ الاسلام ، و عمر مائة عام، فلما ذهب لم يخلف اماما و انما قامت على

رفاته دولة أخرى ذهبت بها عجلة الزمان كما ذهبت بكل دولة و تذهب
. و في تاريخ الاسلام دول محاربة ذات شوكة على العدو و أخرى
اغمدت نصالها في نحور المسلمين في الخلافات المذهبية ، و أخرى
تقمصت لباس الهادين المهديين على قلوب ليست هادئة و لا مهدية
فسفكت و قتلت . و لنا في تاريخها عبر شتى الدعوة أولا ، ثم تتطور
الدعوة إلى مطالبة و تفكير للدولة القائمة ، ثم وثوب وفتنة ثم تموت
الدعوة و تحيي الدولة إلى حين . دولاب يحصد الامة حصدا و يفتت
ذاتيتها على الزمان ، و يجي العدو الغازي المستعمر ، فتستعبد الامة
و الدولة . و يدخل الجميع في مدرسة التجهيل و التفكير و تلك فتنة
الاسلام الكبرى و منها نريد أن نخرج . و لا جناح علينا إن قلنا
لأنفسنا بصراحة صفة أدوائنا و نحن الناحثون عن الدواء الناجع و
الحق الضائع . قلنا قبل الآن ، ان اجتماع الدعوة و الدولة ، اجتماع
الحكم الدنيوي و الهداية النورانية في يد واحدة ، معجزة للرسول
الكريم و كرامة لصاحبيه أبي بكر و عمر وقد استعصى على عثمان
وعلي ، الامامين العظمين ، أن يقوموا حيث قام سلفها . و تأملنا مغزى
ظهور الدرة ، رمز الردع و السلطان ، في يد عمر ، و قرأنا شكوى
مولانا عثمان حيث قال : "إن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع القرآن" و
ان قرأنا سيرة الامام على عليه السلام و قرأنا خطبه المتأوهة ، ندرك
عظم الامر على هذا الطود العظيم من الرجال .

في خطبه هدي وزجر ووعد ووعد ، يلوح تارة بالقرآن و تارة بالسلطان ، لا ينسى مكان الخليفة ممثلا للنبوّة الهادية و مكانه قائدا للجماعة واقفا على مصالحها ، و ما خاب مسعاه كرم الله وجهه ، و إنما طغت الفتنة و تأبّت على الهادي و على السلطان معا . و قد درس الناس تاريخ الاسلام الاول واستنتجوا ما شاء لهم الاستنتاج ، و قال بعضهم ان الاسلام حدث باريخي فذ و لن يعود . و قال آخرون إن عصبية الجاهلية لم يقتلها الاسلام فتربصت ثم وثبت .

أما نحن فلنا أن نجتهد لزماننا ، و نأخذ العبرة من خط نظرنا و من واقع جاهليتنا السائلة بنا الى المهواة . وزبده اجتهادنا ان الهداية و الحكم وظيفتان ما اجتمعتا الا لرجال ثلاثة ، وكل من ظهرت عليه اشارة النورانية من حكام المسلمين لم يؤثّل خلافة راشدة بل أقام دولة تصير الى ما تصير اليه الدول . فنستنتج من هذا ضرورة السعي لايجاد امامة توزع الوظيفتين التوزيع القرآني : " لكل قوم هاد " و أمرهم شورى بينهم " وظيفة الهداية و التوجيه للامام ، و اليه المرجع و هو الحكم فيما اختلفت فيه جماعة الشورى .

اخفقت كل المحاولات التي زعم اصحابها تجديد الاسلام اخفاقا كليا أو جزئيا ، و حجر العثرة في هذه المحاولات طغيان الحاكم ز ميله الى الهوى ، و حب الرئاسة الذي ينسي الواجب و يهب بصاحبه اللاتهاز والترف .

وتجديد الاسلام في عصرنا ا يكتب له النجاح الا ان رجع ، نقول ان ارتقى ، الى السمات النبوي . السمات النبوي النير المستعلى على العادات و المألوفات . تجديد الاسلام في شخص امام يقوم يقود الامة ليكون أمرها شورى بينها ، و ان اكمل المهمة و بلغ القصد أصبح هاديا داعيا حكما . و لن يستطيع من ليس معصوما ان يحكم و يهدي الن الحكم تحكم في مصالح الناس ، و الناس لا يعرفون الحق، و انما تعرفون المطالبة التي يتلوها تفاوض و صلح . وهذا مجال الشورى وان زعم الامام تسيير مصالح الناس ، فغلط كما غلط من ليس معصوما ، تعرض للانتقاد و الكره و النقمة و ضيع فرص هداية الناس ، و هملا يهتدون الا بمن تستجلت أعماله محبتهم و تعظيمهم .

الا ترى ان ابطال القوميات والانبعاث الوطني ينصبون انفسهم لتربية قومهم و لقيادة الحكم ، فيغلطون كما يغلط الناس ، و يتعرضون للانتقاد . فيعالجون المعرة بالكذب والوعود و الشعارات ليستعيدوا الثقة و الحماس ، و يساعد الجبروت الطاغى فيستعبد الناي و يخضعهم للمظاهر البطولية و النتيجة دائما يتم القوم غداة موت البطل ، يتم أطفال لم يشبوا ولم يربوا .

المرحلة الانتقالية لقيام امامة هادية ، ترى قيم الامة و حكمها الشورى ، سمينها مرحلة القيادة الجهادية . و في انتظار قيام رجال الدعوة، أصحاب الوازع القرآني ، بتربية الفرد و تحريره، و انشاء ذمم بها تناط واجبات المبايعة ، لا بد للقيادة الجهادية أن تبرز و معها

برهان صدقها . و قد كررنا هذه العبارة و اشرنا لمحتواها وآنلنا نزيد افصاحا عما نقصده بالبرهان .

أن الامامة ، و القيادة الجهادية المؤدية الى المامة ، قدوة تحتذي قبل كل شئ . انها قيادة شخصية و مثال . تختلف في ذلك عن رئاسة الدولة . هذه تملئ الرادة من اعلى عبر الهرم القيادي ، و هي مفصولة عن المة بوسائط له مصالحها ، فلا تعلم حقيقة ما يجري ، و لا حقيقة ما يرفع إليها من معلومات . أما الامامة ، و القيادة الجهادية المرحلية ، فهي نزول الى الصف ورفع الوسائط الادارية فيما يرجع للاطلاع و الاتصال . ربما يكون في قصص " ألف ليلة و ليلة " مبالغة كاريكاتورية ، لكن هذه القصص باتينا بأخبار هرون الرشيد عندما يتخفى ليدخل المدينة و يتحرى بنفسه . و هرونية مثل هذه لا تتأتى في امة كثيرة العدد معقدة الحضارة ، و ان كان فيها اشارة الى منهج للاطلاع المباشر الذي يعطي القيادة صورة الواقع كما هي لم تشوهها تهوينات الضعفة المتملقين المغرضين.

القائد المجاهد في الصف و معنى هذا قبل كل شئ تخليه عن مظاهر الترف من السهل ان نتصور ان النفس تابی الرجوع عن عاداتها، وما كل الناس مثل عمر بن عبد العزيز . غير انه لن يكون ثم انبعاث اسلامي ان لم يبدأ الانبعاث في شخص القائد الجهادي . ان عصرنا ملئ بالامثولات الحية القوية للوجوه القيادية الشخصية التي بعثت شعوبا كانت من قبلخاملة . و لن يستطيع احا ان ينكر الواقع

الساطع في هذا الميدان . الجماهير الشعبية ، كما يقول لسان العصر ، تصبو اليوم الى مثال رجل قوي متجرد كما كانت تصبو على مر العصور . تغنت من قبل بأمجاد عمر بن الخطاب و هي اليوم تغني بأمجاد ماوتسي تونغ . و لن يستطيع احا أن يصرف انظار شبابنا عن رجل يلبس القطن الزرق كما يلبس قومه و ياكل كما ياكلون ، و لا عن رجل مثل هوشي منه يركب الدراجة في شارع عاصمته و هو القائد الاول. ذاك أخرج بلاد في بضع عشرة سنة من صفوف الدول المنحطة الكسولة المتفككة الى مراتب الدول العظيمة روحا جديدا مكنه من مقاومة الجيوش الجالوتية بنجاح و على أعني العالم و ما كان شئ من ذلك يقع لو سكن ماو قصرا فخما و انفصل عن قومه ، لو ركب هوشي منه سيارات مثل ما نركب . انها القدرة الصادقة التي تكهرب الناس و تدفعهم الى التضحية و العمل و تجعل من الثعاليب اسودا.

كان لنا ميراث ترف أخذته الامة الاسلامية ، في طبقاتها الحاكمة ، عن الكسروية و القيصرية و قصور بغداد و غرناطة و اسطانبول تركة هذا الترف و لما ذهبت شوكة المسلمين وحل بهم الاستعمار اتاحت لهم الفرصة ليتعلموا ترفا على نطاق أوسع . لم يحن المسلمون عندهم غزاهم المستعمر إلا على وضم ، خور و انقسام و جهل ، فلما هبت عليهم رياح الحضارة الغربية اكتسبوا عقلية الرجل الابيض و عاداته . و ما عثم ان خرج المستعمر فخلفهم دجيل من أبناء الامة

يكونون امة جديدة تفكر كما كان المستعمر يفكر ، و لا يكفيها مؤونة
لعيشها أضعاف ما يكفيه و استعمر الامة أبناؤها المغربون ، و
عبسوا في وجه أبناء جلدتهم كما كان يعبس ، واستغلوا نظير ما كان
يستغل، وزادوا على ذلك فسادا و افسادا . لان المستعمر في بلاد
الامة المغلوبة كان يحافظ على سمته وماء وجهه ، حتى و لو كان
نذلا ، و يتصنع الاداب الحضارية اللائقة بقومه ، أما المفتونون من
ولدان المسلمين، و هم فقدوا السمات الاسلامي ، و لم يأخذوا من
الاجنبي الامساؤه ، فإن شربوا كما علمهم لم يستطيعوا الوقوف، و
ان وضعت في أيدهم الاموال و الامانات و الاعراض فتكوا و انتهكوا
لا يهم الواحد منهم قول الناس ان اطلعوا على عجزه و بجره ، و لا
يستحي المرء من بقره ! .

طبقة الحاكمين في خذه الامة جسم اجنبي صارخ فاضح ، و
برهنت الاحداث ان الانقلابية لم تحذف هذه الطبقة المستعلية على الامة
و لم تغير عقليتها ، و لم تعد ان رفعت أقوما مكان أقوم ، و مع كل
انقلاب طبقة جديدة هي في فتكها و احتقارها للامة و قيمها و لما يغيب
عن أذهاننا محاكمة المشير العظيم في بلد الاشتراكية الانهزامية
ومافضحته من اخلاق تذكر بعهد المنعوت فاروق .

هذه الطبقة المترفة المستعصية على الاصلاحات و الانقلابات و
الثورات كما تستعصي بعض الجراثيم المرضية على الدواء ، ستكون ،
إن لم تعالج السمات الاسلامي عرقلة للتبعات الاسلامي. عرقلة من

وجهين رئيسيين. اولهما انها تستحوذ على أرزاق الأمة فينشأ الحقد الطبقي، وحتى لو تركنا الرشوة والإختلاس، فإن من الموظفين الكبار من يغترف من مال الدولة في بضعة شهور ما لا يناله الرجل الوسط في عمره بالكد والعرق. ويعلم الناس هذا كما يعلمون عنت الموظف الكبير الراجع في خموله، المطية الفخم والمسكن الاميري والخدم والحشم وأعوان المكتب ياتمرون ويتملقون.

والعرقلة الثانية ناتجة عن هذه، ولعلها أكبر. رؤساء الدول كالناس جميعا يحبون من يسمع وسطيع، وييسر ولا يعسر، ويحل المشاكل ولايخلقها. وإلى هذه الرغبة العالية تستجيب الطبقة الحاكمة المستمتعة، فتطيع وتتملق وتزيد الكذب المنمق في التقارير العريضة الطويلة، همها الاول والاخير المنصب والجاه والمتعة، وليس لها في السوق، سوق الامة الفقيرة المتعبة، ما تخشى على ضياعه. وهكذا تكون الطبقة الحاكمة المترفة ستارا كثيفا بين رئيس الدولة وبين الأمة، فلا تترك إمكانية للاتصال ومعرفة الحق.

والسمت الاسلامي وحده يقطع دابر كل هذا، سمت القائد المجاهد الإمام يلبس لبوس الناس وياكل ما ياكلون ويشد الحزام قبل أن يهيب بالأمة لتفعل. وإلا فهناك حل آخر نتدحرج إليه بالمنطق الجدلي الذي يحكمنا إذ لانهك أنفسنا. وبمقتضى هذا المنطق تصل عبر الانقلابية الى حل جذري يقوم به ماوتسي تونغ أو كاسترو جديد من أبناء قومنا. انه ياقوم الاسلام أو الطوفان !

والا تكن عمرية تبعث الاسلام، فلن يزداد اسلامنا الجغرافي أو السياسي الا تفككا وانحلالا. وكارثة باكستان شرح ضاف لاطروحة القومية الاسلامية تكون أساسا لنهضة الاسلام، كم من آمال علقت على قيام باكستان، وفي وسط الحماس والاندفاع والعنف على الةثنى الكافر، قامت الدولة التي صفق لقيامها كل مسلم بقي فيه نبض حياة. وحسب الناس أن الاسلام بديل عن القوميات، يكفي لترسيخه التوعية وتقوية الشعور بالتمييز عن الوثنى الكافر. وكانت النهاية الأليمة نتيجة فهم مخطيء للاسلام. فالاسلام ليس قومية إنما الاسلام لاجوع إلى الفطرة، إلى الفاطر الخالق، وامثال لامره وقيام بحقه، ولارجوع إلا بتربية، ولا تربية إلا بقيادة مجاهدة، ولا قيادة إلا بوجود دعوة صادقة، ومن هذه النقطة بدأنا، وما نكتبه بالحق عن فتنة شابابنا بالامثولات المعاصرة، وعن ظلم المثرفين منا انما نكتبه لنين جديدة الموقف وعبت كل محاولة اصلاحية لاتسلك مسلك المحمدية السمحة، مسلك النبي وصحيه من الخلفاء الراشدين. يجوع الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يشد الحجارة على نفسه وليس به خصاصة لانه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، بل كان يجوع ليتأسى به الناس. وهكذا فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي عليهم السلام. وبعد، أليس منا رجل شديد؟

برهان الصدق الذي يرد الثقة للقائد المسلم، ويكون له جوازا للعمل لايخرج من نفس القائد وحياته الشخصية. ومن أي أفق يجيء،

خرج من الصف فقيرا وبقي فقيرا مثل عمر وعلي، أو كان مترفا فتنزه وتزكى مثل عمر بن عبد العزيز ، لن ينظر المسلمون إلى ماضيه مثلما ينظرون إلى حياته الحاضرة. الذين يعملون بوزاع القرآن ويعززون جانبه ويخلصون له ، والذين لايتحركون إلا بوزاع السلطان يطيعون ويعملون إن كانت القيادة قدوة، ورأوا الحزام مشدودا في وسط من يأمرهم بأمره. وهكذا يتاحالجو لتصفية وتربية وتزكية عامة. أما التصفية فضرورة أساسية للانبعاث والقوة. تصفية الجهاز الإداري ، وتصفية الفوارق في الارزاق ، وتصفية الحياة العامة من خبث الجاهلية. هكذا بالتربيب. وقد جرب بعض رجال الاسلام تصفيات جزئية ، وكان لها أثرها المحدود ، لكن لم تقم على ذلك الدولة الاسلامية. يتبادر إلى الذهن أن الإصلاح يبدأ بمطاردة الخمر والزنى والفاحشة في السينما والكتب المنحلة ، وأن الإصلاح يبدأ بإقامة الحدود وقطع السارق ولامراء في أن كل هذا يدخل تحت الوزاع بالسلطان. لكن حملة المطاردة للزناة والشاربين وإقامة الحدود الشرعية على أمة مستعمر من لدن أبنائها المترفين ، فقيرة لسوء توزيع الاوراق ، ليس إلا عملا سطحيا يخلق الضغينة والبأس، لانه لاينال الا طائفة ، ويفضح الشارب المعربد الفقير ، ويبقى المترف مستورا في قصره مع خموره المعتقدة المجلوبة بالمال الثمين المنتهب.

قال الله تعالى يخاطب أخبار أهل الكتاب : "أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب؟ أفلا تعقلون !" وتلك سنة الله

القائمة أنلا يصدق الناس الا لصادق.فلذلك يلزم أن تبدأ التصفية من أعلى أدنى. وللتصفيات الإدارية مناهج ونماذج ، أبرزها إبدال طبقة بطبقة ونخبة بنخبة عن طري العنف والتصفية والتصفية الجسدية كما تعبر الايديولوجيات. وللإسلام طريق خاص وسمت متميز ، يفتح باب التوبة لمن أراد توبة، ويحيل المصريين المتآمرين على حد الله الذي أعلنه على من يحارب الله ورسوله ويبغي في الأرض الفساد . وهو لا يقف عند التصفية الجسدية بل يأخذ المجرم أخذ المنتقم الجبار سبحانه وتعالى. ومشروعية هذا الحد أن نية الامة واردة لها المشخصة في القائد الجهادي تهيات لتقيم وجهها لله ، فمن حاربها في سبيلها فقد حارب الله ورسوله وأفسد في الأرض.

ويتضح من هذا أن الإصلاح الاداري الانتقالي يسلك مسلك الدعوة الرحيمة إلى التوبة ، لكن لا يتنازل عن تصميمه ، ويظهر القوة والبأس على من ارتد الى عاداته الجاهلية . والإصلاح الاداري لاينتج شيئاً ان يكن عملية مزدوجة تبدل سلوك الحاكم والمحكوم معا وتغير نظرتهما الى وظيفة الحكم والطاعة . والمحكوم الذي لا وعي له ولا تربية يخلق الحاكم المرتشي الجبار . وعندنا يصبح التحويل عويصا في هذا الميدان ، لان المحكوم ألف على مر الدهور ان يبخرس حقه وتداس كرامته وينتزع نتائج جهده . وقد لاتجدي في توعيته الاساليب العادية إلا إن سبقها ما يلفت الانظار ويثبتها على مبدأ الصدق وهدف العدل.

لنتأمل سيرة عمر بن عبد العزيز لنستخرج منها درسا . إن ما يلفت النظر ويعظم الناس قدره في سيرته ما سماه البيان الاسلامي ردا للمظالم . وكان الامر عظيما حقا ، لان بني أمية اقتطعوا الاقطاعات وعاثوا فيها ترفا وغرورا ، ونشأ لهم من ذلك عادات وتأصلت لهم فيه اصول . وجاء إنسان الفطرة المومن القوي الامين فتناول كل ذلك أيسر تناول . بات مع صاحبه مزاحم يدرس الاقطاعات ويجمع المظالم ، وأصبح على الناس من الغداة يعلن للملأ أنه طرح الاقطاع الذي لفلان وفلان حتى جرد كل من كان مبتزا ، وكفى الله المومنين القتال . وكان وقع المفاجأة كالصاعقة على المعتدين ، لانهم لم ينتظروا أن يفعل بهم رجل بايعوه بالامس ما صبحهم به الخليفة الخامس . وفي دار الاسلام اليوم مظالم كثيرة وتفاوت مخجل بين حال المترفين في أمسهم الفقير ويومهم المذهب . وما يسميه الاصلاحيون قانون: "من أين لك هذا ؟" وتسميه الشيوعية نوع الملكية يرمي الى رد المظالم المحدثه منها والتالدة . وسمت الاسلام يقضي برد المظالم ولاريب، لكن الرفق الاسلامي ، وهو أبرز ملامح السمات الاسلامي ، يقضي أن يقرع باب التوبة والقطوع قبل أن تقرع الرؤوس . ولا يتطلب الامر واتبعث الله لنا مثل عمر . وما قدر عمر على ما فعل إلا لانه بدأ بنفسه وزوجه وخرج على الناس ليعلن القرار وعليه الخشن من الثياب وقد تعشى زيتا و ملحاً .

وتصفية الجهاز الاداري لاتكون تصفية وانما تكون فوضى وخبطا
ان اتخذت طابع الانتقام العقدي . فنحن لما نصل الى استتابه المرتدين
وتتحية المتزندقين . السميت الإسلامي لاينتقم وانما يقيم . من رجال
الادارة من اسلامه فاتر أو أسمى او علم ذلك عند ربي . لكنه ان
امسك يده ولم يظلم وكان القوي على شؤونه العارف بها السائر مع
الركب الاسلامي ، فتصفيته ظلم للامة . ونشير الى هذا لأن التحركات
على مستوى امة معلاضة للتعصب الاعمى اعني مما اقول ان التصفية
الإسلامية والسميت الإسلامي يضع المقتدر المتعلم الماهر في موضعه
ولا يعوضه اعتمادا على زهد الزاهد وتقوى الضعيف الجاهل . وقد
يجتمع الجهل بالأمور الدنيوية مع التقوى فلا سبيل إذن على من وضع
مهاراته لخدمة الامة ، والسعي لإصلاح باطنه وعقيدته يؤجل حتى
يتسع للامة ماضاق أمامها . وهذه النقطة على بدايتها تحتاج إلى
الحام كثير ، فقد رسخ في عقول بعضهم ان قيام الامامة الاسلامية يعني
ان تسود العمامات العتيقة وتحكم ، ويعني بالتالي ذهاب النظام وسقوط
الحضارة . ولعمري ان العمامة ان وضعت على راس تقي لهي تاج
العز والطهارة، لكنها تبقى على كل حال لباسا لا يقيم الاشخاص ولا
يعطيهم ما ليس لهم من مزايا ، وان كانت العمام تعني صنفا من الامة
، صنف العلماء العارفين بالحق الحاملين للعلم المطلق الذي به ينجو
الانسان ويخلص الى رحمة الله ، فإن من بين أصحاب هذه العمام
أئمة هداة هم اليوم وبين ظهراننا ملاذ العقيدة الاسلامية . وان كان

من بينهم ديدان القراء الملعونون تجار الدين فليس ذلك ذنب النخبة من العلماء . ثم إن العلماء لا ينكرون موضع التقنية والمهارة والفكر الرياضي في حياة الناس ، وقد ذهب الآن جيل حارب الراديو لأنه صوت الشيطان ، وتعلم كل الناس أن القمر كرة كالارض تطأها الأقدام.

ان النخبة الإيمانية الإحسانية التي تحدثنا عنها ، وهي العمود الفقيرة للجماعة الإسلامية التي ستخلف البنية الاجتماعية ، لا تتكون من رجال كاملين في كل ميدان ، فقد يكون منهم الماهر ، والمتعلم والغير المتعلم ، ولكل مكانه في ميدان العمل المنظم المعاشي، وله الصدارة بما يضحى ويبذل ويؤثر على نفسه . وامامنا تجربة شعوب اشتراكية زعمت أن الحماس الثوري مؤهل للعمل خير من مؤهلات التقنية والخبرة والمهارة . وفشلت تجربتهم كما ينظر لها .

نزيد على هذا أن الإصلاح الإداري في مرحلة التحول للسمة الاسلامي الخالص ، لابد ان يهيىء تصوراً جديداً للتوظيف والموظف . التصور الحاضر يعتبر الوظيفة تخصصاً ينبغي مهارة لها مواصفاتها ، ويعد الشخص المناسب فيضعه حيث يجب ، ويصبح الموظف بعد ذلك عائلاً تجري عليه الأرزاق بقطع النظر عن مردود نشاطه . وفي دار الاسلام اليوم تصور أخط من هذا للتوظيف والموظف، فلا التوظيف تعطاه المهارة اللازمة ، ولا الموظف ينتظر منه أن يكون منتجاً وماهرأ . وانما حدث فراغ عندما رحل المستعمر ، وتجارة الناس

لملء هذا الفراغ ، وللقوى بنسبه أو نشبه أحسن الوظائف واطيب العيش .

ولكي يكون التحويل الاسلاميحدثا حاسما في تاريخ البشر، ينبغي أن تكون التعبئة الاسلامية يقظة للعمل كاملة وألا يجري الرزق إلا على العاملين ، وألا يأمن أحد عين المحاسب ويده إن أخل أو تنازل عن مقتضيات التزامه . هذا تكميل للحافز المعنوي ، حافزا القرآن ، لابد من البلوغ به أقصى ما يتلاءم مع ضرورات تقدمنا المادي ومع الرفق الاسلامي والرحمة الاسلامية .

وأخيرا فالاصلاح الاداري الذي ينهض بالأمة يحتاج لاكتساب المهارات التكنولوجية والتنظيم والعقلنة . وعلى كل مستويات حياة الامة يجب أن تتفتح العقول للتعلم . على القائد المجاهد أن يتعلم كيف يتعلم ، وان يستمع النصح وان لا يستبد بالرأي ، وعلى من دونه ان يتعلم الأمانة والدقة في العمل والمهارة والإبداع . وخير المدارس مدرسة التجربة والخطأ ، ومن الخطأ يخرج الصواب ، ومن المحاولة المتكررة يكون الإبداع . ولا خطأ إن لم يكن عمل . وإن كان عمل فلا معرة في الخطأ .

اما تصفية الفوارق في الأرزاق فتتوقف على ترك عادات البذخ والتبذير والرياء الإجتماعي . الفكر السلبي التبريري يقول : اننا أمة فقيرة وليس لنا أرواق تقسم ، وقد نبهنا المستعمر واستأثر بخيراتنا . وهذا الفكر السلبي ستار تختفي تحته اللامسؤولية والعجز والأثرة،

هذه الخصائص الجارية في عمال المتخلفين و اقوالهم . واذا ذكر المستعمر الغاشم وجشعه وماضيه الأسود فكأنما قيلت الكلمة الأخيرة في الموضوع ، وسترت مغازي الحاضر بستار عفيف شريف . لا يا قوم إن دار الاسلام من أغنى بلاد الله وان سوء تدميرنا هو البادرة التي تفسح المجال للآثرة والأناية تخرب كما تشاء . ان مجتئنا ، اذ ليست لنا جماعة ، مسرح لأساة الظلم في ابشع مظاهره ، ظلم ذوي القربى . وكلما تقدم بنا الزمان استفحلت المصيبة واتسعت الفجوة ، قل الهوة ، التي تفصل بين العامل المسكين وبين الكسول الذي يرتع في بحبوحة العيش بما يكفي قرى كاملة مأهولة باجسام عادية و ارواح يخالها الموت والوباء والموت وتخاتله . يتعشى الموظف وضيغه في باريس أو نيويورك ويصبح في مكتبه يلهو بأوراقه ريثما يمسى ضيفاً على رفاقه في روما أو لندن . والزوجة تركب الطائرة ، كما يركب الفلاح حماره الدبر ، لتلك وجهها او تصفف شعرها او تستشير خياطتها بالعواصم المتحضرة . ويرحم الله الإمام علياً بن أبي طالب حيث يقول : " كاد الفقر ان يكون كفرا " . فكيف اذاً كان مع الفقر مشهد هذا التبذير الفاضح .

لنا ارزاق وافرة ، وان رفعنا المظالم وأحسننا التوزيع بارك الله في ارزاقنا ، وذهب الفقر ومعه الكفر والحقْد . والتوزيع العادل مواساة واقتصام للمغانم والمغارم . ولاسبيل إلى تربية من يبيت على الطوى ياكل قلبه الهم على مستقبل أولاده ، ولا يجد لمريضه دواء ولا

ثمن الدواء . وأن حساسية الناس للظلم في التوزيع تزداد بانتشار
الاخبار وتكاثر وسائل الإعلام والتعلم . ولن ينصاعوا لاية حركة
لاتحقق العدل الاجتماعي .

والانبعاث الإسلامي ينبغي أن يتدرج ، بعد رد المظالم ، إلى
تسوية معقولة مناسبة ، لاتتقحم في أحلام المساواة الشيوعية التي
كانت ولا تزال حبراً على ورق ، لكن تقرب بين دخل الموظف والأجير
، ورزق الفلاح والتاجر ، لتبلغ وسطاً يرضي ولا يسخط . ولكي تثبت
اسباب البذخ والتذبير تقتصر الامة على ما عندها ولا تستورد الذهب
بالعملة النادرة لتفتتن النساء في أنواع الحلبي ، ولا السيارات الفخمة
التي يمكن بثمنها أن يبتاع للامة معامل وأدوية. إن الاستقلال السياسي
خلف لنا عادات ومستويات في المعيشة لاتتناسب ووسائلنا . ولا بد
من الردع بالوازع السلطاني ريثما تكون النخبة الإحسانية الإيمانية
سلوكا جديدا ينبني على التقل والاقتصاد .

وهكذا يتهيا الناس لتصفية مظاهر الحياة الجاهلية باقتلاع اصولها
من الجذر . الخمر وباء وعائق عن العمل والسلوك النافع ، لكن له
اصولا هي الفراغ الروحي ، والمال الهين مأخذه ، والنماذج المنحلة
التي تقترحها على الشباب الكتب والصحف الرعناء والأفلام التجارية
السخيفة العاهرة . ولن يترك الناس الخمر ان لم تقلع جذور اسبابه ،
ولا تكون الرقابة والحد ناجعين إلا بذلك . وفي العملية ايضاً يلتقي فعل

الدعوة التربوية المزكية الصاعدة من مجالس العلم والذكر بفعل الوازع السلطاني المشرف من أعلى .

المهمة الثانية، بعد التصفية ، هي التربية بمعناها العام . ومثال المربي ق قدرته على القيادة وتضحيته ومحبته لمن يريد اصلاحهم أهم عامل . فإذا وقف القائد المجاهد وبرهان صدقه معه ، وقد حقق للناس عدلا يلمسون أثره في حياتهم اليومية ، سهل عليه أن يوجههم من عقلية مطالبة الى عقلية واجب . وأمكنه أن يعبيء الأمة في الاتجاه الصحيح اتجاه السمت الإسلامي ، اتجاه يكون فيه الإسلام حياة مهيمنة على حركات الإنسانية باعثة لنشاطه .

وقد تحدثنا عن "الدكتاتورية البيداغوجية " بتعبير الإيديولوجيات ، او قل "القيادة التربوية " ، ورأينا أنها أخذت قوي لإرادة التنفيذية لتحويل العادات إلى أعمال واعية . ونريد أن نوضح حتى لا يلتبس علينا المعنى وتصبح القيادة التربوية استبداداً من أعلى منفصلاً عن القاعدة . لاضرورة لجهاز قهري يفرض التربية الإسلامية ، بل يكون وجود مثل هذا الجهاز عائقاً للتربية الإسلامية ، ولنعد نتأمل نتيجة التربية الاشتراكية في بلد إسلامي اشتهر بجهاوه البوليسي . فشل ويتم وضياع .

القيادة التربوية مثال للعزم والثقة ، القائد في الصف ومع الفقير والحقير بمعاشه ويقظته وتضحيته ، ومع المثقف بقلمه ولسانه ، ومع التاجر والصانع بأمانته ونشاطه .

للتربية أجهزة مأجورة من الموظفين والمعلمين ، ومستواهم في بلاد المسلمين كمستواهم في كل البلاد المختلفة . ويكون رجال التعليم نخبة البلاد الفكرية وأكثر أبنائها انتشارا واتصالا بالناس . وهؤلاء ان اتخذوا سمت الاسلامي ، ونهضوا للريادة التربوية الاسلامية ، هم جند القائد التربوي . شرط عليهم ان يتزكوا ويحسنوا إسلامهم ثم يتطهروا ويسلكوا شعب الإيمان والاحسان . وتحولهم المضمون ان فعلوا خليك ان يوجه إليهم الانظار فيصبحوا مقيمين للقيم « Norm Setters » بلغة علماء الاجماع . لايقف علمهم عند التعليم وساعات التعليم وما يحيط بالاتصالات المهينة ظروف لضرب المثل على التضحية والإيمان والارادة الاسلامية . وأكبر الجهود وأطولها أمدا يصرف لتربية أجيال مومنة حاملة للدعوة الاسلامية والرسالة المحمدية.

وشطر التربية الثاني ينصرف لتربية اليد الصانع والعقل المنظم المبدع. الناس ينصرفون عن العمل اليدوي في البلاد المتخلفة لما يرونه من كسب واسع يحرزه المتعلمون ذووي الأيدي الرخصة والرزق الهين . وان حذفت الفروق الشاسعة بين أجر المتعلم القابع على الاوراق ورزق العامل الكاد بعرق جبينه ، أمكن معالجة العقلية المتخلفة التي تنظر إلى العمل اليدوي نظرة احتقار . وعلى المربين أن يضربوا المثل وأن يعلموا بأيديهم ، وأن يعمل بيده كل من يقتدي به كائنا من كان ، ولاتكفي الخطب والمواعظ . وقد أعطتنا الصين درسا

مفيدا في نظامها التعليمي الذي يفرض العمل اليدوي جزءا من المنهج الدراسي . ويعمل مدير الجامعة كما يعمل أصغر تلميذ في المدرسة الأولية، كما يعمل كل موظف كائنا من كان، وهذا هين في جو تعبئة جادة مصممة.

أما نقل التكنولوجيا وتكوين العقول المبدعة فلا سبيل إليه أبدا الا بالاعتماد الكلي على اللغة الاسلامية أداة تعليم وبحث وعمل، اللغة الإسلامية هي لغة القرآن، ولا دخل في القومية في هذا. ان المصاحف. والانبعاث الإسلامي يهدف آخر الأمر لوحدة دار الإسلام، فلا بد من اتخاذ لغة القرآن لغة للوحدة الإسلامية. وحيثما بدر الإنبعاث الاسلامي، ولو في غير بلاد العرب، فاستعاضة اللغة القومية بلغة القرآن ضروري. وسيبقى المسلمون عالة ما لم يعتمدوا على لغة القرآن اعتمادا كليا لايقيد بشرط. ويطرح السؤال: لكن لغة القرآن لاتتحمل التعبير في شكلها الحاضر عن العلوم المتنوعة ومن يتكلمونها مختلفون في اصلاحاتهم واتجاهاتهم. ومثل هذا السؤال ذو موضوع ان لم تكن تعبئة. ونحن إنما نتكلم عن مستقبل تعود فيه الروحانية الإسلامية والسمت الإسلامي والتعبئة الإسلامية ولن تتسرب عندئذ نخبتنا المفكرة للبلاد الغنية ولن تبذر الأموال ولن تبدد الجهود.

النخبة الإحسانية الايمانية في بلاد الإنبعاث الإسلامي تواجه مسؤولية تقييم القيم ومسؤولية التعليم وتربية أجيال من الدعاة ومسؤولية العمل باليد والعقل معا ومسؤولية نقل التكنولوجيا. وهذا

يسير في اطار تعبئة ومساواة ومؤاخاة وروابط جماعية بدل العلائق الاجتماعية. وهذا يسير أيضا لأن بلد الإنبعث يكون، بعد جلاء النية والارادة والعمل، دار الهجرة لكل مومن تقي أينما كان. وفي دار الإسلام آلاف من الرجال ذوي الهمم والبلاء والمقدرة ينتظرون الداعي، وهم يضحون بالنفس والنفيس لبناء الاسلام ان وجدوا على الساحة الاسلامية صوتا يدعو بلهجة صادقة، وبرهانه معه، لعمل مخطط منظم تحوطه إرادة جهادية، إرادة من يطلب الشهادة في سبيل الله أو إقامة صرح الإسلام عاليا متألقا.

وبعد التصفية والتربية تكون التزكية العامة، أي التحويل الكيفي للإنسان، والدخول في الجماعة، والمبايعة على نصره الإسلام بالبذل الكامل غير المشروط. ولرجال الدعوة الصادقين، من علماء عالمين ورجال صلحين القدم الثابت في التزكية العامة. ويطلب إليهم أن ياتوا ببرهاتهم كما يطلب إلى كل الناس. بل الطبيعي أن يبذلوا ويتقللوا في المعاش أكثر من غيرهم. وإنما الرجل وبلائه والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وقسمته من رسول الله كما قال الفاروق عمر رضي الله عنه.

كنا بحثنا عن المبايعة ومكانها في بناء الأمة، والحننا على انها عقد متبادل بين المبايع والمبايع له. وذكرنا شروط المبايع له في تخليه عن السمات السابق وبذله وصدقه، وذكرنا أيضا أن الثقة التي

تتكون فيه تضمن صحة وصلابة العقد. وهنا نتحدث عن الذين يبايعون.

الاسلام اليوم حديث على السنة القادة، ومطالبه تحت أقدام المومنين من العلماء والمفكرين. وهو يشغل حيزا متقلصا في حياة المسلمين الفقراء من عامة الامة. وهو عند المفتونين بالعقلانية الملحدة الغازية خرافة تاريخية. وهو في نظر المحنكين من رجال الفكر الاجانب جدوة خابية لكنها قابلة للاشتعال بسرعة كشأنها عبر التاريخ. فإذا قام رجل من حكام المسلمين وأعلن اسلامه بقوة وسلك في نفسه ومن حوله مسلكا اسلاميا صادقا، وعزم على تحمل أعباء القيادة الجهادية فذلك منه مبادرة يباركها الله. لكنه لا يستحق الامامة حتى يبلغ بجهاده غايته، حتى يقيم صرح الاسلام في بلده بالتصفيه والتربية والتزكية العامة. الامامة امانة لا يحملها الا الصادقون، وهي تطلب من صاحبها خصلتين بينهما القرآن اتصف بهما موسى ويوسف، ألا أنهما القوة والأمانة¹. والامامة التي نجتهد أن تكون لنا امامة لها نمط خاص، ليس همها أن تجمع بين الدعوة والدولة، فقد فشلت امامات مزعومة اتخذت الدعوة سلما للتسلط والحكم. امامتنا للإسلام المنبعث ترد الأمر الى الشورى كما نص القرآن وتجلس مجلس الحكم المحبوب المشرف. وليس الألوان أوان التفصيل في الكيف والكم والايين. لست أدري كيف ومتى وكم. وآخر مساعي القيادة

¹ انظر كتاب " السياسة الشرعية" للامام ابن تيمية، فقد فصل القول في الموضوع.

الجهادية بمشاركة الجماعة الاسلامية يستهدف للإجتهد في الكيف والكم والمتى.

وكما تؤدي القيادة الجهادية للامامة تؤدي الدعوة للشورى. وهكذا نرجع لموضعنا لنعرف من يبايع.

الناس فوضى في بلاد المسلمين لا يعرف طيبهم وورديهم، وغذا قام القائم المجاهد بإعلان نيته فلن يجد أمامه إلا الفوضى، لن يجد أمامه ذمما طاهرة يحاورها فيما عزم عليه، لن يجد إلا منظمات سياسية، أو حزبا موحدًا إن قام في بلاد الانقلابية، والأحزاب تحزب وتعصب واجتماع على المصالح والمطالب والانتقاد، تتخذ كلها صبغة الدفاع عن المحروم والمسكين، ومن وراء ذلك نيات أخرى، قد تكون صادقة في عدائها للإسلام وجهلها له. فمن يحاور القائد الجهادي؟ مكثه في مصالحة الأحزاب، أو شظايا الحزب الموحد، معناه التلکؤ عن المطلب ورفض التحويل الجذري. فلامناص من أن يمسك الإرادة الإسلامية بقوة وينظر إمكانيات وجود المحاور في آفاق أخرى، وعلى أساس اسلامي مخلص، آفاق المومنين الصادقين.

من يبايع؟ العادات المدعوة ديمقراطية تنظر الى الجماهير والاصوات. والجماهير تعطي أصواتها كما ينثر الطائر ريشه تحت العاصفة. كل تصويت يزيد عبين، عبء ممثل متأله يصل في الارض ويجول، وعبء النفقة الباهضة التي تنفق على الممثل ويدفعها الصوت من جيبه. دعنا من ديمقراطيات غيرنا، ولنعتبر بالذي يحدث

في ديمقراطيتنا. تمتاز عملياتنا الانتخابية بالإنتاجية الباهرة إذ تبلغ دائما، خاصة في بلاد الانقلابية، تسعة وتسعين ونيفا في المائة. وتمتاز بالحماس والحرارة الفائقين، حمى الشعارات، وحماس الزعاق المبرمج. وقد أصبحت أمتنا بعد جلاء المستعمر، فإذا بالرجل، والمرأة أيضا، تدفع إلى كرامة الأحرار فتصوت. وأمتنا المسكينة تفعل ذلك لاتدري لم تفعل، وكأنه تعاويد سحرية علمها عند الحاكم. ويرسخ في الأذهان بعد تجارب كثيرة، وبعد أن يرى الفلاح تجهم المرشح بعد انتخابه قدر أعمى يرفع من يشاء في عملية لاتتم الا بتصفيق الجماهير ودخولها الى الحرب الديمقراطية المظلم، محراب التصويت.

من يبايع المبايعة الإسلامية؟ وما هي الذمة والصدق، وما هي الطهارة والتضحية؟ إن كنا فقدنا هذه المعاني فذلك لأن حماسنا، حماس الامة المسكينة المستضعفة، انما أثير بكلمات كهذه غداة استقلالنا، فلما رفع الستار عن المشهد التالي اذا بالذمة خداع وبالصدق مراوغة وبالطهارة فسق وبالتضحية أكل ولم.

كلا ! ان الذي يبايع ويؤسس النظام للعمل الاسلامي في الامة الاسلامية لن يكون إلا رجلا برهن في الميدان على وجود هذه الصفات فيه، وبرهن بذلك على انها قيم كانت وتكون.

يفتح الباب لكل هذا بإغلاق معاطي الاضطراب والتهريج، بإغلاق منافذ التضليل والتسخير المفتوحة في الهياكل وعبر الهياكل وباسم الهياكل السياسية. لأن ما عليه أساسها وتفكره وما تكتبه مناف

للمت الاسلامي منافاة كاملة. نطاقها المضروب حولها، المسجونة فيه لاتريم، هو الحرية والإشترائية والانتخابية ويختار كل فريق أوهاقه حسب هواه وحسب فعالية وسائله في إغراء "الجماهير" وتملق الشباب.

لا نغني أن انبعث الاسلام يستغني عن النقد البناء، بل النقد البناء ضروري لحركيته ونشأته. لكن باسم الاسلام وعلى سمت الإسلام. النقد الإيجابي لا المشاحنة المشككة. وتذهب الريح بالفكر السياسي إن قام من يقول ربي الله بقوة، ويعمل وفق ما يقول بأمانة وتجدد، عمر يا محمد يا.

الذين يبائعون هم الذين قاموا إلى أقلامهم ومنابرهم ومحاربتهم ودراهمهم فدعموا بها الاسلام بها الاسلام وضحوا وربوا وآزروا وهاجروا الى الله ورسوله وتقللوا واقتسموا مع المحروم والبائس طاعة وتطوعا. الذين كانوا الرائدین. والريادة الإسلامية أمانة ودعوة. ولا بد لكل عمل يروم الفعالية أن يكون منظما. فلتكن إذن دعوات منظمة. او لنقل "دعوة منظمة".

الامثل أن تكون جماعة واحدة تقوم بالدعوة وتربي وتقود الفكر والعمل. لكن هذا لا يتيسر. ولعله من الخير أن يكون الامر كذلك. وربنا سبحانه يقول : "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك". فالخلف واقع طبيعي ريثما تنزل الرحمة. والخلف، في الجزئيات لافي الكليات والواجهة، يؤدي الى التنافس، والتنافس في البناء حافز مساعد يرحب

به رجال الدعوة، أو لنقل يجب أن يرحبوا به. قال عمر "رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبي". وليس كالمنافسة في الخير، وبالسمت الإسلامي طبعا لا بالشكل الغوغائي، ما يرد للمرء الى نفسه ليلومها ويصلحها. إن من الناس من يدعو نفسه سليفا ومنهم من يقول إنه صوفي وآخر سني وهكذا. والاسماء تفرق ولا تجمع، والاعمال تجمع لانها قابلة للمقارنة. فليفتح المجال لجماعات الدعوة. جماعات لاجماعات ولا تجمعات. جماعات لها تركيب عضوي ولها التزام ومبايعة، ولها عمل معلوم وهدف واضح في بناء الإسلام. أما الجماعات فحفلات وكلام وعرض، ومطالبة وفوضى.

جماعات الدعوة المنظمة حرة في النصيحة لله والرسول وأولى الأمر، حرة في فضح المظالم، حرة في البناء والتربية. وعلى نتائج عملها تكون مؤهلة أو غير مؤهلة للمبايعة الجهادية، ومن ثم لتتهيء النظام الشوري الذي يحاور الامام ويسير أمر المسلمين.

قد يظن أن تعدد جماعات الدعوة يزيد الأمة فرقة وقسمة وخلافا، ويوزعها طرائق قداد، والإسلام يدعو إلى الإتحاد والاخوة. ونحن في زحمة أمرنا أمام الفتنة العائمة الطامية نعتقد أن الحكمة والهمة ستجمع العناصر المومنة لتكون وحدة بانية، ولايذهب بنا التفاؤل رغم هذا الى الظن بأن كل الخلافات الموروثة المذهبية وغيرها ستمحي اولاً. كل الفرق الموجودة تجهل الإسلام قليلا او كثيرا، وتقرأ كل منها القرآن قراءتها الخاصة، وتؤول فعل الرسول وقوله تأويلها، زد على

ذلك المنازعات الحماسية حول اشلاء الشهداء من آل البيت. ولن يتعلم الناس اسلامهم إلا بالتدرج وفي ميدان العمل. فأى دعوة أعادت للمسلمين روحانيتهم وحررتهم من العادة والكسل والجهل، وأعطتهم نورانية العصر الاول، فتلك التي على المنهاج النبوي، عمل بلا جدال. أمامنا أمة جاهلة تحتاج الى من يعلمها، ولنا سواعد كسولة عاطلة تبغي من يجندها لتنتج، ولنا أموال مكنوزة أو مبذرة تنتظر من يحرر ضمائر أصحابها وإرادتهم ليبدلوا وينتجوا. لن يسمح للدعوة المنظمة المتعددة أن ترجع الى المعارك الصفية على تكفير من خلق اللحية أو اسدل يديه من الصلاة. ولن يسمح لها أن تفتح باب الجدل الديني ونبش رفات الاموات. فتلك أمة قدخلق لها ماكسبت وليس لنا إلا مانجاهد ونومن ونبر. وليس البر الا الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالغيب وبذل المال والنفس لله.

الدعوة المنظمة لن ينسينا كونها منظمة انها لاتكون بذيلة للتنظيمات الحزبية، بل هي الدواء المقابل للداء، والصحة الفاضحة للسقم. احزاب السياسة تجمع وتهافت والدعوة جماعة وتربية وسمت. إذا كانت مؤهلات الزعامة السياسية قدرة على الخطابة والمنازعة والمطالبة الصاخبة، ومراهنه الجماهير والهجوم عليها كل يوم بشعار جديد. فإن مؤهلات الدعوة استقامة وتقوى وعلم وسمت وواجب. لانقول إن الدعوى لاتطالب بالحق، بل نقول إنها تدل وتربيههم على أداء الواجب أو لا. وإن قال السياسي: هلم إلى أيها الجائعون أيها

الفقراء المحرمون نطالب بحقنا ونفديه بدمنا، فإن رجل الدعوة يقول:
هلم إلي يا من فقد كرامته وإنسانيته يا ضحايا الانانية ويا عتاة
الأغنياء والجبابرة، هلموا إلي جميعاً نقم حق الله فيما بيننا. وإن كان
رجل السياسة يسأل : الأرض لمن ؟ والمال لمن ؟ فإن رجل الدعوة
يسأل : الإنسان لمن ؟ وواضح أن الذي يجري ليعطي الأرض لمن لا
أرض له والمال لمن لا مال له، ويقف عند ذلك، يبني عمله على
مطالبة مادية مبدؤها ومعادها الانقلابية أو الثورية، ثم لا يحرر
الإنسان من مسخه وشقائه في الدنيا والآخرة. أما الذي يعرف الناس
بأنفسهم وبربهم فهو يحرر الإنسان ويرفعه إلى فطرته وطهارته
ويحوّله، بحافز الجهاد في سبيل الله عن إيمان بمصيره على الأرض
وعند الله في الآخرة، تحويلاً كاملاً جذرياً متجدداً. الانقلابية تخلق
الحماس وتدخل في دورها المفرع، والثورية جادة تخدع الإنسان
لإرادة جبارة قامعة تسير به سيراً لاهوادة فيه لمصيره على الأرض
آلة عمل وإنتاج لاحق لها في التفكير ولا التعبير. والاسلام ليس حلاً
سياسياً، إنه خلاص الإنسان واعطاؤه قيمته التي خلقه الله من أجلها.
وتعبئة الاسلام للجهاد هي الوجه الظاهر للتعبئة الروحية، والجهاد بذل
الجهد لبناء الامة بناء اقتصادها وجماعتها المتعاونة وبناء ما هو
أشرف من كل هذا، بناء النموذج الإسلامي الحي الذي يمثل الإسلام
في خضم الجاهلية المحدقة الحاذقة.

أية دعوة إسلامية تقف عند الإسلام السياسي، وهو الإسلام المنطلق من الفرضية الغالطة بأن المسلمين كما هم اليوم عناصر صالحة للبناء، وتتصور بكثلاث إسلامية، كومنولث إسلامي مثلاً، دعوة مبتورة سطحية. الدعوة الصادقة تتناول المسلم، وتعتبره مسلماً ما لم يرتد ولا تكفره بذنب أبداً وتربيته تربية كاملة على وفق المنهاج النبوي، على درجات المعراج الإسلامي، إسلام ثم إيمان ثم إحسان. معراج دائم صاعد لمن تزكي وذكر اسم ربه فصلّى.

والتربية الكاملة هي التي تعطي من في حضنها روحانية ونورانية وعلماً وعملاً. تنقله من عداد الغافلين إلى عداد الذاكرين، من الضيق إلى السعة، من مغاوي الشيطان إلى محبة الرحمان، قال تعالى: "ومن يعرض عن ذكر الرحمان نقيض له شيطاناً فهو له قرين" وقال: "ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى" التربية الإسلامية الكاملة تطهر القلوب من الشهوات والعادات وتعوض الوسواس بذكر الله، وإذا أمر الذاكر يسر ونظام وتساوفاً ببناء. قال تعالى: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً".

لا ينسبنا كون الدعوة منظمة أن هدفها أساساً بعث الروحانية الكامنة في الإنسان، وإعادة تنظيم حياته على مبادئ جديدة تدور حول المصير، حول البعث والنشور، والجزاء الحسن أو الثبور. ثم تصعد فتدور حول محبة الله ورضاه والقرب منه. وعلى كل

المستويات تحول العمل المأجور الى تقوى. والتقوى تشريف للعمل والمجهود اذ يصبح قربانا لله وبرهانا على خلوص النية له. انك تتقي ما تخافه بحاجز كما تتقي مثلا حر الشمس بالمظلة، وكذلك العمل الصالح تجعله وقاية بينك وبين ربك.

وهكذا يرفع الإسلام، التربية الإسلامية، الإنسان ليدرك شرف أرومته ويتحرر من المسخ المتعدد الوجوه الذي يردده إلى مصاف القردة والغنازير وعبد الطاغوت، ويحيى حياة تقوى، حياة جهاد لله، ثم يلقي الله وهو عنه راض يرتع في الجنة أو في مقاعد الصدق والقربة على قدر جهاده في الله وذكره له في الدنيا.

ان رجل السياسة يتحدث للمحرومين عن انسابهم وعن كونهم ضحايا للتشيع والتوهم، ويحدثهم عن التراب والمال ويمينهم بمستقبل فيه كثير من البطاطس واللبن واللحم، وفرص أكثر لإرضاء الحاجات والشهوات. ولا يحدثهم عن الآخرة لانه لايعرف الآخرة أو لأنه ان كان مسلما، يعيش اسلاما مبتورا مقطوعا عن ميدان العمل فرديا انزاليا.

وما ينقد الإنسانية من المسخ إلا الاسلام، وأشرف ما تهدف اليه القيادة الجهادية والدعوة الصادقة حمل هذه الرسالة للإنسانية حملا قويا وتبليغها تبليغا مقتعا بليغا بإقامة دولة مسلمة تسير بشرع الله في حياة أفرادها وفي أسرهم وجماعتهم وفي اقتصادهم وصناعاتهم

وثقافتهم، على السمت الاسلامي المطئن، نموذجاً ناصعاً معروضاً على
الانظار.

ولا يتم الوصف للسمت الاسلامي إلا إذا وضحنا اللون العام للعمل
والدعوة والقيادة الجهادية. نعني الوجه الباسم والبشاشة والتفائل
والتبشير والتسيير. وقد رسخ عند الناس أن الإسلام عبوس وحزن
وجوع وضيق وربما يكون المسلمون أنفسهم أكثر الناس علوقاً بهذا
التصور.

يقول الرسول الكريم : "إن الدين يسر" وأوصى معاذاً ابن جبل وأبا
موسى حين بعث بهما الى اليمن أن : "يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا
تنفردا". والاسلام جد وعمل لكنه أيضاً أنس وألفة ومحبة وثيقة بالله
تذيب القلق فيطمئن قلب المومن بذكر الله. وهذه البشاشة الإسلامية
من أهم ملامح أي انبعاث اسلامي جاد. ولمن أراد أن يحزن ويجوع
أن يعتزل ما عليه سبيل. وقد نسمع أن الصحابة الكرام ورسول الله
(ص) كانوا كثيري الأطراق والبكاء، فيحسب الخيالي القلب من ذكر
الله أن كل تلك الأحزان والدموع ألم وشدة، وهي ليست وربك إلا فرحاً
بالله وشكراً له وتعبيراً عميقاً عن الاعتراف بمننه. وهناك بكاءون
آخرون دموعهم دموع خوف من الله وندم على ما فرط من الذنوب،
وهذه درجة أدنى، وأثر هذه الدموع رحمة ورقة في القلب لاتتافي
بشاشة الإسلام. والمومن يبكي في محرابه، يبكي على ذنبه أو يبكي
خوفاً من ربه أو يبكي حياء من فاطره المنعم وشكراً، فإذا خرج إلى

الناس دعاه الاسلام ان يقوم بحق الولاية للجماعة ومؤسسات المومنين والبشاشة في وجه أخيه والتيسير على المعسروالكلمة الطيبة والمحبة والسمت الجميل.

أما بعد، فإن للعمل الإسلامي محفلاً ومدرسة، مكان يتعلم فيه المومن السمت بالمثل الحي وبالموعظة الحسنة، ويتعلم فيه العلم ويتعلم فيه الحكمة ويتعارف فيه مع المومنين، ويجد فيه الراحة والألفة والمحبة. ذلكم هو المسجد، هذه المؤسسة المركزية في حياة الجماعة. والإسلام الفاتر الفردي الذي يعرفه وقتنا تجد صوته في مساجدنا. تجد شيوخا يركعون في جو بارد ليس فيه تعارف ولا أخوة ولا محبة. لايسأل المصلي عن جاره في الصف ولا يعرفه، ولا يبادله الود. وإن تكن موعظة فهي خطابة وفصاحة لامخاطبة وتذكير.

ولكي يعود المسجد مركز النشاط الاسلامي والقلب النابض لحركة الجماعة الاسلامية لابد أن نعلم أن المسجد وضع ليذكر فيه اسم الله. وعمارة المسجد لا تكون ولن تكون الا برجال أوتوا الإيمان فهم يتدارسون القرآن، أو آخريين يتزكون ويذكرون اسم ربهم كما أمر : سبح اسم ربك، قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى.

فإذا عمر المسجد بتدارس القرآن وبذكر الله نزلت على عامريه الرحمة وغشيتهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده كما يقول الحديث المتواتر. الرحمة في القلوب تحل عقد الأثرة والحق الطبعي، والسكينة تهديء عوامل القلق وهي الطمأنينة هذه النعمة التي حرمها

الناس، ويذكر الله عنده من يذكرونه فهم في رضاه وعنده بين يديه. وكل هذا لن نجده إلا في المساجد العامرة، لكن العامرة حقاً برجال مومنين متآخين يدرسون القرآن ويذكرون الله. وغير هذا لا يكون، والجمعيات الثقافية، الإسلامية في زعمها، لاتشم ربح هذا ولا تعرفه إلا أن ترجح إلى المسجد وتتعرض للرحمة والسكينة والرضى، تذكر الله وتدرس قرآنه. روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): "لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده".

ما من يعقد وعهد يوخذ وعزم يشهد الله عليه في بيت الله الا كان موفى وعهداً أكيداً وعزماً. ويعطي المسجد وقاراً وهيبة لما يقال وما يعلم، وتخفت الأصوات فيتعلم الناس السكينة بل يحملونها معهم في حياتهم عطاء من الله نزل عليهم في المسجد، ذلك لمن عمر المسجد في أوقاته، يبدأ يومه في غلس الفجر غادياً إلى ربه، ويروح في غسق الليل إلى ربه يعبده ويذكره ويوقره. وفي المسجد أحباب وفيه ملائكة الله يراهم رأي العين من فتح له ويراهم ببصيرة الايمان من آمن بالله وغيبه.

ولا بأس أن يكون لكل جماعة من جماعات الدعوة المنظمة مسجدها شريطة أن لا يكون مسجد ضرار وكفر وتطريق بين المومنين. وفي هذه المساجد يتزاور رجال الدعوة فيتعلمون كيف يجتمعون على ما يقربهم ويتجافون عما يختلفون فيه. وإلى المسجد ينبغي ان تتجه

الجهود ليكون المسجد بيتاً لله حقاً فيجنب عنه المحترفون والصخابون، وبعثني بفراشه ومرافقة، ليتوضأ المومنون ويجالس المومنون اخوانهم ويصلي المومنون ويذكروا ربهم ويدرسوا قرآنهم.

التجمعات السياسية تغشاها الوجوه المكفهرة ويعطرها نتن الدخان وعرق أجسام لا تتوضأ ويذكر فيها اسم الاوثان من بني الانسان. وفي المسجد يتعلم المومن أن يحضر في أحسن ثيابة كما أمر الرسول، وأن يتطلب وأن يحسن المجالسة، وأن يقول خيراً أو يصمت، وأن ينصح ونتصح يريد بذلك وجه الله، لا يتعصب ولا يكره.

ومن المسجد تخرج الرحمة كما خرجت أول مرة تسعى على رجليها في الارض في صورة من حملوا الرسالة وأدوا الأمانة.

هذا إن عمر المسجد بالقلوب التقية النقية وأصبح مقراً لتربية رحيمة، تربية الذين يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

التؤدة الإسلامية

السمت والتؤدة والإقتصاد هي العالم التي أنبأنا بها رسول الله صلى عليه وسلم من خصائص النبوة، وقد كتبنا ما شاء الله من السمت الاسلامي كما نتصوره من خلال حياة المومنين الاولين ومن خلال القرآن الكريم. وهو وصف لنموذج لانجده في حياتنا الحاضرة، ونرجو أن يقيض الله لنا من يحيونه لنا. ووصف النموذج يأباه بعض

مفكري الاسلام يقولون: إنه عبث أن تصف مستقبلا وهميا تمنى به الناس، وتترك جهاد الساعة. ونحن نعتقد ان السير لا يبدأ إلا إن عرفنا إلى أين نسير. وفي سياق تاريخنا المعاصر يجهل الناس إسلامهم، ويتخيله كل حسب ما بلغه او حسب ما توهمه. ومن واجب رجال الدعوة أن يصفوا الاسلام النموذجي الخالدة الذي لا يتكيف ويتطور كما يزعم المفتونون، وإنما تتكيف الحياة المتطورة لتدخل في السمت الإسلامي، وتخرج بدخولها من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن شقاء الكد الكالح الواقف عند حد الحيوانية إلى سعادة الجهاد الصادق لتحرير الانسان، ليدخل الجنة بعد موته، ولينال رضي ربه، وليحقق قابلياته للكمال. وسنمضي في وصف النموذج الاسلامي في أسلوب العمل، ألا وهو التؤدة.

تعبت أجيال من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وفنون أخرى من فنون المعرفة للوصول إلى أنترولوجيا متكاملة، الى علم بالإنسان وما جبل عليه. ولا زالوا يبحثون، ويجدُ لهم في كل حين جديد، وهم اليوم أقدر، في زعمهم، على تنظيم الانسان في الحياة الاجتماعية وتسخيرها لتخف معارضته وسخطه. فإذا سافر أحد الباحثين من البلاد الغنية المترفة الى مجتمعات فقيرة هاله ما يرى ان كان صادقا ذكيا. انه يكشف في الشعوب الفقيرة الإنسان الشريف المبتسم وهو فقر مدقع، القانع بقوت شحيح وعيشة عارية. وفي الشعوب الغنية انسان

مكتظ المعدة عامر الجيب لكنه شقي يصخب وينتحر. لماذا؟ أي علم للإنسان يعرف الإنسان؟.

ان الله الخالق وصف الإنسان أدق الوصفوهو العالم بما خلق. وهذا العلم بالإنسان يعطي المفتاح للسعادة ويحل العقد ويعطي الطمأنينة. وهو كامن في القرآن الكريم، يتعلمه من تدبير ومن أزيلت عن قلبه أقفاله.

ونوجز أوصاف الانسان كما علمنا الله. انه هلوع بمعنى أنه مضطرب كثير القلب، انه كفار ظلوم، انه يطغى عند ما يستغنى، أنه في كبد وتعب، أنه يكدح الى غاية يجهلها ويعلمها الله، وهذه الغاية هي لقاء ربه. انه عجل عفيف. ولا يطرح عنه كل هذه الأحمال والأوزار الا ان ذكر ربه وآمن بالغيب واقتحم العقبة. يقول الله: " فلا اقتحم العقبة؟! وما أدراك ما العقبة؟ فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا مترتبة. ثم كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، أولئك أصحاب الميمنة ".

الصبر والرحمة خلقان جاءا ختاماً وكفاء لاقتحام عقبة الإيمان والعمل الصالح. ويقول الله تعالى: " بسم الله الرحمن الرحيم والعصر إن الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" وهذه سورة جماعة بينت لنا خسر الإنسان،

كل إنسان، ما عدا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق والصبر. ويتكرر الحث على الصبر. وذلك في القرآن كثير جدا. ومعنى الصبر الإنضباط والتجدد، الصبر عن والصبر على. فأما الصبر عن فهو ضبط النفس وامتلاك الإرادة، وأما الصبر على فهو المضاء في العزيمة وممارسة العمل بلا انقطاع وبالجهد المتجدد. ويكون الصبر الأسلوب الإسلامي في العمل بمعنىيه. ان الإنسان خلق هلوعا جزوعا عجولا، وهذه صفات اضطراب لاستقرار. ولهذا الهلع مظاهر في حياة الفرد والمجتمعات، مظاهر القلق على الغد، ومظاهر الحماس العابر، ومظاهر العنف، ومظاهر التعصب العرقي أو القومي. وهذه المظاهر هي وجه الجاهلية الكالح كما نراه نغدو عليه ونروح.

وبجانب هذا الهلع يتجلى صبر المومنين وانضباطهم ورفقهم. ويرى الجاهليون من المستشرقين سكون الأمة الإسلامية، ويكتشفون عندها، بعد ان لاكدت، ما يسمونه بالقدرية « Fatalisme ». وهذا الصبر القدرى الذي تعرفوا عليه قبل ان يغزونا العدو ويحتل أرضنا وعقولنا، كان صبرا سلبيا لكثرة ما عانت الأمة من ظلم الظالمين وفسادهم وقسوتهم. وليس هو الصبر الذي تبحث عنه. وما أعقبه، بفعل الايديولوجيات التي فضحت الظلم واقرحت الحل الثوري، عنف وهلع يتنافى مع الأسلوب الإسلامي في العمل.

جمع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، معاني الصبر في كلمة " التؤدة ". والتؤدة حركة إيجابية وعمل، ولا يؤدي هذا المعنى مذهب اللاعنف القائم على العصيان المدني. هذا موقف سلبي والتؤدة معالجة بالرفق والصبر وعدم العنف. ولعل معترضا يقول : أما ترى تاريخ الإسلام؟ قام الدين الاسلامي على الجهاد والقتال والعنف. فأين التؤدة ؟.

ولكي نجيب على الاعتراض، نرجع الى كتاب الله نلتمس فيه علم الإنسان، نكتشف فيه اسرار الخلق والمخلوق. إن الله تعالى يقول : " هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا". فسر الحياة على الأرض، قبل اللحاق بدار الجزاء، ان يعرف الله من هم أحسن عملا، لذلك ابتلاهم واختبرهم بالغزيرين العظيمين لغز وجودهم ولغز مصيرهم. ولاء الله للناس موضوع أساسي في القرآن، يتكرر تارة بلفظ "البلاء " وتارة بلفظ "الفتنة ". قال تعالى : " احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ". فالحياة من أساسها فتنة وابتلاء، وما يعترض الناس من عويصات الامور بلاء من الله، والنفوس تفتن وتامر بالسوء، والشيطان يفتن، واختلاف الناس وأهوائهم فتنة، ومن خلال الفتنة يعرف الله الذين صبروا ويعلم الصادقين كما تقول تنمة الآية السابقة.

هذا هو مشروع الله على الأرض، ان يضطرب الناس وأن يكون الغني والفقير، وان يكون المومن والكافر، وان يكون الخير والشر،

وان يقتل البريء ويظلم الضعيف، وكأن الأمر فوضى، وكأن العالم يسير على غير هدى، وكأن قانون الغاب هو الفصيل. لماذا لا ينتصر الخير ويصبح الناس كلهم مومنين، اليس الدين دين الله؟ فلم لا يهتدي كل الناس وينقضي الشر بواعثه؟ هذا هو موطن الفتنة. وإن الله الخبير البصير جعل خلاص الناس بأيديهم وشرط لهذا الخلاص اقتحام العقبة، التغلب على البلاء والفتنة المخلصة. وقد طغى الإنسان لما استغنى بكشوفاته وعلمه وتآله وزعم أن التطور وصل به إلى قمة القمة و القدرة. ويخيل لهذا الانسان المستغنى، لما يراه من ضعف دين الله وتأخر المسلمين، وهم المنتسبون إلى الحق، ان التاريخ يصنعه الانسان كما شاء، بعمله وتعلمه. ومشروع الله سائر الى غاية، ومقاليد الامر بيده، وهو سبحانه يبتلي عباده، ويفتنهم ليعلم من يخافه بالغيب. وقانونه الأزلي سار على المومن والكافر، على الأفراد والجماعات. وحكمه ان يختلف الناس ويتنازعوا ويقتتلوا. يقول تعالى : "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض". فلا قيام للأرض وما فيها من عدل وخير إلا بتزاحم الناس وتدافعهم وتنازعهم، والأرض دار البلاء، والآخرة دار جزاء.

ومن تأمل تاريخ البشر لا يرى إلا حروباً ومذابح وفظائع، وسيبقى هذا العالم الأرضي في حركته الصاخبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وفيوسط العنف الجاهلي برز الإسلام يدعو للسلم منذ عهد آدم عبر سلسلة الرسل والانبياء عليهم السلام. وما منع ذلك أن يقتل قابيل

هابيل أخاه، وتغلب العنف على الإسلام، والسلام الذي يدعو إليه، في عهد نوح وموسى وعيسى. وبعث النبي الخاتم (ص) ففتن بتكر أهله له وكفر قومه به، وفتن هو وأصحابه بأذى الكفار. ولما تمت الهجرة شرع الله الجهاد بالسيف لتمكين الإسلام في الأرض. وكان الجهاد قوة لا عنفاً. لان العنف هو وضع القوة في غير موضعها. وما لنا أن نعرف أين نستعمل القوة إلا بما علمنا الله، فإذا فعلنا كانت قوتنا مقاتلة قوة جهاد لاطغيان عنف. العنف حقد وانتقام ومغالبة على متاع الدنيا، أما الجهاد فقوة تقتح سدود الطغيان التي تمنع الناس ان يسمعوا كلام الله، وتحول بينهم وبين رسالته. وأمر المسلمون المجاهدون ألا يقتلوا صبيّاً ولا امرأة وان لا يجهزوا على جريح، وان يضربوا مكبرين الله بلا حقد ولا غضب. وروى التاريخ ان الامام عليا كان يمسك عن الضرب وسط المعركة، فيسأل عن ذلك فيقول : " خشيت أن أضرب وفي قلبي حقد " لذلك كان يمسك حتى يذهب غيظه، لتكون الضربة خالصة لوجه الله.

وتجديد الإسلام في عصرنا الذي فاق كل العصور عنفا، على ما يبدو لنا، لا يمكن إن لم نتبع المنهاج النبوي لنعرف موضع القوة وموضع العنف. فنحن عائمون في الفتنة من كل الجوانب، فتنة الجاهلية الخارجية عن الأمة، وفتنة الأمة الداخلية بالمرتدين من أبنائها والشاكين والمترفين. فتنة التعصب القومي الذي يحسب ان القومية تميز عن الآخرين، فهي سبيل الخلاص. ومن ثم تكون القومية

مولداً للعنف، ولا يعتبر في الآخرين الذين تريد القومية ان تتميز عنهم إذا كانوا كفاراً جاهليين او مسلمين. ويسود العنف ويقا تل العربي والبنجابي أخاه البنغالي، دفاعا عن القومية. ولنعرف مدى هذا العنف الذي غطى على الإسلام وسود وجهه المسلمين نتأمل الخبر الذي تناقلته الصحف والإذاعات أثناء كارثة باكستان. يقول الخبر : " ان الهند هددت باكستان بأنها ستدفع أسرى الحرب الباكستانيين للانفصاليين البنغاليين، واحتجت باكستان على هذه الشناعة" وهكذا يكون الوثني الجاهلي أرحم وأرأف بالمسلم من أخيه المسلم. ولكنها القومية النتنة.

ما أسلوب الإسلام في العمل الداخلي تجاه قومية تسير في ركاب لون من ألوان الجاهلية العالمية. أتحمل السلاح ؟. وما أسلوب العمل للأمة في انبعاثها المنتظر، أتحمل السلاح في وجه العالم لتحرر الإنسانية ؟ أما عن هذا السؤال الأخير فسنجيب في الفقرة الأخيرة من هذا السياق عندما نعقد الحديث عن الجهاد. ونجد الجواب عن السؤال الأول في السنة النبوية، جاهزا ينتظرنا، وبإزائه في تاريخنا الحديث حجة دامغة تثبت أن المنهاج النبوي وحده هو طريق الخلاص.

يعقد المحدثون بابا يسمونه "باب الفتن" يوردون فيه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من فتن تأتي على أمته، ويوصي باعتزال الفتنة وبأن لا يحمل المسلم السلاح في وجه أخيه المسلم، وبالرفق والطاعة للامير ولو جار ما أقام الصلاة. والأحاديث في ذلك

كثيرة نقتصر على بعضها. عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة او يدعو الى عصبة او ينصر عصبة فقتل، فقتله جاهلية، وما خرج على امتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مومنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه."

وعن أبي هنيذة قال : " سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله (ص) : فقال : "يا بني الله ! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سألوه فقال رسول الله (ص) : اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (ص) قال : " من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية. وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي (ص) قال : "يا عائشة ان الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه . وعن عائشة قالت : قال رسول الله (ص) : "ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله. وعن جرير بن عبد الله عن النبي (ص) قال : "من يحرّم الرفق يحرّم الخير كله."

هذا هو المنهاج النبوي : التؤدة والرفق والسمع والطاعة لئلا تكون فتنة. ومن العنف على المسلمين مات ميتة جاهلية، ومن خرج عن السلطان شبراً مات ميتة جاهلية. وهذا حق ورد عن المعصوم

(ص)، ولا يحببه طبعاً رجال العنف والانقلابية الذين ينشدون التغيير بقلب الأوضاع كما يقولون، ولا تلد لهم الفتنة الا فتنة، ويلي الانقلاب الاول انقلابات، ولكل منهما تاريخ ميلاد يردد شعاراً. وليس عند من له حكمة الا ايداناً بأن انقلاب أيلول سيليه انقلاب شباط إلى أن تفتضح الانقلابات كلها بقلب الأوضاع الحقيقي في انقلاب حزيران، وما سيليه من أمثاله من هزائم متتالية يرينا الله بها لنرجع إليه ونلبي نداءه. وندأؤه إلى القوة الواعية قوة الجهاد المنضبطة، وإلى الرفق والتؤدة. ولن يحقق لهذه الأمة ما تريده من تغيير إلى حياة الكرامة من دار الهوان التي هويها إليها الا الصالحون المومنون أهل التؤدة عباد الرحمان. وينعت القرآن الكريم عباد الرحمان كما يلي : " وعباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ". فهم هينون مسالمون، وهم مطمئنون رقيقون. والتاريخ الإسلامي يعرف كيف يوخذ أهل العنف والانقلابية والقومية والإشترابية أخذ الدجاج الجاثم في مربعه لا بأس له الا على أمته. لو كنا عباد الرحمان الرفاق لما ضربنا الله بصواعق عقابه على يد أحقر خلقه عصابة صهيون لكنا أغرقنا أمتنا في دماء بريئة وسفكنا أرواحاً طاهرة وشنقنا وخربنا. وجاءنا انقلاب حزيران، ومن ورائه العقاب والسطوة والبطش الإلهي حتى نتوب.

وننظر الآن الى الحجة التاريخية القاطعة في حياتنا المعاصرة على أن العنف لن يكون ابداً طريق المسلمين إلى الاتبعاش. وكيف يكون

وهو مخالف للمنهاج النبوي ؟ وحسبنا أن نقول قبل الخوض فيما لابد من الخوض فيه، أننا نريد وجه الله فيما نعرض، ونريد خير الأمة وفلاحها، ونريد أن يذهب الغيظ من قلوب النخبة المومنة في دار الاسلام المتطلعة إلى موعود الله، المجاهدة في وجه الغزو الفكري للجاهلية الطاغية.

ظهر في أرض مصر منذ نيف وأربعين سنة شاب نشأ في عبادة الله، شاب تربى في أحضان الذاكرين، وجالس الأولياء والصالحين، فأعطاه الله نوراً وتوفيقاً. وشع هذا النور في قلوب جماعة من المومنين لما قام الداعي إلى الله الشهيد الشيخ حسن البناء يبلغ رسالة ربه. ولعل الإخوان المسلمين اليوم لا يتدبرون، كما ينبغي أن يفعلوا ويفعل المسلمون أينما كانوا، العبرة الحية والدليل القاطع على أن الامة لن تحيى إلا إن قام الدعاة إلى الله أهل النور الذاكرون بتبليغ رسالة ربهم كما كان حسن البناء، وكما فعل حسن البناء. وكأن الناس نسوا من أين جاءت هذه الطاقة النورانية التي هدى الله بها ملايين على يد شاب أعزل إلا من ذكر الله خال الا من روح الله. وسنرجع الى شخص الشيخ الشهيد لنعتبر ونتذكر في غير هذا الموضع من الكتاب.

كانت حركة الإخوان المسلمين أعظم حركة إسلامية في تاريخنا منذ قرون كثيرة. وربى الشيخ رضي الله عنه شبابا طاهرين ضربوا للناس مثالا حيا للتبتل والايمان والعمل، فكانوا في محاربتهم زهادا

وعبادا، وعلى المنابر خطباء وفصحاء. وفي المعمل والمدينة أيد طاهرة نشيطة، وظمائر حية نظيفة، في وسط مجتمع خائر مفتون، وترف يلغنه الفقر والعري والجهل والمرض العائثة في صفوف الامة المستعبدة.

وقويت حركة الإخوان المسلمين، وانقاد للشباب المربي علماء فطاحل وذوو الحيشيات والمراكز. وخفق قلب الامة في كل البقاع فرحا مسبقا بما تبشر به الحركة من نصر الإسلام ومن عودة إلى المجد الغابر. وكان للحركة أتباع في كثير من بلاد المسلمين، وكان لها مجلات وجرائد، وكان لها سمت ووقار، وكان لها هيبة. كل ذلك لأنها كانت دعوة رجل صادق نير القلب حامل الرسالة.

وكان الناس لايعهدون من كل حركة الا أن تتجه الى ما تتجه اليه الاحزاب السياسية. فانضم للاخوان المسلمين بسرعة قوم كثير عددهم نشأوا على المطالبة السياسية، والأسلوب السياسي، والسمت السياسي. ومن ضمن كل هذه العنف. وكان مركز الدائرة شخص الشاب المربي الصادق القوي، تميل اليه القلوب وتهتف بمحبته الالسنه، وتتجمع عليه طبقات الامة تبذل في ما يدعو اليه النفس والنفيس. وظهرت فعالية الحركة فيما أقامته من مساجد ومعامل وأنظمة قائمة على شريعة الله، على النظافة والإيثار والمحبة.

وكانني بالشباب الطاهر ينظر فيما يسر الله على يده من خير، فيهب بجماعته أن تتأهب لعمل أوسع وجهاد أنجع. وسعي للقاء

فاروق ففزع فاروق وخاف أن يلقي رجلا يقال انه ساحر يأخذ بالأبواب الناس ويستهوهم، ونطق الشيخ الشهيد رحمه الله في تقريره للمؤتمر الخامس للحركة بعبارات قد يفهم منها من شب على الأسلوب السياسي ان الرجل مقدم على معركة مسلحة، يقول الشيخ رحمه الله¹ : " وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي (ارشاد الناس الى الإسلام حقيقة وعملا). ولهذا كانت فكرة الاخوان المسلمين (اسلامية بحتة) في غايتها وفي وسائلها، لاتتصل بغير الإسلام في شيء". وهذا كلام واضح. فالفكرة دعوة على المنهاج الإسلامي. وبعد هذا بصفحات يقول : "ونحن الآن، وقد اشتد ساعد الدعوة، وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن تؤثر ولا تتأثر، نهيب بالكبراء والأعيان والهيآت والاحزاب أن ينضموا الينا، وأن يسلكوا سبيلنا، وأن يعملوا معنا، وأن يتركوا هذه المظاهر الفارغة التي لاغناء فيها، ويتوحدوا تحت لواء القرآن العظيم، ويستظلوا براية النبي الكريم، ومنهاج الإسلام القويم، فإن أجابوا فهو خيرهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وإن أبوا فلا بأس علينا أن ننتظر قليلا وأن نلتمس المعونة من الله وحده حتى يحاط بهم، ويسقط في أيديهم، ويضطروا الى العمل للدعوة أذنابا وقد كانوا يستطيعون ان يكونوا رؤساء². وفي هذا الكلام ما يشبه التهديد وفيه تلويح بالرئاسة لتكون حافزا للعمل. ويقول بعد هذا، وهو يتحدث عن

¹ رسالة المؤتمر الخامس، مجموعة رسائل حسن البناء طبعة دار الاندلس ص 239.

² المصدر السابق ص 253.

مراحل الدعوة وعن المرحلة التنفيذية : " وفي الوقت الذي يكون فيه منكم — معشر الاخوان المسلمين — ثلاثمائة كتيبة، قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن اخوض بكم لحاج البحار، واقتحم بكم عنان السماء واغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل ان شاء، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : " ولن يغلب اثناء عشر ألف من قلة ¹ ".

يقول هذا شاب في الثانية والثلاثين من عمره بعد بدء الدعوة بعشر سنوات تألفت أثناءها جماعات وكتائب وقوة منظمة. وفي الخطاب ما يفرع، وفيه ما يشير الى تنفيذ مقبل ومعركة تغزو كل جبار عنيد. وأول من يسمع الخطاب ويتدبره الجبابرة العنيدون، وقد كانت مصر موطن فرعون وجبابرته المترفين.

وعندما يتحدث الامام الشاب عن الجهاد يرى ان الجهاد فرض دائم على الامة، لكنه لا يميز بين العمل في وسط الامة المفتونة وبين الجهاد لنشر الدعوة. وعندما تبلور فكر الإخوان المسلمين، على يد سيد قطب ومحمد قطب، يتخذ الجهاد لون الكفاح المنتقم العنيف.

ومهما يكن من أمره، فيترجح عندنا أن ثقل العناصر المتكاثرة المتسارعة تحت لواء الدعوة مال بالدعوة إلى العنف. ولم تتح الفرصة ليربى هؤلاء المضمون تربية كاملة. وتسارع الاخوان

¹ المصدر السابق ص 258.

المسلمون، مع أن قلم الإمام الشاب يكتب بإلحاح موصيا بعدم الاستعجال، وتسלحوا لقتال الانجليز، وقامت حرب فلسطين فخاضوها وكانوا أقوى الجنود وأشجعهم لأن قتالهم كان جهاد المومنين. كل هذا وضع في أيد غير مسؤولة سلاحاً ومالاً. وهكذا ظهرت إذاعة سرية ونظمت اغتيالات، وأنكر الشيخ رضي الله عنه معرفة الإذاعة والمنظمة السرية وهو الصدوق المصدق.

ونتج عن هذا أن فتن الاخوان المسلمون وقتل الشيخ رحمه الله برصاص فاروق، فاشتعلت الفتنة. وظاهرة واحدة تعطينا صورة عن الألم واتقاد الغضب في قلوب الاخوان بعد اغتيال الإمام. يروي فتحي العسال في كتابه عن الشيخ أن مولودة ولدت له اثر وفاته، فحرص الإخوان على أن تسمى "استشهاداً" لتنادى دائماً : استشهاد حسن البناء، وتذكر بالمصاب الفظيع. ورفضت الحكومة الاسم، وألحت الاسرة على حقها في اختيار الاسم، فسميت البنت آخر الامر : "استشهاد حسن البناء المشهورة بدماء". هذا يعطينا نظرة عن جو الألم والحقد المثيرين للعنف.

وجاءت الثورة، وخاب أمل الإخوان فيها، وظهرت مرة أخرى الأيدي الطائشة وفي يدها السلاح. وطويت صفحة مجيدة من صفحات الدعوة الإسلامية، أنصح صفحة في حياة الدعوة منذ دهور، طويت في جو قاتم عنيف. ومن حرم الرفق حرم الخير كله كما قال رسول الله صلى عليه وسلم. ولا يزال اليوم فلول الإخوان الزهرة اليانعة في

حقل الدعوة الإسلامية، ولئن تحول اتجاه الإخوان إلى النشاط الثقافي وحده، فأملنا أن يتدبروا تاريخهم، وهو تاريخنا معشر المسلمين، ويبحث عن مواطن القوة فيه. وعسى أن يجدوا عند رجلا ذاكرا يجدد لهم وردا ووظيفة وبيعة صوفية وتربية قرآنية عوضا عن أورادهم التي سهوا عنها بعد ان مات صاحبها. ومن هذا الاتبعات الروحي يتجدد الأمر كله. ونعذرة إليهم وإلى المسلمين ان اخطأت في الحكم، ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب. وواجب النصح لا يترك للجبن والرياء مجالا، وكلمة الله ورسوله أولى بالمؤمنين، وكلمة الله ورسوله التؤدة والرفق وعدم العنف. وكلمة الله ورسوله السمع والطاعة ولو لعبد حبشي كأن رأس زبيبة لئلا ياكلنا عنف التعصب العرقي والقومي، وكلمة الله ورسوله السمع والطاعة للسلطان ولو جار لئلا تأكلنا الانقلابية.

إنه لا بد أن يبرز فجر الاسلام في جاهلية اليوم كما أضاء فجره ظلام الجاهلية الأولى. وإن عند الله تعالى سر البلاء والفتنة، وبيده قلوب عباده وعنده لمن بادر للقيادة الجهادية الاسلامية جزاء من أحيانا الناس جميعا.. وعنده سبحانه حساب من ولي أمر المسلمين ولم ينصح ولم يخدم. يقول أبو يعلى معقل بن يسار الصحابي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة¹".

¹ متفق عليه

والدعوة إلى الله لا تكون دعوة إلا إن سارت على المنهاج النبوي. ومن يرد أن يزيغ عن الرفق، بزعم الغيرة على ما يرتكب من ظلم، فذلك يريد أن يتولى الفتنة ويوقدها. وهذا سبيل المهدية، وهي ادعاء الهداية من دون الناس، وفي تاريخ المسلمين مهديون اشتروا بالعنف.

ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بشر بخلافة على نهج النبوة تعقب الملكية الجبرية، ويرضى بها ساكن الأرض وساكن السماء، وقد عاثت الجبرية في الأرض فسادا، وكثر العنف والهرج، فهذا أو ان رحمة الله، والله أكبر ولله الحمد. وفرق ما بين الإسلام والجاهلية انها جهل بلا حلم وعنف بلا رفق والإسلام سلام ورفق وإلى الله المعاد : "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون ! وكان ربك بصيرا".

الاقتصاد الإسلامي

ثلاث كلمات تشع لنا من مشكاة النبوة لتتير لنا حلك الفتنة، ولتدل على المنهاج : السمات والتؤدة والاقتصاد. الاقتصاد معالجة القصد والصمود إلى الهدف بلا انحراف. وقد جاء باللفظ النبوي : "الاقتصاد نصف المعيشة " وهذا اقتصاد معاشي، وهو صرف الموارد في وجوها وعدم تبذيرها.

وكلمة " اقتصاد " تدعونا إلى التأمل في أمرين : أحدهما الاقتصاد بالمعنى المتعارف، وهو ميزان الأشياء والأطعمة والانتاج والتجارة والصناعة، والمعنى الثاني هو الصمود للهدف الذي من أجله خلقنا حتى لا تفتتنا الدنيا عن الآخرة، وحياة المادة عن طلب الكمال الروحي. وفي تأملنا نجد أننا نعرفنا ميزان القوى الاقتصادية بأننا أمة متخلفة، وتلهفنا على تدراك ما فات يهوي بنا إلى الانغماس في المادة والانحراف عن القصد.

الإنسان في العالم تحكمه حاجاته الأساسية إلى الطعام والكساء والغطاء، فهو يكد ليحصل على قوته وكسائه. وليكون توزيع عادل نشأ نظام المجتمعات، والتحليل الماركسي لتطور النظم تبعاً لتطور الاقتصاد لم تبق إشكالا في أن هذه الذرات البشرية الفردية تعنف وتتحارب ويستعبد بعضها بعضا ليحصل على أرزاق أوسع.

وهذا ما يسميه القرآن تكاثرا يزيغنا عن القصد. قال تعالى : " بسم الله الرحمن الرحيم ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ".

وحكم المومن على الجاهلية، إذا نظر إليها من زاوية الفلسفة، هو أن الإنسان الجاهلي لا يدرك نفسه الا حيوانا اقتصاديا يضطرب به عنف عالم التكاثر. وليس يختفي تحت اسم الديمقراطية، ودعوتها إلى عالمية إنسية عمادها الحرية، الاقتصادية « Economisme » لها

ابتسامة المنافق وضراوة الذئب. والوجه الجاد العبوس الداعي الى عالمية إنسية قوامها العدل هو وجه اقتصادية تسمى الاشتراكية. والإنسان في كل هذه الانظمة أداة عمل وعامل للأخذ والعطاء للاستهلاك والإنتاج.

المسلمون فقدوا استقلالهم المعاشي، ولم يزد هم الإستقلال السياسي إلا عبودية. فهم طعمة للاكّلين، يتحول السلاح في يدهم لعبة لا بأس منها، وترقد أموالهم في البنوك العالمية، وتباع أمتعتهم بيعاً بخساً، تستغلهم الأمم، ويستغنى صعاليك السوق العالمية على حسابهم. وكلما تحركت التجارة العالمية، وهي دائماً تتحرك، نحو توازن جديد إلا وذهب من ثورتنا شضايا، ان ارتفعت العملات الاجنبية فنحن الخاسرون، وإن انخفضت فنحن الغارمون، وشروط التبادل « **Terme d'échange** » في صالح الاقتصاد الأقوى دائماً. هذه في العالم كتل اقتصادية جبارية تكونت و لا زالت تتكون، تنهبنا نهباً وتبخس تجارتنا لأننا أمة متفرقة. وفي يدنا البترول وفي أرضنا ثروات وخيرات، ولسنا نشكوا من قلة العدد، لكننا في اقتصاد القلة عائشون. لم نتعلم كيف نشمر عن السواعد، وكيف نفكر ونبدع، وإنما تعلمنا أن نمد الاكف للمساعدات والقروض. وكل مال دخل الى بلادنا مساعدة يزيدينا كسلاً وتقاعساً، والذي يساعد ويقرض انما يسمن ذبيحة الى حين.

وبعد فإن اقتصادنا متخلف لأن الأيدي لا تعمل والعقول في كلال. ولكي نستقيظ للعمل نحتاج الى تعبئة شاملة تغير العقلية، والعقلية هو موقف العقل عند عادات فكرية لا تتطور. ونحتاج الى تعليم على قدر حاجتنا، والا تربية تنظر الى الفعالية.

إن الاسلام يدعونا بالحاح لإعداد القوة، والقوة في عصرنا تركز، كما ارتكزت طوال العصور، على اقتصاد حيوي متوازن. وسنتخلف اختلافا تاما عن الدول المعبأة العاملة لرفع مستوى اقتصادها. سنختلف عنها، ان قامت قيادة اسلامية جهادية، في الاقتصاد بالمعنى النبوي الشامل، أي الصمود الى الهدف لئلا نهبط الى مستوى عالم التكاثر. أما الوسائل لتحقيق مبادئنا وأهدافنا فلا مناص لنا من التفتح الكامل لتعلم التقنيات، ناخذها أخذ عزيز مقتدر، بعزة من لا تبهره الاختراعات ولا تستهويه، وقدرة المصمم المجاهد، يعرف أنه صريع القوى الجاهلية اليوم أو غدا إن لم يتسلح بالعلم والصناعة.

تعبئتنا الاسلامية تصفيف واستعداد للجهاد. وللقائد المجاهد مكانه في الصف الأول. ويضرب المثل في التقل والعمل. نسمع مما نسمع في دنيا الشعارات دعوة الى التقشف، وهذه كلمة كبيرة جرداء لا تصلح الا لاستهلاك كلامي فارغ. ومدلول الكلمة غالبا ما يبقى في حيز النوايا التي لا تتحقق. والتقل هو البديل الإسلامي عنها. القناعة وإطعام الطعام، وإشراك الضعيف، وإعطاء الراعي حقه ولو كان بجبل صنعاء كما يقول الامام عمر ابن الخطاب.

لو كانت القدوة تفيد الهمم الراكدة لاستفدنا من تقلل الصينيين، ولو كان للهم الراكدة أن تعتبر لاعتبرت بصنيع عدونا الصهيوني الذي أقام في الصحراء جنات. بالمال اليهودي العالمي كما يقول الفكر السلبي التبريري. وأولى لنا أن نقسوا على أنفسنا ونقول لأنفسنا حقائق أنفسنا. ولست أتكلم من وجهة نظر القومية الضيقة الموتورة التي تريد أن تنتقم، لكن أتكلم من منطق واقعي إسلامي كفيل لنا باليقظة والانتصار. وعند الصبي لا تجد عقلا ناقدا، وإنما تجد عقلا مبرارا يحسن الصراخ متى أخذوا لعبته. الصينيون أمة كانت منذ عشرين عاما أمة ممزقة هزيلة تنوء أرض بمآت الملايين من المرضى والمهازيل. ونفخ فيها قائد جبار روح التضحية والتقلل والاعتماد على النفس، فرفضت المساعدات، وسددت الديون ولبس الخاصة والحكام لباس العامة من الفلاحين، وتحركت الأمة وحييت وعزت، وهي الآن تريد أن تبرز وان تنقذ الانسانية المتخلفة. وأعداؤنا الصهيونيون أقاموا المزارع الجماعية، الكبوترات على التعاون والتضحية ونكران الذات والتقلل الشامل. ويقول المهندس الفلاحي الفرنسي دومون في كتابه عن افريقيا : " في وزارة الفلاحية الاسرائيلية يمكن بسهولة أن تميز بين الموظف البسيط في عنقه رباط الرقبة وبين رؤساء المصالح والموظفين الكبار والوزير وأعضاء مكتبه وهؤلاء لا يحملون رباط الرقبة. ذلك لان كثيرا منهم أعضاء مزرعة (كبوتر)، ويدفعون لهذه المؤسسة الجماعية كل أجورهم. وما يبقى في أيديهم من تعويضات

إنما يكفي لأن يعيشوا في ضيق شديد. وشراء رباط الرقبة. وهي علامة الطبقة البرجوازية في الدول المتخلفة، يقتضي منهم حرمانا وتقتيرا. وعندما يصل الأفريقيون الى هذا الوعي فبوسعهم أن يأملوا تحسن أحوالهم¹.

وليس الا امرا طبيعيا لمن كانت لديه عقلية التفاخر بالبزة واللعبة الميكانيكية ان يكون اقتصاده اقتصاد استغلال (Economie de traite)، وان تتسابق إليه وسطاء التجار بالسلع البراقة الكاذبة يدفع ثمنها لها خيرات بلاده. لذلك تكثر في بلادنا السيارات الفخمة ونستورد الأطعمة الفاخرة لطبقة المترفين وفلاحونا يدفعون الثمن ويتلمظون غيظا، ثم لا يعملون ولا ينتجون الا في نطاق معاشهم القروي ولا يثقون بساكن المدينة ان جاء يعلمهم تحسين انتاجهم لانه يجيء برباط رقبته وبعنجهية المتحضر الذي يخاطب امة من الأغنام.

ويزيد عوزنا وفقرنا بتزايد الطبقة المترفة التي تاكل ولا تطعم وتستهلك ولا تنتج، وعلى حساب مال المسلمين يتوسع الجهاز الإداري بوضع أبناء العمومة والاخوال في سجل الموظفين الطفيليين. وكل من جلس بلا حق في مكان السلطة عاث وارتشى.

جهاز اداري ثقيل وعقيم، وثقة لا وجود لها بين الحاكم المترف والمحكوم المعنى. ولا نظام ولا عمل، ولا طاعة ولا ضمير. وخيراتنا تتدفق خارج بلادنا.

¹ L' Afrique est mal partie, René Dumont P. 76 edit. le sevil

حارب العرب قومنا إسرائيل وانهزموا وما قالوا نحن مسلمون،
وان كان الذي انهزم هو العروبة التي اتخذها قومنا وثنا. ولو عملوا
أن العروبة والقومية والعصبية هي مصيبتنا وسبب هزيمتنا، ولو
رجعوا الى الإسلام، وعملوا باسم الإسلام ورموا رباط الرقبة، وظهروا
بالسمت الاسلامي والتقليد الإسلامي، لكان لهم بداية عمل جاد وتعبئة
تؤدي إلى النصر. لكنهم لما يعرفوا أن معركتنا ليست في فلسطين ولا
في البنغال وانما هي في نفوسنا. ان امتطيناها وغلبنا شحنا وأثرتنا
وشمرنا عن ساعد ألفت أن تمتد للارتزاق عادات الينا القوة وعاد
النصر. ان عدونا الصهيوني يخترع سلاحه ويصنعه بيده، فأنى لنا أن
نقف أمامه بأسلحة مستوردة. ان جندي العدو يعتنى بسلاحه لأنه يعلم
كم كلف صنعه وكم يخسر ان أتلفه، أما قومنا فسلحهم هدية وعطية
نزلت من سماء الصديق الحميم، فلن ينصب معين الاسلحة، ولا علينا
ان تفلت أو غنمها العدو. لن نكون أقوياء كما تشاء عزة الاسلام الا
ان عبأنا الأيدي والادمغة والاموال لنبني اقتصاداً اسلامياً. وفي الغد
القريب لا تلوح بشائر اجتماع الاخوة الهدف الاسلامي لانه تكتل نفعي
مصلحي. فلنجع الى طلبتنا عند الانبعاث الاسلامي المرجو.

الشح والاثرة وعادات الترف، والمال الهين المأخذ الذي تمطره
الدولة على موظفيها عوائق لتقدمنا الاقتصادي. ولذلك تتعثر كل
محاولات الادخار بالمغريات النفسية. ولا بد من تغيير شامل للبنية
الاجتماعية لتتغير الاحوال. لا بد من محاربة المال الكسول، ومن قطع

الواردات الترفية، ومن تخفيض لاجور الطبقة المترفة. وهذا عمل تعبئة لا يكون إلا في جو جديد تتحقق فيه نيات القيادة الجهادية في ميدان العمل بالتصفية والتربية والتركية كما وصفناها آنفا.

التنمية الإقتصادية للشعوب المتخلفة فن يدرس مستقل، ولكل اديبوجية نظرها في ذلك. وسواء دعانا هذا الفن الجديد الى البداية بالفلاحة كما صنعت الصين أو بالصناعة الثقيلة كما فعلت روسيا تحت عصا ستالين الغليظة القاتلة، فإن مصدر الطاقة العملية هو الوعي الجديد الذي يحول الإنسان ويعطيه هدفا وحافزا. وبالعدوى يسري الوعي الجديد من قريب لقريب، وبالمثل الحي للقيادة والنخبة الإحسانية الإيمانية تعود الثقة وتعود ارادة العمل. وليس الطريق طويلا أن صح العزم.

والتقل هو المبدأ والوسيلة للادخار. ألا نرى مثال أمة أصبحت في ظروف مائة عام ثالثة دول العالم، على ضيق أرضها وثلة مواردها وكثرة سكانها. انها اليابان، بنت اقتصادا يضرب به المثل في القدرة على الإبداع والتكيف والتنوع بعد حرب دمرتها تدميرا.

وهي اليوم يحسب لها حساب في العالم لأن لنجاحها سرا. وسرها التقل. من البلاد المسلمين أمم محظوظة أو قل مفتونة، دخل الفرد فيها ينيف آلاف وخمسمائة دولار سنويا، وهذا هو معدل دخل أمريكا. لكن دُخل قومنا المحظوظين من مال لم تصنعه أيديهم ولم تسع إليه أرجلهم، وانما نبع لهم من الأرض، فهو مال كسول لا ينشط الا في يد

ابناك سويسرا وانكلترا. والأرض التي نبع منها المال أرض تبني عليها القصور. وكم يساوي معدل دخل الياباني الذكي الألمعي العامل الصانع المخترع ؟ انه لايتجاوز عند كتابه هذه السطور أربعمئة دولار في السنة، أي لا يصل الى عتبة الدخل الأعلى للبلاد المتخلفة وهو ستمئة دولار. ومن هذه الايدي العاملة المتقللة تخرج إلينا بضائع الاستغلال التي ندفع فيها مالنا. ولن يتعلم المسلمون أن ياكلوا خبزاً وزيتاً ويبنوا بمدخراتهم معامل تحررهم من الاستعباد إلا أن هبت عليهم ريح الحياة، ريح الاسلام منعشة للارواح والعقول ومحررة للنفوس من شحها.

وأي اقتصاد لا يكون اسلاميا الا ان أذهب عنا لعنة الربا. وهذه مشكلة المشاكل، لان عليها تنعقد المطامع والأنانيات الشحيحة. المال طغيان وكسل اذا أتاحت له فرص التكاثر الربوي. وبالارباح الربوية تغرق رؤوس الاموال الاجنبية خيرتنا. وبها يزداد غنينا غنى وفقيرنا فقيرا. ويظهر أن لامجيد عن الربا في الإقتصاد المعاصر. وقد رجعت اليه روسيا بعد أن رفضته عشرات السنين. واتخذته الصين حافزا لادخارين طبقة الفلاحين. المال الذي يجلب المال المناط الهمم الارضية، وعليه مدار كل المعاملات، وكل التوظيفات. قال الله تعالى: " وتاكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما ". وقال : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ".

ومن البدهي أننا لن نكون مسلمين، ولن يكون انبعاث اسلامي الا
بمحق الربا لان الله محقه. ولغنته تطاردنا أبدا منذ اختراع ديدان
الفقهاء الحيل الفقهية التي تلبس الربا زيا شرعيا وتفتري بذلك على
الله. وسبب خورنا وضعفنا وتخبطنا هو اكلنا الربا. قال الله عز وجل
: " ان خورنا الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه
الشيطان من المس ". وقال عز وجل من قائل : " يا أيها الذين آمنوا
اتفقوا الله واذروا ما بقي من الربا ان كنتم مومنين، فإن لم تفعلوا
فأذنوا بحرب من الله ورسوله ". وحق علينا قول ربنا، فنحن لا نحاول
أن نقوم إلا اعترانا دوار كأنما يتخبطان الشيطان، ونحن نخسر ولا
نتنصر ونغرم ولا نربح لاننا أكلنا الربا فحاربنا الله ورسوله. ومن
حارب الله فأين المفر ؟

اجتهد علماء المسلمين المعاصرون، واقترحوا حلا للربا قد
تكون سبب خلاصنا في تعاملنا الداخلي¹. لكن الربا الذي ندفعه لنحلب
رؤوس أموال تنعش اقتصادنا يبقى بلا حل. اللهم الا حلا واحدا
شجاعا، وهو أن نبلغ بالتقلل حد الضرورة الاساسية، أغنيائنا
وفقراؤنا، وندخر ما لنا لنوظفه في مصالحنا. وقد فعلت هذا أمة
وثنية، فهل يعجز الاسلام في انبعاثه أن يفعل ؟. ان الاسلام لا يدعونا
للاغلاق على أنفسنا. ولا بأس علينا أن نتعامل مع الاسواق العالمية

¹ لعل أهم اجتهادات رجال الاقتصاد المسلمين المعاصرين وأحقها بالاعتبار نظرية الاستاذ محمود أبي السعود. انظر كتابه : " خطوط رئيسية في الاقتصاد الاسلامي " بيروت 1965.

بشروطها وأن ندفع الربا للضرورة لغيرنا. قال تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبررهم وتقسطوا إليهم والله يحب المقسطين " والعالم من حوالينا عالم جاهلية، لكنه لا يقاتلنا في الدين. فلا بأس من الاقتراض والاستعانة. لكنه الحل الأدنى والهمة الأخط. ولن تاتي النتائج إلا جزئية وبطيئة.

والجانب الثاني من تأملنا للاقتصاد يدلنا على السعي نحو الهدف لثلاثيته في تكاثر يصحبنا الى المقابر، اننا ننتمي الى العالم القلة، الى عالم اقتصاده اقتصاد معاشي مقصور على استهلاك في دائرة الاسرة، وانما أخذ اقتصادنا يتوسع الى اقتصاد سوقي منذ قليل، فكيف نمت عندنا حاجات جديدة دفعت بنا من الاقتصاد المعاشي الى الاقتصاد الاستهلاكي ؟ وكيف نتحامي أن تلتهمنا عجلة التطور، ان سلطنا مسلك الغرب في اقتصاده، وتدفع بنا الى انتاجية « Productivisme » تدور حول نفسها، وتحدد وظيفة الانسان على الارض في الانتاج، ولغاية تلبية حاجات تتجدد بتطور الإنتاج ؟ وكيف نتحكم في سلسلة التطور حتى تبقى علاقتنا متزنة، فلا تفسد الهواء التربة باستغلال عجول طائش ولا نبذر المعادن والمياه، ولا نفسد الهواء والمحيط الطبيعي ؟.

يبدو أن السؤال الاخير بعيدا عنا بعدا شديدا، لانه سؤال يرد على البلاد المصنعة المفعمة. ونطرحه أحيانا تشبها وتظاهرا في المؤتمرات العالمية. ومع ذلك فنحن صائرون إن عاجلا او آجلا الى ما آل اليه

غيرنا ان لم نعالج المسألة على ضوء اقتصاد اسلامي فيه القصد والتوازن. ولا بد في أول الامر ان نسير على خطة غيرنا ووفق ما نقتبسه من خيراتهم. وفي ميدان العمل والانتاج نتعلم كيف نتفادى التكاثر المبذر.

يعتمد الاقتصاد العالمي اليوم على عمادين، صناعة الاستهلاك وصناعة الحرب. وتفرض الصناعة الاولى على الضمير العالمي صورة التفاوت المخجل بين من ياكلون ومن لا ياكلون. وتفرض الصناعة الثانية صورة قتابل الذرة والهيدروجين والكوبالت، وصواريخ الدمار.

في هذا الوسط يهدد الانسانية شبح الانفجار السكاني وشبح حرب النهاية. ولا ينصرف اهتمام البلدان المتخلفة، مهد التكاثر السكاني، الى شبح الاعداد البشرية الهابطة على الارض بمعدل مولودين في كل ثانية، بقدر ما تنصرف اليه عناية البلاد المصنعة الغنية. كما أن القتابل والصواريخ لا تفزع الامم الفقيرة بقدر ما تفزع صانعي الاسلحة المطلقة.

وينتج الانسان الهلوع وينتج، وتستغرق جهوده وأمانيه عزيزة التكاثر فيبذر خيرات الارض ويصنع أسلحة لا تكاد تخرج من مصانعها حتى يكون الاختراع العلمي عفى عليها. ويتخم الانسان الهلوع ويتلف الطعام وثلاثا سكان الارض جياع. ويتمتع بالكساء والصحة وثلاثا سكان الارض عرايا مرضى. وليس في أفق انسان الاستهلاك إلا معامل

أوسع وبضائع أكثر تنوعا واغراء، وعقول الكترونية تسخر للانتاج ومن أجل الانتاج. وفي أفق البلاد المتكاثر سكانها هلع من المجاعات وما يتلوها من اضطراب وعنف. وخوفا من هذا العنف أن يستطير ويعبر الحدود تقوم الأمم الغنية بالمساعدات، وتبحث عن طريق علمية للتنمية. وتجيء الحاجة لكنها لا تدفع الى العمل، أو تجيئها في صورة خبراء ينظرون في أوراقهم وتخطيطاتهم ولا ينظرون الى الانسان البائس بجهله ومرضه وكسله.

إن حاجة أمة مسلمة منبعثة الى تغيير الانسان أكثر من حاجاتها الى أي عنصر مادي مهما كان. وقد غير الاسلام الأول الانسان وسما به ذروة النشاط والعلم والقوة. وإن عدنا الى ربنا عاد إلينا الخير. ومواجهة القلة المادية التي نعني منها، وتلافي الوقوع في هلكة الابتعاد عن القصد والتهالك على المادة في دوامة الانتاجية هو الحكمة التي تنتظر الانسانية من يعلمها إياها. وليس الا المومنون ان أقاموا وجههم لله كما فطرهم.

الاقتصاد بالمعنى النبوي العام يريد منا أن نمحو أنانياتنا الشهوية ونبذل ونوثر على أنفسنا ولو كانت بنا خصاصة. وإن نشرك المحروم والبائس في أموالنا. وبهذا وحده يذهب عنا الهلع والعنف والقلق. قال الله عز وجل : " ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم".

والمسلمون أبعد الناس في هذا الزمان عن المواساة والتعاون،
وكانما أثقلهم ركام تاريخ مجيد عنيف فلجأ كل الى خويصة نفسه،
يعالج شؤونيه لايغنيه غيرها. وتاريخ القوم الاغنياء كان في عنف
أيضا، لكنه على تعاقب الاجيال تعلموا من العنف حكمة التعامل على
الحق والعمل الجاد للكسب، وخلف لهم تاريخهم رأس المال مجمع
وخبرة ومهارة. أما نحن فقد ذهب تاريخنا وبقينا عالة، نبكي على ما
فات، ونتهم الاستعمار والامبريالية، ونتهم المؤامرة الاستغلالية. لهف
نفسى على أمتنا المسكينة، لو اتهمت نفسها وبدأت في العمل لكان
أولى لها من الفكر السلبي التبريري. نعم فعل الاستعمار بنا الافاعيل،
ونهب وابتز، وكل ضعيف يوكل في عالم التكاثر والتناحر، ولا يغرننا
الاستقلال السياسي، فإننا سنبقى عرضة للاغتصاب مادامت فينا
امراضنا وعاداتنا وقابليتنا للاستعمار. والتجديد المنشود يعيد الينا
صفاء الفكر مع صفاء الروح، وننتقل من صبيانية العقلية التبريرية
المتأوهة الى عقل ناقد تربوي لايضيع طاقاته في الاتهام والدعوى على
المجرمين.

كان رسول الله (ص) يفرح بغفار قوم أبي ذر، لانهم كانوا
يجمعون ما عندهم من طعام في ثوب ويقسمونه بينهم بالسوية، ويقول
(ص): "هم مني وأنا منهم". وقد ابتلانا الله تعالى بالابوئة والقلّة
والفضيحة بين الامم لاننا تركنا سنة نبينا. واستأثر كل بما عنده لا
يقسم للمستضعفين ولا يرحم. وان الله تعالى يدعونا في محكم كتابه

لنتدبر آياته في أنفسنا وحوالينا. وأخيرنا أن ما يصيبنا من شر فمن جراء أعمالنا. قال تعالى : " وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ". وإذا تدبرنا آيات الله في أنفسنا ومن حوالينا نجد أننا في خصاصة لأننا لا نعمل، وليس من قبيل الصدفة أن انهزم المسلمون، تحت راية القومية، في مدى أربع سنوات هزيمتين منكرتين على يد انجس اعدائهم وبإمارة امرأتين. فذل أكثر من هذا لا يوجد ! لنرجع الى الله. قال العلي القدير : " ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات، وبشر الصابرين ". فانظر إلى بلاء الله، ولن يرفع عنا بحكمه بيننا.

تلعب بقومنا العرب وإخواننا المسلمين القوميين أيدي كل عابث ولا ندري من أين اوتينا. والذي تكسبه ايدينا من تنكر لشرع الله نعهه تقديمه تحررنا من رجعية إسلام عتيق فاته الركب. اليس قد قام رئيس دولة من دولنا ياكل في نهار رمضان جهارا ويدعو لقطع العلاقات مع التقاليد البالية العائقة عن النمو ؟ ولو فكر المفتون واعطاه الله نورا لأدرك ان الصيام لا يعوق عن الإنتاج من يصوم إيماناً واحتساباً، ومن يكون حراً مالكا لوقته ووسائله. وما شرع الله للصائم أن يعمل في حر الهجير خاويا. ولو كان يملك وقته لغير اوقات عمله وفق ضرورات الصوم. وان المسلمين المومنين المجاهدين انتصروا في بدر في رمضان وفي حطين امام الصليبيين، وهذا اعظم الجهد واشده، تبذله القلوب المومئة المنطوية على التقوى والاحتساب.

وتلك عاداتنا في الكسل والتبرير والجرأة على الله، ولن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا. هلا نظر المغرور الى اثرتنا في تقسيم الارزاق، وهلا تدبر إيثار أعدائنا وحكمتهم. اولئك خلعوا رباط الرقبة ونحن في القصور والدثور. بين أجر أبسط عامل في بلادنا وبين أجر أكبر موظف نسبة واحد إلى مائة، ولا نذكر الاغنياء : اكبر موظف يأخذ من الدولة مائة ضعف اجرة العامل الفلاح ان كان محظوظا ووجد عملا. ولو كان هذا التغاوت الفاضح على ميزان العمرية لهان الأمر : الرجل وبلاؤه، والرجل وسابقته في الاسلام، والرجل وحاجته. لا وربك، انما تنتهب أرزاقنا نهبا. وما كان لذوي البلاء والسابقة في الإسلام أن يأخذوا من مال الله فوق حاجاتهم لئلا يضيع الراعي بجبل صنعاء. لكنه عندنا مال الدولة وليس مال الله. ونحن أكثر ظلما للمسكين من أفحش النظم الرأسمالية. وإزاء هذا نجد نسبة ما بين أخط الأجور واعلاها عند روسيا واحد الى عشرين. وإزاء هذا، وصدق أو لا تصدق فقد شهد به الاعداء، نجد نسبة أخط الاجور الى أعلاها في الصين الجديدة نسبة واحد الى أربعة ! الوزير يتقاضى أربعة اضعاف اجر العامل الفلاحي ! هذا العدل هو الذي اعطى الثقة للملايين العديدة في بر الصين، فأخذت تعمل وتكد وتبني الامة العملاقة في سنين قليلة. وصلى الله على سيدنا محمد الناصح لامته، حيث أمرها ان تطلب العلم ولو بالصين، وقد آن أن تعلم، فإن لم نتعلم فلسفة البلاء لنا بالمرصاد.

القتابل الذرية ليست في متناولنا، ولن تكون. وليس لنا ان نضع السؤال اليوم، ولا ان ننتيه في حسابات غد علمه عند الله. اما الانفجار السكاني الذي يفزع العالم المترف الاول والثاني، فهو سعدنا ومدد الله لنا. وقد حشيت ادمغتنا بالدعوة الى تحديد النسل، واتخذت الدعوة مكانها في التخطيطات "الجادة" للتنمية. ونحن نسمع ونطيع لاننا عبيد الفكر الجاهلي، ولأننا لا نملك انفسنا ولا وقتنا ولا وسائلنا، فلا يظهر لنا رأي غير ما يراه الخبير الطاعم الكاسي. وترانا نتسابق في تطبيق "البرنامج" ونقتع الارحام ان تعقم فلا تلد، ونقتع الناس ان الولد خطر على ارزاق الامة. ولو قلبنا المعطيات الإحصائية بعقل حر وعزيمة على الجهاد، لظهر لنا أن العدد الكثير يعني الزيادة في السواعد العاملة، وان زيادة السكان مدعاة الى التقلل العام الشامل الذي يحدد بنا عن طريق الترف. ثم إن الخبراء انفسهم في خلاف شديد، لا يسلم بعضهم لبعض ان تكاثر السكان لا يساعد على النمو حتى في البلاد المتخلفة¹. وحرّم الله قتل الأولاد مخافة الفقر. قال تعالى: "ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق. نحن نرزقكم وإياهم". واحل رسول الله (ص) العزل لمن كان له عذر. وهذا هو القول الفصل، ولن يكون لامة الاسلام في انبعاثها ان تتخذ تحديد النسل مذهباً عاماً، وتبقى الرخصة للأسرة على حسب ما يقضيه معاشها وظروفها. وتكاثر عددنا سعدنا ومدد الله لنا لانه يشكل ضغطاً على المترف والكسول لينزل الناس

¹ انظر كتاب تحديد النسل للأساتذة ابي الاعلى المودودي.

سواسية الى التقل والتعاون والتواصي، وتكثر أمة الاسلام طاهرة
مجاهدة مومنة برسالة ربها، ويتحقق عندئذ رجاء صاحب الرسالة
عليه الصلاة والسلام حين أمرنا : " تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم
الأمم يوم القيامة" وياخجلتنا ان جننا عى صورة أعمالنا في الدنيا
بعضنا بطين متخم كسول وبعضنا أكل الحقد قلبه يلعن من حرمه
وافقره، والى الكفى صيره، وقد " كاد الفقر أن يكون كفرا" كما يقول
مولانا علي.

حاجيتنا في انبعاثنا، اول ما نحتاج، للنخبة المؤمنة المجاهدة، تعلم
الجاهل، وتضرب المثل للقاعد عن العمل، وللشحيح بما في يده، ريثما
يتم التنظيم بوازع السلطان. وقد رأينا كيف تتكون هذه النخبة وكيف
تربى وكيف تتم حقه غيرنا من النمو الاقتصادي السريع، وهم قوم لا
يرجون الله ولا اليوم الآخر وإنما يحفزهم للعمل الشرف الوطني
والحماس القومي الثوري.

أضع هنا مثالا آخر من الصين لتتعلم، ولا يتأتى بوجه أن يقال :
إنها دعوة لإسلام شيوعي او صيهيوني لاني أقسو على الامة المسلمة
واسرد لها شاهدا من عدوها. فهي النصيحة والتواصي بالحق والصبر
والا فنحن قوم خاسرون. ومثالي الذي اضعه تحد لشابنا المثقف
خاصة منهم من يدعي التقدمية والتضحية، ولا يقدر أن يعمل ان جاء
وقت العمل. يقول روني دومون ناقلا عن كتاب يدعى كلودروا : " ان
شابا صينيا حصل على دكتورا في القانون من باريس بعثه الحزب

ليشرف على الإصلاح الزراعي في الريف الضائع وسط الصين. وبدأ عمله بأن عاش في بيت أفقر فلاح في القرية، يعمل عمله، وياكل طعامه، ويسكن معه في حجرته الوحيدة ويبيت قرب سطل العذرة¹ .

هكذا يعملون، وتحت أعيننا تبرز للوجود أمة قوية بعد أخرى بالتعبئة الماركسية التي فتنت العالم وفتنتنا. واسلامنا يلغنا نحمله عبئا وقد جاعنا ليحررنا ويضع عنا اصرنا والاغلال التي كانت علينا. وتتيه الإنسانية، وتصبر من جاهلية ذات راس واحد استعمرتنا دهورا إلى جاهلية متعددة الرؤوس، ويفعل ذلك قادتنا وينحازون ويجرون الأمة الى الصف الجاهلي ويكفرونها، وسوط الله عليهم لن يرتفع حتى يتوبوا ويتعلموا من آيات الله في أنفسهم ومن حواليهم. وتهلك الأمة كلها وفيها الصالحون لأن الخبث فشا وكثر. والدواء عندنا بين ظهرانينا، ولا ينبت في دار الإسلام غي الإسلام، وكل نبتة خبيثة استوردها المفتنون تسمم الأمة ولا تعطيها صحة، وتفقرها ولا تطعمها.

ونرجع للغقتصاد لنعرف أن الإسلام يقصد بالإنسان الجانب الأيمن، جانب الطهارة والسعادة في الدارين، والسير إلى رضى الله هو الإقتصاد، واقتصاد المعيشة شرط لقوتنا على حمل الرسالة، وله قيمة نسبية، وليس هدفا لحياة الإنسان على الأرض. وإذا كنا نقارن بين أنفسنا وبين الجاهليات المعاصرة، فلا نقصد الى الجانب المادي من

¹ المصدر السابق ص : 213.

قوتهم، وهي القوة التي نحتاج اليها، وعندهم الحكمة الإنسانية والخبرة، وعندهم تجارب تتجدد ويمكن أن نتعلم منها. وبعد ذلك فهم لا يزالون ينتظرون الخلاص، وينتظرون الجواب المركزي في حياة كل فرد ليخرجوا من حيوانيتهم. هذا السؤال لا تجيب عنه المعامل ولا المتاجر ولا البضائع : من أنا وإلى أين أصبر ولم خلقت ؟ ويجب عن هذا السؤال الإسلام، ويعطي المنهاج المؤدي للخلاص. ويعرض على الهمم معراج الرقي الروحي : اسلام فإيمان فأحسان، طاعة وجهاد وبذل، وهدم لأنانية النفس التي تحجبنا عن الله وذكره. ولكيلا نزيغ عن القصد، وتلزم الاقتصاد بالمفهوم النبوي، نرجع الى المنهاج النبوي، والمبايعة النبوية والتعبئة النبوية والسمت والتؤدة.

الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله هو العطاء الذي لا ينقطع للثمن الذي بايعنا الله على أدائه نظير ما يذخره لنا في دار الجزاء. قال الله عز وجل "إن الله اشترى من المومنين أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة". وقال : "إنما المومنون الذين آمنوا بالله أولئك، هم الصادقون" وإنما كلمة تدل على الحصر، فالآية تقول : إنه لا إيمان بدون جهاد بالمال والنفس في سبيل الله. وسبيل الله كلمة تذكر ومعناها غامض. وبتقصي آيات الله نعرف أن المقصود بسبيل الله هو حمل الرسالة وتبليغها. فكل جهد يبذل ليكون المسلمون أقوى وأشد شكيمة وأكثر ايمانا وتقوى فهو في

سبيل الله. وان كان للمسلمين ذلك فكل جهد بالمال والنفس لتبليغ رسالة الله فهو في سبيل الله. والمعنى الجزئي للجهاد العالق بالأذهان هو قتال العدو الكافر. وهو جهاد جزئي لا يغني فتىلا ان لم يكن كل مومن في تعبئة مستمرة متجددة يبذل ثمن خلاصه في كل صباح ومساء، حيثما كان بقدرته العقلية والجسمية وبماله، يتقلل في المعاش ليحي الإسلام. وكل جهد فاض بعد أن يقوى المسلمون، ايمانهم وذات يدهم، وبعد أن يصبحوا أهلا لحمل الرسالة فهو في سبيل الله ان كان متوجها للضالين والكفرة بصفة الهداية لا العنف. " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين" ولا إكراه في الدين. وإن كان من مفكري المسلمين المعاصرين من يريد أن يكون الجهاد لتبليغ الرسالة عن طريق السيف دائما فذاك اجتهاده. ولنا نحن أن نكب على حاضرنا الضعيف، وهو حاضر يطرح علينا سؤال : من أين الطعام والكساء، ومن أين العلم والتكنولوجيا، ومن أين القوة لنُدفع العدو الغازي ؟ فجهادنا أولا جهاد بناء أمة منهزمة مشتتة. وعلى أبناء جيل آخر أن ينظروا في أمرهم، ويختاروا أن يكونوا أمة مقاتلة ان شاؤوا وقدروا.

على أن الله تعالى الخبير القدير ما أرسل الأنبياء والرسل الا ليقوم الناس بالقسط. قال تعالى : "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس

بالقسط هو القيام بالتوازن الاسلامي والسمت الاسلامي في عالم الشهادة، ليكون حضورنا بهذا السمت ومثولنا بين الناس تبليغا عمليا وحملا للرسالة بالمثال والقذوة.

وقبل ان نرجع الى الشهادة بالقسط، وهي زبدة كل جهاد، نريد ان ننظر في كتاب الله وسنة الله وسنة الرسول الكريم لنهتدي الى حكم الله في المجاهد والقاعد. وذلك الامة الاسلامية في مجموعها تقف موقفا سلبيا من مبادرات الذين يجددون لها بلاء بعد بلاء، وتكون "الأغلبية الصامتة"، وهي تقدر لو كان لها روح ونور أن تجتمع على خيارها لتامر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وما تركت زحمة التاريخ العنيف الذي أضعف الامة، وما ترك المفتون من أبناءنا مهلة للأمة لتتبصر وتختار. لذلك اجتمعت على زعماء سياسيين ذوي مبادئ تنقبس من الغرب والشرق، ولا تقتبس من القرآن. وهكذا بدأت الأحزاب السياسية بالمطالبة بالإستقلال، وكان لا بد أن يخاطبوا المستعمر بلغته ومنطقه، لكن تحول هذا المنطق المستعار في أيديهم الى عقيدة سياسية. وتبعت الأمة قادتها من الساسة، هم ينادون بجهاد العدو والمستعمر، ولامة تبذل مالها ودمها بنية جهاد، ونية الساسة وتصورهم للعمل تصظبغ بصبغة الكفاح السياسي أو الثوري، ولا يقولونها للأمة جهارا لأن الامة مسلمة لا تستجيب إلا لداعي إسلامها. ونجح مثقفونا المغاوير في مسخ ضمير الأمة لكثرة ما ردوا من شعارات الثورة والنضال، ويوم واجهوا العدو الصهيوني واجهوه باسم

النضال الثوري، ونفس هذا النضال هو الذي شئت الصف وهو الذي باسمه نحيت نخبة الضباط عن القيادة العسكرية. وهكذا تحولت الامة المجاهدة إلى جماهير شعبية حين تحول قادتها المثقفون الى زعماء أبطال، هواهم مع القيم الإستعمارية التي تربوا في أحضانها. وغداة التحرير الوطني يضع المجاهد الشعبي سلاحه ويفسح المجال للقادة والزعماء، فيرفع هؤلاء شعار الوطنية والقومية، ويحدث ذلك ضجيجا وحماسا في صفوف الامة، ثم يفتر الحماس ويموت الحماس وتذهب الثقة لان القادة والزعماء لا يحسنون البناء كما يحسنون صوغ الشعارات والخطابات، ولان مقاومتهم للمستعمر كانت مطالبة ساذجة بالإستقلال ولم يصحبها استعداد وإعداد. وترى الذي كان بالأمس هتافا بشعار الوطنية والإخلاص والشهامة يتحول ذنبا أو ثعلبا عندما توضع في يده الأمانة. ويستعصي الامر في يد الزعماء وينقلبون أو ينقلب بهم، ويهزمون في كل الميادين. وأحيانا يبدو لهم بصيص من شعاع الحكمة الامية فينطقون في خجل وتلعثم باسم الاسلام. فمنهم من يجعل الاشتراكية مرحلة الى الإسلام. ومنهم من يرى أن الإسلام يؤدي إلى الاشتراكية، ومنها من يحط الرحال في درب الديمقراطية الإسلامية وهلم جرا.

كل هذا التضليل، وكل هذه الثقة المفقودة، وكل هذا الجهل بالإسلام حتى انه ليرد الى قيمة نسبية أرضية يقبل المقارنة مع الانظمة الوضعية ويكون في حلة لتحقيقها، كل هذا يطلب جهادا، جهادا

في الهداية وفي رد الثقة وفي تعليم الإسلام وفي تربية المومن القوي الأمين. والمومنون القادرون على الجهاد قعدوا لما رأوا الفتنة، وخفتت أصواتهم، وإذا ارتفعت فإنما ترتفع للمطالبات الجزئية بتحريم الخمر مثلاً او محاربة العرى، كل ذلك مع كثير من الحولقة وقليل من العمل. فما بال القاعدين، من انزوى الى ركن المسجد يحوقل، ومن طلق أمر المسلمين لا يهتم به ؟ أهم مسلمون ؟ أهم خائنون لواجب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

افتقد رسول الله (ص)، وكان في سفر، احد أصحابه.

فأتى به إليه. فقال الرجل: " اني أردت أن اخلو بعبادتي ربي واعتزل الناس". فقال رسل الله (ص) : "فلا تفعله ولا يفعله احد منكم قط، قالها ثلاثا، فلصبر ساعة في مواطن المسلمين خير من عبادة سبعين سنة¹.

وقال الله عز وجل : " وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما".

القاعدون مفضولون، والمنزوي عن امر المسلمين لم يؤد واجب الصبر وواجب الحق. لكننا نجد حديثاً آخر يبين بيانا اكثر مقام من خشي الفتنة واعتزال الناس وكفاهم شره. وفي هذا الحديث مخرج للقاعدين اليوم. وانما نجلي هذه النقطة لان من الناس من يكفر الأمة لانها لم تجاهد لترد الفتنة. واذا اذن الله للاسلام بانبعاث فقد يجد من

¹ رواه أبو داوود في مسنده عن عسعن بن سلامة.

كان بالأمس ساكتا قاعدا الحرج في العودة إلى الجهاد، الجهاد كما يليق بالفتنة، جهاد اعلان الإسلام وجهاد ذكر الله وذكر رسوله بين الغافلين. ذلك لئلا يكون وسط الملحدين، وجهاد القيام بالقسط والشهادة به بين الظالمين، وجهاد ذكر الله وذكر رسوله بين الغافلين. ذلك لئلا يكون الجهاد تناكرا وتنافرا وتلاوما. يقول هذا الحديث الشريف: "من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيلة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه، أو رجل في غنيمة في راس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى ياتيه اليقين ليس من الناس الا في خير"¹. فالذين انحازوا إلى مساجدهم أو بيوتهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، الذين رجعوا إلى إسلامهم الفردي امام الفتنة الطاغية، هذه الأكثرية الصامتة ان عادت إلى الجهاد فستعود على بيئة من امرها، وعلى مثال السوء الذي ضربه للامة ولدان لاتقوى لهما ولا امانة ولا ذمة.

لكن من يضمن لنا ان يكون للمسلم الفردي الوعي والاستعداد للانضباط ؟ من يضمن لنا انه اهل للامانة ؟. النضال مدرسة تربوية للمناضلين، ولذلك تكون للشيوخ الصينيين نخبة قوية تخرجت من مدرسة عشرين عاما من الكفاح المسلح تخلف أثناءه والضعفاء، ولذلك نجحت الثورة الصينية. اما القاعدون من المسلمين، وكلنا

¹ رواه مسلم عن ابي هريرة.

قاعدون، فإن إعلان ولائهم لله وشرعه وسنة نبيه لا يكفي مؤهلا لحمل أمانة الجهاد. فمن يجاهد إذن ؟ القاعدون بالأمس من كان منهم في السياسة او في عقربيته. والعودة الى الجهاد توبة. ونعرف مؤهلات الناس في الميدان، ميدان العمل والبذل والجهاد. ويبدأ الاسلام كما كان بدا اول مرة، ويكون المرء وبلاؤه، والمرء وسابقته في الإسلام، والمرء وقدمه في الإسلام.

الامة بما هي امة تتحدد وتتميز عن الأمم بصادقاتها وعداواتها وعلائقها المنفعية. وقيام انبعاث اسلامي سيثيرا اهتمام الامم وخوفها وشكوكها. لاسيما واسما واسم الإسلام مقترن في الأذهان بالجهاد المقاتل بالسيف والعنف. والعنف كان بدأه الصليبيون الغزاة، وحين أكتوا بنار الجهاد وكلمتهم شوكة المسلمين بقي اسم الجهاد في ضائرهم علما على القتل والسفك. وفي عصرنا عنف شديد يتستر تحت أسماء مستعارة وتحت ظل توازن نووي عالمي. فإذا برز الاسلام برزته المرتقبة فستشرب الاعناق وتتسمع الآذان ليعرفوا اجاءهم اسلام الجهاد، كما يتصورون الجهاد، ليفسد جو التعايش السلمي كما يسمون عنفهم المتستر. وإن الله حدد لهذه الامة وظيفتها في العالم، وعين لها مطالب العداوة والمودة، وهذا كتاب الله يرشدنا إن أردنا رشادا.

بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ليقوم الناس بالقسط. فالقيام بالقسط وظيفه كل أمة مسلمة، وظيفتها أن تنتصب قائمة تعيش

إسلامها بين الناس بقوة ونصاعة، ويكون قيامها هذا امتداداً للتبليغ الذي أمر به المرسلون. وهو تبليغ بالنموذج الحي القائم الذي يقول : هاؤم أمة مسلمة، انظروا الى نظافتها ومودة أفرادها، وقوتها أي بالميزان الشرعي والتوازن المطئن. وفي عصر مضطرب كعصرنا، انتشر فيه العلم وتيسرت وسائل التعارف والتقارب والتواصل تكون الأمة المسلمة المنبعثة معرضاً مفتوحاً ترد عليه الاقوام لتري ما يحققه الإسلام لاهله من رخاء وأمن وسعادة. وقد حمل المسلمون السيف ليجاهدوا أعدائهم الذين اخرجوهم من ديارهم، ثم ليحرروا اما مستعبدة لا يترك طغيان حكامها ان تبلغها الدعوة ويتستر لنا ما لم يتستر لهم، فجاهدنا ان نبليغ بالمثال الحي وان تقدم البرهان العملي قبل ان ننظر للناس، وهم اليوم يرون كل عشية ما يجري في العالم ويسمعون، ولا يومنون إلا بما يرون. يومنون مثلاً بقنابل الصين وصواريخ أمريكا، لكن لا يومنون بالعدل ولا بالحرية والاخوة لانها لا تتحقق لهم أبداً. وعندنا، إن آماناً بالله وجاهدنا فيه حق الجهاد، ستتحقق. وبذلك نبليغ الاسلام أحسن التبليغ وأبلغه، وتاتينا الأمم لتسأل عن سر أماننا الاجتماعي وأخوتنا ورخائنا.

جاهدنا في وجه الامم جهاد إحصاءات، والاحصاءات هي أفصح لغات العصر وأكثرها دقة في التعبير. وإن روح العصر مادي محض، فأولى ما ينتظر العالم منا أن نبرهن عن قدرتنا في إنتاج طعامنا أولاً ثم في مزاحمتنا للأسواق العالمية بمنتجاتنا بعد التصنيع. ومع مادية

العصر فإن الإحصاءات التي تدمغ حجة الجاحد وتبلغ دعوة الإسلام هي التي تتعلق بالإنسان. الإسلام يصد المجرم عن جريمته ويدفعه عن الخمر والمخدرات، المسلم هاديء أمين، المسلم نظيف، المسلم عالم عامل، المسلم يؤثر على نفسه، وكل هذه حقائق تعبر عنها لغة الإحصاءات. ونعلم جميعاً أنه ظهورهم على مسرح تاريخنا المعاصر آية من آيات الله معروضة علينا للتدبر، إنه إسلام لفت الأنظار، خاصة أنظار الأمريكيين أنفسهم، لأنهم شاهدوا التحول السريع للزنجي العنيف القذر، كيف أصبح نظيفاً منضبطاً ناجحاً في كل أعماله. ومع هذا فهو إسلام اسمي، إسلام يحدد نفسه بكرهية الشيطان الأبيض الأمريكي، وليس له بإسلام الرسل إلا علاقات وهمية. رجل اسمه ألياً محمد يدعي أنه نبي ويحمل القرآن والتوراة ويعلم قومه صلاة ليست صلاتنا ووضوءاً ليس وضوءنا وعلمنا ليس علمنا بالله ورسله وغيبه. ومع ذلك فاسمع لما يقوله أحد تلاميذته: "فإن هذا التبديل المتزايد في المعتقد يقلق علماء الاجرام قلقاً بالغاً... ربما سمعتم الحديث عن حالات لا حصر لها، قامت بعلاجها أمة الاسلام لانتزاع سم الادمان. فقد كان مدمنون المخدرات يتوقفون صراحة الى حد أن هيات الصحة العامة كانت تطلب من المسلمين أن يبوحوا لها ببعض التعاليم"¹.

إسلام مبتور تبهر نتائج إصلاحه للإنسان علماء الاجرام والهيآت العامة للصحة. إسلام متنبئ جاهل، لكنه منظم. بما يكونوا لو انبعث

¹ مذكرات مالكو لم اكس، الترجمة العربية، ص 224.

الاسلام الحق ؟ إن العالم ولا شك يكتشف في مدة وجيزة الحضارة والتعاون الانساني في أروع مظاهرهما، ومعهما نظافة الانسان وطمأنينته. وابتداء مما يدخل تحت الاحصاء نتم التبليغ فنعرف الجاهلية بقيمة الانسان الخالدة عند الله المخلوق للكرامة والجنة.

تجاه العالم يخرج الاسلام قوة مسالمة، لكن قوة على كل حال لئلا نكون طعمة لكل آكل. وإعداد القوة والسلاح واجب مقدس. وجهاد الدعوة لن ينال الجاهلية خير الا عبر الاحصاءات.

نسميها جاهلية تسمية تحقق لا تسميه كراهية وعنف، وليس لانظمة الناس خارج حكم الله وشريعته الا هذا الاسم. جهل بقيمة الانسان وجهل بلا حلم. الانسان الجاهلي للتراب والدود بعد موته، وهو في حياته للكدر والنصب والتكاثر. وما يجيء الفلاسفة بخير من هذا ؟ وحين يسألون، الانسان لمن ؟ فأفضل جوابهم تجده عند هيدجر : الانسان للموت ! وحين يدعون اللاعنيف كما ادعى غاندي، فإنما كان ادعاء جبان خائر، وتحين له الفرصة فيعنف، وقد عنف غاندي على المسلمين في حياته وخالتهم، وانقض خلفه على باكستان المسكينة الخائرة التي خانها ذووها.

حد الله للامة الاسلامية مطالب عائها وولائها فقال: " لتجدن أشد الناس عدواة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى" فاليهود كانوا ولا يزالون وسيبقون العدو. والذين قالوا إنا نصارى علم الله أنهم كفروا حين زعموا أن

اللّٰه ثالث ثلاثة، ومع ذلك فهم أقرب مودة إلينا. والعداء الصليبي حملت وزره الكنيسة المستعبدة للناس وتحمل اليوم وزر الدس القائمة به جيوشها المجيشة من المبشرين. ويشغل رجال الاسلام دس التبشير على الإسلام وكيده كما فتن المبشرون، رغم أموالهم القارونية وجيوشهم المنظمة معشارما فتن الإيديولوجيون. وكيد الكنيسة عقيم وسلطانها على الأمم المسيطرة ضعيف. وسياسة الاسلام المنبعث سلام لمن قالوا إنا نصارى ولو كانوا في حضن البيروقراطية السوفيتية مستعبدة إخواننا داخل حدود السور الحديدي. وسياسة الاسلام المنبعث سلام لمن على الارض إلا عدونا الذي عينه الله لنات في القرآن : اليهود والذين أشركوا. وأصحاب الشرك هم غير الامم التي لادين لها. وما أقرب الكلمتين اللتين يتسمى بهما من نصب الله علينا عذابه بهم جزء ما كسبت أدينا، اليهود والهنود ! ما أشبه الحرف والمعنى !

الاسلام سلام، وجهادنا جهاد قيام بالقسط وشهادة به بين الناس. وجهادنا الأكبر على أنفسنا لأن من شحها وأنانيتها جاعنا الخل والفشل. رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة فقال : " رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الأكبر ¹ ". ويقف معاصرنا من رجال الاسلام أمام هذا الحديث حائرين، يستعظمون القتل بالسيف ومخاطر الحرب المصطفة ويستقلون جهاد النفس الذي سماه الرسول جهادا أكبر. ومن لم ينتبه لنفسه ويعرف ميلها الدائم إلى شهواتها وما

¹ رواه البيهقي.

يجب من صبر ومصابرة لردّها الى الحق لا يفقه كلام النبي. ان قتالك للعدو وقفة وصدمة ساعة، ونفسك ساكنة بين جنبيك تجري للهلكة في كل حين، فاما أنت غافل تطلق حبلها على الغارب في "تعايش سلمي" لذيد، وإما تريد ان تكون مومنا، ولن تكون مومنا حتى يكون هواك تبعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاءنا في الحديث. جهاد المرء نفسه جهاد كبير ولا يطيقه إلا ذوو الهمة. ومن لا يجاهد نفسه يقع تحت سلطان القهر الشرعي. الذين يجاهدون انفسهم لزكوها ويردوها عن اكل الخبيث الى الطيب، وعن الحرام الى الحلال، وعن طاعة الشح الى طاعة الله، هم النخبة الايمانية الإحسانية، وهم العمود الفقري لجماعة الانبعاث الاسلامي. وجهادهم داخل الجماعة بعد أن يتطهر ويتأهل لحمل الامانة جهاد للقيام بالقسط والشهادة به بين المسلمين. "ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله". "ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط". ذلك جهاد المومنين، وسط الأمة في فتنها، وهو ضرب المثال الحي للانضباط والنظافة والسمت والتؤدة والاقتصاد. وهو التواصي بالحق والصبر. وهو مكابدة العمل اليومي ومعاناته. وهو ممارسة الإسلام في البيت والشارع والمكتب والمعمل، في أوساط تتعامل على اسس انانية بوجوده متجهمه وقلوب مظلمة وحياة قلقة مضطربة.

بين القوم تقوم، ياأيها المومن طاهر القلب نيره، نظيف اليد والبزة واللسان، تصدق إن كذبوا وتؤدي الأمانة حيث يخونون وتعطي حق

الصبر والتواصي عليه بين جماعة المومنين، وتفرض الشخصية الإسلامية والسمت الاسلامي بعد ضياعهما. وستلقى عنتا وستلقى استهزاء، ويسخر القوم من عقلك ان تحدثت عن الله وغيبه وجنه وانسه وملائكته وجنته. فإذا صبرت وتابعت الجهد كنت مجاهداً، ولانتصار الاسلام ما هذا.

قيام المجاهد وسط الفتنة، الجهاد الإسلامي بالقسط، يطلب أن ينضوي المومن تحت راية الاسلام المعلن، وينتقل بالمبايعة من اسلاميه الفردي الى الإسلام الجماعي. ثم يشمر عن ساق الجد وساعد العمل ليصبح نموذجاً متفوقاً جذباً. متفوقاً في ميدان الفكر والثقافة وفي ميدان النظام والعمل. وفي حياته الخاصة، وهي تربية أسرته، وفي توفير ماله وفي التقلل والاناة والحلم. تقول بعملك وعلمك وبشاشتك وحلمك، قبل أن تقول باللسان: أنا مسلم.

جهاد الدعوة الصادقة جهاد تأسيس وبناء، وجهاد القيادة الإسلامية المجددة جهاد حضانة وتنظيم. الدعوة الصادقة تتناول الإنسان من موضعه في تيه الفتنة، من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، وتتفرض عنه قدر الجاهلية وغبارها، وتمنذله وتهذبه وتوقظ روحانية الميتة ليجاهد نفسه فيذكر اسم ربه ويتزكى حتى تكون له ذمة، ويدخل في الأمر، ويبايع على السمع والطاعة في اتجاه جهاد إسلامي جماعي يكون في صفوفه مسؤولون عن القيام بالقسط والشهادة به بين الناس. أما القيادة الجهادية فلها وعليها تناول من لا يرجون لله وقاراً متناولاً

جاءا بقية الأمة المنبئة شره. وجهادها وفق الشريعة المطهرة له طابع الحالة الاستثنائية التي خصت لمن يحارب الله ورسوله ويسمعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض".

ربنا ارحم بعباده منا، وهو يعلم ما يصلحهم، وكل من حارب انبعث الاسلام فقد حارب الله ورسوله وحق عليه قول الله.

وما ان يكون انبعث إسلامي إلا تحت حضانة قيادة مجمدة تجمع إرادة الأمة في يد قوية أمينة، قوية في الله أمينة على أمانة حملها وأقامها الانبياء والرسل. وتنتهي سخافات الديمقراطية المستعارة وحرية الرأي كما يفهم حرية الرأي من لا رأي لهم. حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والتواصي بالصبر والبطش. بالفكر المشكك أيا ما كان. ونكرر أن كل هذا حلم من الأحلام إن زعم قيادة الجهاد الاسلامي رجل لا برهان له على صدقه، والبرهان الوحيد يتلخص في تجرده في شخصه وردة للمظالم وتصفيته للفوارق في الأرزاق. ومشروعية جهاده في برهانه، ولا صحة لهذا البرهان الا إذا خاطب الناس أولا بما يفهمون. والذي يفهمه الخاص والعام لغة الخبز والارض والمساواة. لغة الإنضباط والتقلل لتغيير ما بنا، والا فنحن هالكون. والى الله المعاد.

أعبدة تتحرر

برز أمامنا ربعي بن عامر رضي الله عنه في المشهد الذي روينا في أول هذا السياق نموذجا أخاذا للمجاهد القائم بشهادة القسط، لم يلهمه بريق الرواق الفارسي والخدم والحشم، وواجه الجاهلية في دستها، وبلغ الرسالة برجولته وبيانه وبالمثال الحي للمسلم الحر القوي. وكان ربعي رجلا من عرض الناس، لم يعرف في تاريخ الصحابة كما عرف الكبار ذوو البلاء والقدم والسابقة. كان مشهد ربعي في رواق رستم لوحة رمزية للرجل المتحرر، للمومن الذي أصبح في جماعته طاقة لاتقاوم. وعودة الأمة إلى ما كانت عليه من صفاء الإيمان واستجماع العزم رهن بمعرفتنا بالمنهاج الذي ربي عليه ربعي وأمثاله. وقد ترك لنا التاريخ أمثلة لاهتداء المومنين وتدرجهم في معارج الرقي الروحي على المنهاج النبوي الكامن سره في كتاب الله وسنة نبيه. ونحن نكتب أساسا لتجلي هذا المنهاج ولنقتنع بنجاعته لنتخذه مفتاحا للمستقبل المشرق بنور الهداية. ومن أكمل هذه الأمثلة اهتداء سلمان الفارسي كما سماه المسلمون. وهو رجل من ذوي الهمم العالية. ويفيدنا أن نتتبع قصته كما رواها ابن هشام، وهي تعرض علينا الانسانية في جاهليتها، وهي إذ ذلك كما هي اليوم، وتقص علينا الازمة الروحية التي عاشها هذا الرجل الوني قبل أن يرحل يجوب الأرض باحثا عن الهداية. ثم لقاءه بالرسول p

وبيعته صوحبته ودخوله في الجماعة المجاهدة. وليست الازمة الروحية، أزمة رجل الهمة الذي يطرح على نفسه بحدة سؤال : من أنا وما مصيري؟ خاصة بالغزالي وسلمان، ولعل تدبرها يثير الطريق لمن يجيئهم السؤال أحيانا ثم يغفلون، عساهم ينبعثون في طلب الحقيقة كما انبعث سلمان. والدعوة الصادقة قائمة في كل زمان ومكان، وكل من طلب وجد، وكما بدأ الإسلام يعود أساس بنائه رجل ذوو همة وتشوق لآفاق أوسع من دنيا المادة الطاغية. مثل سيدنا سلمان الفارسي. قال ابن هشام¹: " قال ابن اسحاق : وحدثني عاصم ابن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس قال : حدثني سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصهبان، من قرية يقال لها جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحب خلق الله إليه، لم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار (خادمها) الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة. قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة. فشغل في بنيان له يوما فقال لي : يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتنني عن كل شيء من أمري. قال : فخرجت اريد ضيعة التّب بعثني إليها. فمررت بكنيسة من كنائس

¹ سيرة ابن هشام الطبعة الثانية، ص : 214 وما يليها من الجزء الأول.

النصارى، فسمعت اصواتهم فيها وهم يصلون. وكنت لا ادري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أجبتي صلاتهم ورغبت في أمرهم وقت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس. وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين؟ قالوا بالشام".

ويخبر اباه باكتشافه للدين الجديد واستحسانه إياه. فيزجره ابوه ويضع في رجله قيداً. ويتفق مع النصارى على الهرب حتى وصل إلى الشام ودلوه على أفضل الناس ديناً، وهو الأسقف في الكنيسة، ولم يجد عنده سلمان بغيته، فقد كان رجل سوء: "يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئاً منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه للمساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق". ويبغضه سلمان. ثم لقي سلمان رجلاً صالحاً من رهبان النصارى صحبه حتى حضره الموت، فأوصاه بالحق بصاحب له في الموصل كان على مثل سيرته، ويموت هذا لارهب فيوصي به لآخر حتى صحب راهباً بعمورية. فلما حضرته الوفاة قال الراهب : "والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كان عليه من الناس أمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين ابراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب. مهاجرة إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لاتخفى : يأكل

الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل".

واغتتم سلمان فرصة مرور تجار من قبيلة كلب، فأعطاهم بقرات على أن يحملوه إلى بلادهم. لكنهم غدروا به فباعوه من رجل بهدوي. قال سلمان : " ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما إلا أن رايتها فعرفتُها بصفة صاحبي، فاقمت بها. وبعث رسول الله ﷺ، فاقام بمكة ما أقام، لأسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة. فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل له في بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يا فلان، قاتل الله بني قيلة! والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعم أنه نبي... فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أنني ساسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول! ماذا تقول! فغضب سيدي فلكنني لكمة شديدة. ثم قال : مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال قلت لأشيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال، ويريد الله لرجل نشأ في الترف، وتاقت نفسه إلى الخير فاقتحم في سبيله الغربة والرق أن يلتقي برحمة الله مجسمة في شخص رسول أرسله

الله رحة للعالمين. وكان عند سلمان علاماته التي بها يعرف صدق النبي كما علمه صاحبه. فجاء الرسول وصحبه بصدقة فأكل أصحاب النبي ولم يمد هو صلى الله عليه وسلم إليها يده. فقال سلمان : هذه واحدة! ثم جاءه بهدية فقبلها منه وأكل منها. قال سلمان : " ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعلى شملتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدبرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصفه لي صاحبي. فلما رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أنني استثبتت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرن إلى الخاتم فعرفته، فأكبت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه"

وأسلم العبد الفارسي فعرف منذئذ باسمه الإسلامي سلمان وشغله الرق حتى يسر الله له أن يخطو خطوة الكبرى ويندمج في جماعة المسلمين اندماجا كلياً. وكانت الجماعة قد تأسست على رجال كآبي بكر وعمر وعلى الأنصار أهل البلاد والنصرة والجهاد. وعرف سلمان الجماعة محبة ورحمة وتعاوناً قبل أن يتعرف على أفرادها. عرف الجماعة حين جمعت جهده لتتقده من الرق بعد أن أنقده الهادي الأمين

من ظلام الشرك. يقول سلمان : " ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : كاتب ياسلمان. فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة أحبيها له بالفقير (الحفر والغرس)، وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية (فراخ النخل) والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية". ففقر لها سلمان هو واصحابه فلما فرغوا غرس النبي صلى الله عليه وسلم النخل بيده الكريمة. ورأى سلمان ما لم يكن يعرفه أخوة وتعاونوا وقدرة نبوية، قدوة في العمل وقدوة في السلوك. ثم اتصل سلمان بعالم الغيب كما اتصل الصاحبة الكرام على يد النبي المؤيد المعصوم، فأصبح من أهل اليقين. اتصل بعالم الغيب بواسطة معجزة مادية يسرها الله لنبيه كما يسر مات غيرها. لا جرم أن أصحابه كانوا قد آمنوا بالغيب قبله، كانوا حضروا بدرا وشاهدوا الملائكة تقاتل في صفوفهم، وكان السابقون منهم تلقوا فرض الصلاة بعد الاسراء والمعراج، وكانوا قد راوا جبريل لما جاءهم يعلمهم دينهم، يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان. وكان الإيمان بالغيب جزاء من عقيدتهم أن الغيب جزء من حياتهم العادية. يقول سلمان : " فأديت النخل، وبقي على المال: فأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال : فقلت: واين تقع هذه يارسول الله مما علي؟ قال خذها فإن الله سيؤدي بها عنك.

قال : فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم منها، وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرا. ثم لم يفتني معه".

في عزوة الخندق كان لسلمان مع رسول الله ﷺ شأن. التقى مرة أخرى بهذه اليد الشريفة التي حررته مرتين وغرست النخل وهي تضرب بالمعول مع المسلمين. قال سلمان¹: " ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله ﷺ قريب مني. فلما رأيته أضرب ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقعة. قال : ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقعة أخرى. قال ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقعة أخرى". وهكذا يجاهد الرسول لاقائد بيده الكريمة أشد الجهاد حيث عظمت الصخرة وعجز عنها المسلمون. ومع الجهاد يأتي المدد من الغيب. ويعمل الرسول ﷺ باقصى ما يملك من الجهد، لكنه في نفس الوقت يتحدث عن الغيب. قال سلمان : " فقلت : يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال : أوقد رايت ياسلمان؟ قلت نعم! قال أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب. وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق." وهكذا حفر الخندق بإشارة من سلمان

¹ سيرة ابن هشام الجزء الثاني ص : 219.

رضي الله عنه، وحفره سلمان، وجهد إلى جانب الرسول الكريم. وأصبح سلمان ذا شأن. ذهب العصبية القومية والتسخير الطبقي. وارتقى سلمان أعلى المراتب الإحسانية، وأخبر الرسول p أن سلمان من أهل البيت كما رواه ابن هشام¹. وأهل البيت عند الله كما قال : " إما يريد أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا".

ووسط الجماعة المسلمة جاهد سلمان وجاهد ومعه الشريف القرشي والعبد الحبشي، لأفضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ربما تعود إلى المسلمين عزتهم أن تعلموا من سيرة نبيهم وكلام ربهم أن عزة المومن تقواه. قال الله تعالى : { إن أكرمكم عند الله أتقاكم }.

وكان سلمان كريما على p. وكان كريما عليه كل تقي. ولعل المومنين، وهم في أحضان التربية النبوية، يمسون حساسية الفارس والحبشي، فنجد رسول p يشيد بهؤلاء المستضعفين ويبين كرامتهم على الله وفضلهم حتى يذهب اثر العصبية الجاهلية.

روى مسلم عن عائذ بن عمر أن ابا سفيان مر على سلمان وصهيب الرومي وبلاب في نفر، فقالوا : والله ما أخذت سيوف سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها! (وكان ابو سفيان عدو المسلمين لم يسلم إلا عام الفتح، وما قاله الثلاثة فيه كان بعد إسلامه ولا شك).

¹ المرجع السابق ج 1 ص 70.

فقال ابو بكر : أتقولون هذا شيخ قريش وسيدهم! وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال : يا أبا بكر! لعنك أغضبتهم! إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك! فأتاهم أبو بكر فقال : يا أخوتاه! إضبتكم : قالوا : ما غضبنا. يغفر الله لك يا أخي".

وروى الترمذي بسند حسن عن أنس عن النبي ﷺ قال : " أن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمار وسلمان".

إنها لنقلة بعيدة، تلك التي نقلت الدهقتان المترف من ضيعة أبيه الغني إلى أديرة الرهبان ثم إلى حقول اليهودي ثم إلى رحاب الاسلام. وإنها لرفعة ما بعدها رفعة، رفعة المومن المحسن الذي صحب الرسول وبايعه وجاهد إلى جانبه وسوته مع شيووخ قريش في معاملة الدنيا، ورفعته فوقهم عند الله، تشتاق إليه الجنة، ويغضب رب العزة لغضبه. ارأيت الأعبدة المستضعفين كعمار وبلاب صهيب وسلمان، كيف سادوا وكيق زال عنهم ميزان الناس المميز للفراد بألوانهم وأنسابهم وموطن ولادتهم، ودخلوا في ميزان الاسلام الذي يعطي لكل قيمة تقواه وعمله؟. ارأيت نظاما دنيويا يحقق لبشرية ما تطلبه من إخاء وتعاون كما حقق الإسلام؟ فارسي عبد تحرره اليد الطاهرة من عبودية أنانيته ومن عبودية الناس، وترفعه ليصبح عبد الله وليصبح صاحب الرأي، يحفر الخندق ويعلم بذلك المسلمين كيدا من كيد الحرب ينتصرون به. حتى إذا جاء عهد عمر رأينا سلمان الفارسي عاملا له على بعض بلاد

الفرس. ويجيئها عامل عمر يسير وحده ماشيا، فيحسبه بعض الناس أجيرا، فيأمره بحمل بضاعته فيحملها الأمير، ويسقط في يد الفارسي حين يعلم أنه الأمير. لكن سلمان يطيب خاطره، ويحكم وهو في ثيابه، ثياب عبد كريم على الله شرفه في تقواه لا في بزته. منتقلا من الدنيا بضرب المثل ويواسي الضعيف الذي لا يجد.

وما كان سلمان في كل هذا بدعا بين الناس، وإنما هو نموذج آخر بين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. رجال رفع الله همتهم 'ليه، فلما التقوا بالهداية النبوية وأشرق في قلوبهم نور الإيمان كانوا أهلا للسيادة في الدنيا والكرامة في الآخرة. وبتغيرهم من عصابة رعناء متنافرة إلى جماعة منضبطة بدأ تاريخ الإسلام. وحين يشاء الله يظهر النور الذي أنزل إلينا مع قرآن ربنا، فنتحول من حالنا إلى حال أفضل بالصحبة والمبايعة والصدق والجماعة، بالسنة النبوية والإيمان بالغيب، وبذلك تصبح أهلا للسيادة والكرامة.

وأي نشدان للتغيير لا يتناول جوهر الإنسان ولا يصله بروحانيته ولا يصله بالغيب ليطمئن قلبه بذكر الله، فلن يصل إلى غاية. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. التغيير المادي نفسه لا يمكن إلا بتعبئة تبعث في الإنسان حافزا نفسيا باطنيا، حافزا يرتبط بالنفس الهلوعة الجشعة. أما تغيير الله، تحويل الإسلام للإنسان، فتغيير من حيوانيتنا إلى حياتنا. وينقلنا لدار الكرامة من دار الهوان، ومع هذا

النقل وأثناءه وبواسطته يبدأ جهادنا لنعد القوة ونستغني عن عدونا ونطعم جائعنا ونعلم جاهلنا، ونقوم في الناس بشهادة القسط كما قام سلمان وعمار وبلال، وما نحن اليوم إلا أعبدة في يد النخاسة العالمية تقدفنا يد إلى يد ونبيع أنفسنا لهذا المعسكر أو ذاك في غفلة عم قيمتنا ورسالة ربنا التي حملناها فلم نحملها، والمنهاج الذي حرر الأعبدة الأول كائن لايزال، ومتى ارتفعت هممتنا إلى الله وذكرنا ربنا وموعوده المذخر لكل من آمن وعمل صالحا، اهتدينا إلى المنهاج، وخرجنا من الكبوة والنكبة والنكسة، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

الجزء الثاني

من الظلمات إلى النور

من الظلمات إلى النور

يجري على ألسنة الناس من بني قومنا عندما ييأسون من الحلول السياسية وما يتبعها من اضطراب، وعندما تجبههم حقائقهم المتخلفة وعجزهم، الحديث على الحل الإسلامي. وكانى بكثير ممن يلهجون بهذا الحل الإسلامي لاينظرون إلا إلى النظام الشرعي مجردا عن المحتوى الروحي والعقلي وأسلوب العمل الإسلامي وسمته

واقْتصاده. وقد عرضنا المنهاج الإسلامي كما نراه في الجزء الأول من الكتاب . ونود أن نلخصه هنا نسميه : " الخصال العشر ". وهي :

1 – الصّحة والجماعة : وتتضمن هذه الصّلة صحبة الأخيار أهل الدعوة الصادقين، والانتقال من الإسلام الفردي إلى الإسلام الجماعي الملتزم، وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، وكل ذلك لا يتم إلا بالمبايعة بين ذوي الذم.

2 – الذكر : بمعناه الأعم الشامل، التبتل إلى الله وغقامة الوجه له بالإحسان، واليقظة الإيمانية لقيمة الإنسان وقيمة سلوكه على الأرض أمام نظر الله، وهذا ما يسميه الصوفية الأبرار " المراقبة ". وبالخصوص ذكر اللسان لكونه المرحلة الأولى للتزكية الروحية وحضور مجالس الذكر، حلق الذكر كما يقول الحديث. والذكر على يد شيخ مرب عارف بالله أنجع الوسائل في معارج الإيمان والإحسان. والذكر هو الطاقة المركزية في المنهاج. وتتزكى النفس بالذكر فتوتى الإيمان، وعندئذ يشع عليها نور القرآن، ولذكر الله أكبر!.

3 – الصدق : خروج عن خصال النفاق كما بينها الرسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يصدق إذا حدث وأن يفى إذا عاهد وأن لا يخون إذا أوّتمن.

4 - البدل : بذل المال والنفس، وبذل المودة وبذل الوجه لجماعة المؤمنين، وبذل النصيحة. وكل هذا يقتضي الشجاعة والسماحة والنشاط.

5 - العلم : العلم المنجي أولاً، وهو العلم بشريعة الله وما فرض عليك، ثم العلم الدنيوي، الحكمة العلمية، لأن بها قوام الأمة المفتقرة إلى النظام والتكنولوجيا، وبالعلم تعد الأمة القوة كما أمرت.

6 - العمل : العمل العبادي على الكتاب والسنة، والعمل المنضبط المنتج المنظم، والعمل الدائب لا كسل، وامتلاك الوقت والوسائل. العمل المخلص لوجه الله، تقوى الله بالعمل الصالح.

7 - السمات : سمات المومن القوي الجليل النظيف المهيّب، وسمات الجماعة في مجليها ونديها " فسيعلمون أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا" . سومت العمل الإسلامي المتميز عن صور العمل الجاهلي وتفكير العقلية الجاهلية. ولا يصلح أن تستعمل كلمة السياسة وننسبها للإسلام، لأن محتوى الكلمة تسخير وتضليل وتوهيج، وكل ذلك ينافي السمات الإسلامي. ولانتحدث عن الثقافة لأن محتوى الكلمة في السنة الجاهلية إنسية معلقة حدودها العصبية القومية والعرقية، نقول : ثقافة عربية مثلاً وتعني الإنسية العربية أي رجوع الإنسان العربي إلى خصائصه الأرضية التاريخية الزمنية. وبديل عن كل هذا، "

السمت الاسلامي" افهم إن شئت : " سياسة بصدق" و " ثقافة حاملي الرسالة القائمين بالقسط". سمت المسجد وبهاؤه وهيبته والعدل والاحسان.

8 — التؤدة : الأناة والصبر وتحمل الأذى بالنسبة للمؤمن في نفسه سلوكه. ومعالجة الدعوة إلى الله بلا عنف، بالرفق النبوي. ويعطي الله على الرفق ما لا يعطي على العنف كما قال الرسول الكريم في حديث عائشة. وهذا هو معنى كون الإسلام رحمة، وبالتؤدة كأسلوب للعمل يتميز الإسلام عن الجاهلية العنيفة اللاصقة بالقيم الأرضية. والصبر والتواصي بالحق والرحمة.

9 — الاقتصاد : قال قوم قارون لقارون حين استغنى وتكبر، " وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، وولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك". ومعنى الاقتصاد ألا تزيغنا الدنيا عن الآخرة، مع الصمود لهدفنا غير متظالمين ولا ضعاف، معدين القوة المادية والسلا، وموزعين للرزاق توزيعاً عادلاً. وقد كاد الفقر أن يكون كفراً كما يقول مولانا على كرم الله وجهه.

10 — الجهاد : بذل الجهد باستمرار لتكون كلمة الله هي العليا وجهادنا والأمة مفتونة والجاهلية ضارية من حوالينا، هو القيام بالقسط والشهادة به بين الناس. ويقتضي ذلك أن نتفوق في كل الميادين وأن نعرض على الناس من حوالينا النظافة والتوازن

والسعادة مشخصة في الأمة المنبعثة، وإنما بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ليقوم الناس بالقسط.

جاذبية الأرض : لكي نخرج من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، يجب أن نتحرر من جاذبية القيم الأرضية لنصل حبلى بالله ونرتفع عن مستوى الدابة. وقد مسختنا الجاهلية، تخاذلنا بين يديها وهواننا على أنفسنا، ففسدنا قيمتنا. ونتبع سرتب الجاهلية وهي تبحث عن نفسها، فنعي أنفسنا حسب مقاييسها وفلسفتها. وإذا رجعت الفلسفة عن البحث في الإنسان المجرد إلى البحث في الإنسان المظروف "l'homme en situation". رجعنا نحن أيضا نلتمس حقائقنا في ظروفنا "الفلكلورية" التي يتلهى بها الفكر الجاهلي منذ أن اكتشفنا. ويصنفنا فكره التصنيفي **Pensé classificatoire** " فإذا نحن نتبجح " **authenticité** " باصالتنا ونتبجح بخصائصنا النوعية " **Spécificité** "، وننقطع عن قيمنا لنلتصق بالظروف المكانية والزمانية ونحاكي مذهب الموضوعية " **Situationisme** " في سعيها السياسي والاقتصادي، ضابطنا الهنا والآن " **hie et nume** " وكأننا قطعة حبل جاء بها السيل كما يقول مثلنا الدارج.

ولكي نرتفع عن مستوى الدابة، مستوى الكفر، لابد أن نرجع إلى ربنا ونصدق ونذكره حتى يعطينا السمى الاسلامى لنخرج من مسخنا

الذي جرتة علينا أعمالنا. يقول الله : { الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ». ويقول عز من قائل : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوquاه حسابه، والله سريع الحساب. أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب. ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكن يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور}. ويقول سبحانه : { إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون}.

نتأمل كلام الله ونتدبره، فيعطينا المفتاح. إننا لانخرج من الظلمات إلى النور ولا نرتفع عن مستوى الدابة إلا بالإيمان. وإن فتح الله لنا باب التجديد وابتعت فينا قيادة جهادية تحولنا برفق إلى النور من ظلماتنا التي كسبت أيدينا، إن أحيانا الله بعد موتنا نكتشف أن بيننا وبين الجاهلية غيرية جوهريّة "allérité essentielle"، نكتشف أن المومن حي بين أموات. قال الله وقوله الحق : { أمن كان ميتا فأحييناه وجلعنا له نورا يمش به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟}. والنور نور ايمان، نور القرآن والسنة النبوية، وسبيله المنهاج النبوي والتربية النبوية.

كنزنا الضائع: إننا، أمة الاسلام، مؤتمنون على كنز الكنوز، ونحن عنه غافلون، وللامانة مضيعون. وقد بعث الله لنا نوره القويم

سيدنا محمد p فبلغنا الرسالة فهي كنزنا. لكن تعاورتنا الفتن وغم أفقتنا الفكري بعد أن عميت البصائر، فلا نعرف قيمة كنزنا. ويراه الآخرون فيبهرون، ويشهدون بعظمة الإسلام والرسول.

بعض مفكرينا المعاصرين يرون أن ذكرنا لعظمة الإسلام والمسلمين قد يزيغ بنا عن اللحظة الراهنة. وهذا المفكر استشهد بمحاضرن له، سياسية لا إسلامية، أفسدها عليه « الغزو الفكري » إذ بث بين الناس في تلك الفترة كتباً لمؤلفة ألمانية تذكر فيها مجد الإسلام. ويرى هو أن الغزو الفكري يتربص بنا ليلهيها بماضينا عن حاضرنا. ويأليته انتبه، وهو الذكر الألعى، إلى القضية انتباهها ملياً ليعلم أننا نحن نلهي أنفسنا ونمسح مجد الإسلام، مؤلفة ألمانية عنونت كتابها هكذا : " شمس الله تسطع على الغرب " وذكرت الحضارية الإسلامية والعلم عند المسلمين. وعندما ترجم الكتاب إلى العربية أصبح عنوانه : " شمس العرب تسطع على الغرب ". هاهي القومية، هذه العصبية النتنة تحوا مجهوداً يشكر وتسخره لخدم القومية العربية، وأين إلا لام؟ ومن أي جانب ياتينا الغزو الفكري؟ إن بني قومنا أنكر على الإسلام من كل أعدائه في دعواهم الجاهلية. وإن كل مجهود يوضح لجينا مجد الإسلام ورسوله وحضارة المسلمين وعظمتهم غزو للجاهلية مجد الإسلام ورسوله وحضارة المسلمين

وعظمتهم غزو للجاهلية ونصر للإسلام إن كان تأمل ماضينا وكنزنا المنسي يدفعنا إلى العمل لنرد المجد لله ورسوله والمومنين.

لأنحب أن نمكث مع العقلية التبريرية التي تشكوو العدو وتتعزى بأنها مغلوبة لعدو قوي ومتآمر كثير العدد والعدة. وإنما نورد شهادة مستشرقين رأوا شواهد النوز ومعالم الكنز الضائع، لنخجل نحن من تهافتنا على القيم الأرضية ونزعم لأنفسنا أنا لن نحقق تقدما ولا تحررا إلا بالانسلاخ إن إسلامنا، عن قيمنا الروحية وانتمائنا لأمة مجدية عفى عليها الدهر.

يقول عدو الإسلام روناه الفرنسي¹: " إن الآثار والأسفار المحتوية على شتى العلوم والفتون التي أضفاها علماء الإسلام على الكون، والتي نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع البلاد بلاد الفرنجة وما تقدمها من احتكاك بين العرب (المسلمين لا العرب، فالأندلس كانت دار إسلام لا دار عرب) واروبا عن طريق الأندلس، إلى كل ذلك إلى أفعام المكتبات الأوروبية الفقيرة الخاوية بكنوز الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوروبية بأسرها.. كما رفع أفق شعوبها إلى أفق التمدن الذي نشاهدها عليه اليوم ».

ويقول العلامة دوسي : " إن المدينة الأوروبية، بل المدينة الغربية كلها، مدينة لعلماء الإسلام. ومن المدهش أن يصبحوا — وكانوا أول

¹ هذه النقول نأخذها من كتاب الأستاذ محمود أحمد مهدي : " البرهان من القرآن " من 23 وما بعدها.

أمرهم على الفطرة (يقصد أنهم كانوا بدائيين قبل أن ينقدهم الاسلام من الظلمات إلى النور) - عنصرا فاتحا ويعتبروا سادة للعالم في مائة عام. ومن أشد العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم وصلوا إلى مستوى عال في مائة سنة، بينما نرى الجermanيين، لما فتحوا الامبراطورية الرومانية، قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء علوم العلوم"

ويقول المستريكتول : " إن القرآن الذي هو دستور المسلمين، هو الذي دفعهم إلى فتح العالم ومكنهم من انشاء امبارطورية فاقت امبراطوريات اسكندر العظم الكبير والامبراطورية الرومانية سعة وقوة وعمرانا".

ويقول لوثررب ستودارد : " لقد سارت الممالك الاسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخا (650م إلى 1000م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحوضر العامرة، والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة. وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان غشعا باهرا. وما انفك الشرق الإسلامي (والغرب ايضا وحيثما كان الاسلام) خلال هذه القرون يرسل إلى الغرب نورا".

ويقول عدو الإسلام كولد تسيمر: " إن الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى في الجاهلية (يقصد الجاهلية التاريخية جاهلية

العرب البدائيين قبل أن يمن الله عليهم بنبي الرحمة). وهذان المثلان لايتشابهان، وكثيرا ما يتناقضان. فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لاحد لها، والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن أٌتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هي هي اصول الفضائل عن العرب الوثنيين الجاهليين.

أما في الإسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره والصبر واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة، هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة.».

وننقل فيما يلي صورة رائعة لشاعر فرنسي مرهف الحس، تدبر حياة الرسول العظيم وبهره النور الإسلامي. يقول لامرتين¹. في كتابه عن تاريخ تركيا : " لم يحدث قط أن انسانا اتخذ لنفسه — متطوعا أو مكرها — هدفا أجل ورأوع من هذا الهدف : إن يمحى الخرافات التي حالت بين الانسان وخالقه، وأن يقرب آلاء الله إلى الإنسان ويقرب الانسان إلى الله، وأن يرسى دعائم فكرة الألوهية، هذه الفكرة المشرقة المقدسة، بين فوضىة آلهة الوثنية المادية الممسوخة إذ ذاك...

ولم يحدث قط أن إنسانا حمل عبئا تتوء به الطاقة البشرية، وبوسائل في ضالة وسائله، فإنه لم يكن يملك من وسيلة غير شخصه

¹ نقلا عن مجلة (المسلمون) العدوان السابع والثامن شوال 1381 هـ ابريل مايو 1962م.

لتصوير هذا الهدف العظيم وتحقيقه، ولم يكن له من عون إلا رجال معدودون في ناحية قصية في صحراء شاسعة... وأخيرا فلم يحدث قط أن انسانا حقق في العالم أعظم من انقلابه، أو ابقى على الزمن.

ذلك أن الاسلام في اقل من قرنين بعد ظهوره كان قد سيطر بعقيدته وسلاحه على الجزيرة العربية بأكملها، وفتح باسم الله فارس وخرسان، وعبر القوقاز والهند الغربية وسوريا ومصر والحبشة وكل ما عرف من الشمال الافريقي وكثيرا من جزر البحر الأبيض المتوسط واسبانيا وجزءا من فرنسا.

وإذا كان جلال الهدف وضالة الوسائل وعظم النتائج هي المقاييس الثلاثة التي تقاس بها العبقرية الانسانية، فمن ذا الذي يجروا على مقارنة أيعظيم من عظماء التاريخ بمحمد (صلى الله عليه وسلم)؟ إن معظم مشاهير الرجال لم يخلقوا غير السلام والتشريعات والامبراطوريات. إنهم لم يؤسسوا — إن كانوا قد أسسوا شيئا — إلا قوى مادية تراءت في أغلب الأحيان على مرأى من أعينهم، أما هذا الرجل فإنه لم يحرك الجيوش والتشريعات والامبراطوريات والشعوب وبيوتات الملك فحسب، ولكنه حرك ملايين من الناس في ثلث الدنيا المعمورة آنذاك. وأكثر من هذا، كانت زلزلته للمنابر والاصنام والديانات والافكار والعقائد والارواح، وعلى اساس من كتاب، أصبحت

كل كلمة فيه قانونا، استطاع أن يحقق قومية روحية (نقول نحن ولاية المومنين) مزجت بين شعوب متعددة الألسن والاجناس.

وقد خلف لنا الميزة الباقية للقومية المسلمة (نقول نحن للأمة المسلمة)، إلا وهي وكراهية الآلهة المزيفة، والتوجه السافر نحو إله واحد منزّه عن التجسيد. وقد كونت هذه الوطنية الروحية، الثائرة على كل منتهك لحرمة السماء، عنصر الخير في اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم)، كما كان ادخاله لثلث العالم في دينه معجزة. أو بالأحرى لم تكن هذه معجزة رجل، لوكنها معجزة الفكر ° ولو درى لقال بلسان القرآن : كتب الله لأغلبن أنا ورسلي. ولو درى لقال : إن الله يؤيد رسله والدعاة غليه بصدق وينصر من نصره).

لقد كانت فكرة التوحيد التي صدع بها وسط الأساطير الخرافية معجزة ما إن فاهت بها شفتاه حتى حطمت كل المعابد القديمة للأصنام، واشعلت النار في ثلث الأرض. إن حياته وتأملاته وشجاعته في تسفيه خرافات قومه، وجراته في تحدي شراسة الوثنية، وثباته في احتمال أذاها خمسة عشر عاما بمكة، ورضاه بأن يكون موضع سخرية الناس حتى لقد كاد أن يذهب ضحية بني وطنه. كل هذا، ثم هجرته وخطبه المتواصلة وكفاحه ضد العارقال وغيمانه بالانتصار وهدوءه عند الشدائد هدوءا يفوق طاقة البشر، وعفوه عند الانتصار وطموحه الذي كان مكرسا لفكرة واحدة، ولم يكن قط سعيًا وراء امبراطورية،

وصلواته التي لاتنقطع، ومناجاته لله، ومته ثم انتصاراته بعد موته
على أعدائه...

إن كل هذا لايدل على ادعاء، بل على غيمان ثابت منحه القوة
كي يبعث عقيدة، ولقد كانت هذه العقيدة ذات شقين : وحدانية الله
وتنزيهه عن التشبيه والتجسيد. الأولى تحطم الآلهة الزائفة بحد
السنان، والثانية تبدأ الدعوة إلى الحق بمنطق البيان!

فيلسوف، خطيب، رسول، مشرع، محارب، هازم افكار، باعث
عقيدة يدعمها الفكر النير، وعبادة منزهة عن الأخيلة والصور.
مؤسس عشرين إمبراطورية أضية وواحدة روحية... ذلك هو محمد! (
صلى الله عليه وسلم).

ألا يحق لنا – بكل المعايير التي تقاس بها عظمة الرجال – أن
نتساءل : هل ثمة رجل أعظم من محمد؟"

مقاصد الإسلام : يخاطب القرآن من صفة نفسه وأوتى الايمان،
يخاطبه ليخرج من الظلمات إلى النور ويحقق مقاصد الاسلام. ويجمع
الفقهاء هذه المقاصد في خمسة ابواب : (1) حفظ الدين (2) حفظ
الذماء (3) حفظ الأموال (4) حفظ الأعراض (5) حفظ العقل.

(1) أما صيانة الدين فمعناها التعلق بالرسالة المحمدية المحررة
لإنسان الرافعة لقيمته من مستوى الدابة إلى مستوى الإيمان، من

مستوى ولاية الشيطان، إلى مستوى ولاية الله. جاذبية الأرض تهبط
بالإنسان ليتبع غرائزه وهواه، والدين هو الخضوع لله والسير وفق
شرعه وحكمه، وبذلك ينجو من جاذبية المادة إذ يجد في الدين توازنا
يمنحه من نصيبه من المتاع الدنيوي دون أن يزل في مزلق بهيميته،
ويزكيه الدين حتى يصير متأهلاً للمقام الرفيع فيكون مع الملأ الأعلى
بروحانيته الطاهرة. ونحن اليوم في عالم تسوده الوثنية بل الوثنيات،
وثنية البضاعة، ووثنية البطولات الطاغوت، ووثنية الفكر النائر على
الله. ولكي يتسع الدين لحياتنا المفتونة المعقدة يجب أن تقوم الدعوة
الصادقة والقيادة الجهادية بالتبليغ على مستوى وسائل العصر وأن
تجتهد في التشريع والتنظيم بروح غسلاية جماعية. ولئن ضاعت
جهود رجال حاولوا الخروج عن التقليد في الدين فلأنهم اجتهدوا في
الفراغ خارج الدعوة خارج الممارسة بلغة الإيديولوجية. والاجتهاد
والإجماع لايتأتيان إلا في جماعة مومنة. فالدين يزكي الفرد يونقله من
إسلامه الفردي إلى إسلام جماعي بالصحة والمباينة، ويظهره ليمس
القرآن قلبه ولتصبح السنة ضابطة. وبعد هذا فقط يأتي الإجماع ثالث
أركان التشريع، إجماع جماعة مومنة لا إجماع قطيع متنافر متدابر
عمي. وبعدع يمكن الاجتهاد لحياة إسلامية قائمة تواجه العصر قائمة
فيه بالقسط.

(2) وأما صيانة الدماء وحفظها فمعناه السلام الإسلامي داخل الجماعة وخارجها. وقد ضوع الله حدودا وسماها حدوده لكي لا يتجاوز المومن حقه إلى حق غيره. وبينه وبين حق غيره حدود الله أمرا لا يعتديها وإلا فقد ظلم نفسه وحق عليه " الحد " في الدين والعذاب في الآخرة. السلام الإسلامي داخل الجماعة المنضبطة المومنة وفي علاقاتها بالناس هو البشرى التي يحملها الإسلام للإنسانية المعذبة، الجرائم والسطو والتناحر بين الطبقات، وكل هذه الظلمات التي تعرضها علينا الجاهية مصبحة ممسية.

(3) فأما حفظ الأموال، ما يعبر عنه العصر بالاقتصاد، فهو النقطة الحساسة في كل بناء جدي. ونجاح الانبعاث الإسلامي رهن بما يحققه من نمو اقتصادي سريع، خارج لعنة الربا، وبالرفق لا بالعنف. والاقتصاد في المنهاج النبوي كما نراه يهدف منذ البداية إلى تسخير الدين ومواردها للآخرة، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة. وإن المسخ العام الذي ابتلي به المسلمون لما روادهم الفكر الجاهلي والمثال الجاهلي فراغوا إليه يسير بهم سيرا لاهثا وراء ركب الحضارة الجاهلية لا يجدون مهلة لمراجعة أنفسهم ولا يهتدون سبيلا لحل إسلامي يعطيهم الرخاء ومعه الطمأنينة التي يفتقدها الجاهليون. الاقتصاد الجاهلي اليوم يجري بأهله فيما يسمونه انسلابا وتشيينا، فالجاهليون يعنون أنفسهم كأشياء في دنيا الانتاج ودوامته. يبتغون

الزيادة في القدرة على الانتاج "Productivité" لكن دولاب الاقتصاد يلتهمهم في انتاجية "Productivisme" وهم وشيكون أن يدركوا أن مرضهم مرض النتاج "Productivite" ونصوغ لهم هذه الكلمة ولأنفسنا لنرجع إلى إسلامنا نحاوره ونمارسه ونسائله ليخرج الله لنا من أرضنا بركة ويضع لنا في عقولنا وأعمالنا بركة ويفيض علينا، إن آما وعلنا صالحا، القوة والبهاء.

4 - حفظ الأعراض : انظر إلى هذا التعبير، الجاهلية تتحدث عن أسرة الإنسان كما تتحدث عن أسر حيوانات أخرى. أما الانسان المومن حتى في مرافقه في البيت والزواج والمعاملة اليومية. المومن المكرم بغيمانه له عرض يصونه الاسلام، له شرف تحفظه عليه الشريعة، وتأمره أن يصونه بكل قواه، ومن مات دون أهله فهو شهيد. الأسرة الاسلامية قوامها واساسها الرجل والمرأة، وبين الزوج وزوجه رباط شرف وعرض، بينهما معنى سام رقيق. ترى عند الجاهلين أسرة علائق افرادها الحق والمصانعة والخيانة إن دعت الغرائز، أما المومن والمومنة فلهما عرض، ورباطهما يقده الله تعالى ويجعل للزوج المحسن لزوجه، من الجانبين، جزاء المحسنين. ويربط بهما ذريتهما بالطاعة والمحبة والبر. وتتماسك الأسرة المومنة على هذه الأسس ويعم خيرها العم والخال وذوي القربى. ووظيفة الزوج القوامه يقابلها من الزوجة الحافظة، هو يقوم بقوة على

شؤون بيته وحاجاته وه يتحفظ نفسها وتصون عرضها وعرض زوجها وتحفظه بالغيب. قال تعالى : { الرجال قوامون على النساء } وقال : { فالصالحات قانتات تائبات حافظات للغيب بما حفظ الله }.

وتدهور المرأة الجاهلية، وفتنة نساءنا بالمثل الجاهلي، لا يكاد يتصوره العقل. وقد أصبحت المرأة العصرية متاعا وبضاعة في سوق السلع، وهدرت كرامتها وبيعت ببيع الرقيق. ويهوش عليها الرجل الذئب بشعارات التحرر والمساواة ويكذبها. وفي الاتبعات الاسلامي المرتقب دواء المرأة والأسرة بالرجوع إلى مفهوم العرض والقوامة والحافظية. وكرامة المومنة أن تشتبه بنساء النبي الكريمات. ولهن يقول الله تعالى : { يانساء النبي لستن كأحد من النساء أن اتقيتن، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولا معروفا وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرجو الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله } . قرن في بيوتكن يامومنات، وانجن المومنين، ورببن المومنين، رببن الجيل المنقذ للإنسانية.

ظلمت المرأة العصرية المسكينة وحرمت وسخرت. وقد خلقها الله تعالى لوظيفة هي أسمى وظيفه، خلقها لتربي الانسانية وتحفظ الغيب. وذاك أشق عمل وأشرفه على وجه الزمان. فأين خطوها؟. إنها عندما تفكر بصدق تدرك الحق، وقد يفوتها الفوت فتعض على اصابعها ندما. هذه أستاذة جامعية، ضيعت حياتها بين الكراريس والأضابير،

وتسلقت قمة المجد العلمي، ثم ... قالت¹ وهي تلقي خطبة استقالتها أمام مآت الطلاب والطالبات : " ها أنا قد بلغت الستين من عمري، وصلت فيها إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري، وحققت عملا كبيرا في المجتمع. كل دقيقة في يومي كانت تأتي علي بالربح. حصلت على شهرة كبيرة، وعلى مال كثير. تيحى لي الفرصة أن أزور العالم كله، ولكن، هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت مكل هذه الانتصارات؟

لقد نسيت في غمرة انشغالي في التعليم والتدريس والسفرة والشهرة أن افعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة ... نسيت أن أتزوج وأن أنجب أطفالا وأن أستقر... إنني لم أتذكر إلا عندما جئت لأقدم استقالي، شعرت في هذه اللحظة أنني لم افعل شيئا في حياتي، وأن كل جهدي الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباء... فسوف استقيل، وسيمر عام أو اثنان على استقالي وبعدها ينساني الجميع، في غمرة انشغالهم بالحياة.

ولكن! لو كنت قد تزوجت، وكزنت أسرة كبيرة، لتركت أثرا أكبر وأحسن في الحياة. إن وظيفة المرأة هي أن تتزوج، وتكون أسرة. وأي مجهود تبذله غير ذلك لاقيمة له في حياتها هي بالذات. إنني

¹ نقلا عن كتاب الأستاذ سابق : " غسلامنا" ص 227.

أنصح كل طالبة تسمعي أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها.
وبعدها تفكر في العمل والشهرة".

فهذه شهادة واحدة، وقد جمع المرحوم الشيخ مصطفى السباعي
أمثاله كثيرة في كتابه " المرأة بين الفقه والقانون".

وفي حدود الله، حدود القوامة والحافظية والعرض، يفسح الاسلام
للمرأة ميدان الجهاد والعمل والكسب. فهو يحيط عنها إصرها والأغلال
التي كانت في عنقها ويحررها كما يحرر الرجل سواء بسواء على
المنهاج التبوي.

(5) حفظ العقل/ من المفاصد الاسلامية الأساسية. حفظه أولاً من
أن يتيه عن حدوده، ويدعي علم ما لا يعلم وما لا يمكنه أن يعلم. وإن
كان الفقهاء يهتمون كثيراً بالخمير التي تذهب العقل، فإن اهتمام
الاسلام بالعقل أوسع من هذا النطاق. هناك سكرة المال وسكرة
الشهوة، وسكرة السلطان والطاغوت، وسكرة العقل الفلسفي الذي يريد
أن يفسر العقل نفسه من داخل العقل ومن ظروف خلقية بيولوجية
تتحكم فيه ولا تتحكم فيها. من كل هذا ينقذ الاسلام العقل، ويوجهه
وجهة عمله، ويرده إلى الفطرة والنظرة الفطرية ويحرره عندما يرجع
خاسئاً وهو حسير معترفا بالخالق الفاطر. في عصرنا انتصر العقل
بفتوحاته وكشوفه العلمية، هذا لا ريب فيه، لأن الكشف العلمي موضع
طبيعي للعقل ونشاطه لذلك ينتصر. أما عندما يتوجه للإنسان يريد أن

يعلم علمه ويفسر وجوده، عندما يتخذ ميدانا له ما يسميه العصر بالعلوم الانسانية فإنه يتيه ويحوم دون أن يصيب الهدف. ويتحول عندئذ إلى عقلية تصنيفية تسمى الأسامي وترتب في صفوفها كلمات تصطلح لها على مدلول، ويبقى المدلول وهما وسرابا. وصدق الله تعالى القائل : { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الصمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه }. سراب الأنثروبولوجيا المعاصرة التي لاتعرف إلا الإنسان الدابة : { ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل له الله نورا فما له نور }.

يستتير العقل بالإيمان، ويعلم علم اليقين إن تزكى وذكر اسم ربه فصلى أن الانسان خلق لأمر عظيم، للخلود في جنة الله ورضوانه ودار السعادة ان أتبع المنهاج وترك اللجاج.

دين ماركس : لن يكون الفكر الإسلامي فعالا إلا أن لامس الواقع المعاصر وعائقه وعالجه على كل وجوهه بعقل ناقد مفتوح وطمأنينة المومن. ودين ماركس كان وعدا وهميا وفلسفة تتحول من التأمل في انفسان والعالم إلى دعوة تريد قلب الأوضاع، تريد التغيير. وما كان لدين ماركس أن يأخذ من اهتمامنا لولا أنه أصبح المحرك للإنسانية المعاصرة الضائعة. وهو دين أضي، دين الإنسان الدابة. لذلك فإن له فعالية خارقة في جمع الهمم الجاهلية، وهمم بني قومنا المفتونين

نحو التغيير. وامامنا مثال الصين القمين بكل عناية من جانبنا وبكل إعجاب لو كنا خلق دواب مآلها التراب. ولو كان للإنسان الدابة اختيار حر لما اختار على دين ماركس دين الطاغوت الاستغلالي، على أن من يدينون بالماركسية لا يكادون يمارسون إيديولوجيتهم على الأرض حتى يستحيلوا رويدا رويدا أبالسة الطاغوت الاستغلالي 234

والصين اليوم تحمل في يد قنابلها

عبر بقوة، لم يفقه فيها غيره، عن الشعور بالقمع والأذى. وهذا الشعور سلوك كثير من البؤساء يتأسون به. ون جهة أخرى أكد أن علاج هذه الشرور بواسطة الاشتراكية حقيقة يمكن أن يبرهن عليها عقلانيا. لنلاحظ الفن العالي الذي بواسطته توصل هذا الكاتب إلى تجميع التوقان الإنساني الخارج عن نطاق العقلانية، هذا التوقان الذي طرحه الدين المتهاوى، وتركه يجري هنا وهناك للعقلانية والمادية. وهذا التجميع كان ضروريا في عصر لم يكن مستعدا لقبول اية عقيدة لاتعتمد على أسس علمية أو شبه علمية..... ولو قال ماركس موعظة درائعية لما كان لموعظته أي تأثير. والتحليل الاجتماعي لم يكن ليهتم به إلا بضع مآت من الاختصاصيين. لكن عندما تلف الموعظة في صيغ التحليل دون الغفلة لحظة واحدة عن مطالب القلب يتكون لماركس هذه التقنية التي جلبت له ولاء متحمسا واعطت الماركسي هذا السلاح القوي : الثقة بأن افنسان والقضية التي يخدمها

لا يمكن أن ينهزما، وإنما ينتصران وجوبا. ولا شك في أن ماركس المبشر ليس كل أسباب نجاحه. القوة الشخصية والوئية الحاملة، وبدون هذين لا يمكن ظهور حياة جديدة أو معنى جديد للحياة، وهما يحملان بقطع النظر عن العقيدة".

لنترك من شاء أن يتدبر هذا الكلام العميق. ونحن لا نريد أن نخرج إلى عنترية مبارزة الفكر الماركسي، ولا أن نتدفع بقوة الخصم لنفسر انهزامنا. نريد أن نتعلم أن رجلا قال بقوة وإيمان حقائق عن استغلال الإنسان للإنسان وقال ذلك بحمية وغضب وبرؤية حاملة ووعد يؤكد بتحرير الإنسان على طريق الثورة والعنف. وهو يدعي العلمية "Scientificité". ويصوغ كلامه بصيغة شبه علمية لاثقة بالوضعية والعلمانية "Positirisme et Scientisme" السائدين في عصره. ونتعلم أن حاجتنا، ونحن على الحق ومعنا قرآن ربنا وسنة نبينا، إلى من يقول لنا حقائق ديننا بقوة ورؤية إيمانية واضحة هي أكبر الحاجات. ولا يعنيها فتيل، ونحن المصروعون في كل ميدان، أن نبارز الغزو الفكري مبارزة عنترية نظرية. إنما يغنينا ويحررنا أن نقوم فينا رجال الدعوة والقائد المجاهد المنشود بعمل، بممارسة كما يقول ماركس، بخطوات على المنهاج النبوي ليغير الله ما بنا.

ومن الناس من يلحد في دين ماركس، ويكفر به بعد أن رأى ما صار إليه الفكر الماركسي عندما نزل إلى ميدان العمل. ذهب الوعد والخرافة وتبخر الحلم في عنف ستالين واستغلال روسيا خروتشوف

وبريجنيف. ولنسمع إلى علم من أعلام الفلسفة " الدوايبية " فلسفة الوجودية في نزاعه مع ماركس. يقول اليهودي جان بول سارتر صديق العروبة الحميم وحامي المضطهدين في العالم، وتسمع في كلامه تجاوب "العباقرة" اليهود اللاعبين بالعالم¹.

" لكن الماركسية، وهي وليدة الصراع الاجتماعي، لزمها قبل الرجوع إلى هذه المشاكل (مشاكل الوجود) أن تلعب دورها كفلسفة عملية، أي دورها كفلسفة تنير الممارسة الاجتماعية والسياسية. وينتج عن هذا فراغ عميق داخل الماركسية المعاصرة... وهذه أنيميا (فقر الدم) عامة. وليس من شك في أن هذه الأنيميا العملية ستصبح أنيميا الإنسان الماركسي، أعني نحن أناس القرن العشرين. إذا اعتبرنا أن الماركسية هي إطار المعرفة التي ليس وراءها معرفة. وباعتبار أن هذه الماركسية تنير ممارستنا الفردية والجماعية، أي أنها تحدد حياتنا. حوالي سنة 1949 وضعت على حيطان فارسوفيا إعلانات كثيرة تقول : " السل يقلل الإنتاج ". وأصل هذه الإعلانات قرار حكومي ذو نية حسنة. لكن محتواها يبين، أكثر من أي شيء آخر، إلى أي حد ابعد الإنسان من أنثولوجيا تزعم أنها معرفة صدفة. السل موضوع لمعرفة عملية، الطبيب يعرفه ليعالجه، والحزب يحدد أهميته في بولونيا بواسطة إحصاءات... لكن هذا القانون، الذي نستطيع أن نقرأه في الإعلانات الدعائية، يحذف السلول ولا يعطيه حتى الدور الأولي

¹ Question de méthode, P.245.

كوسيط بين المرض وعدد الأشياء المصنوعة، يبين استلابا جديدا، استلابا مزدوجا. في المجتمع الاشتراكي، في مرحلة من مراحل نموه، العامل يكون مستلبا بعمله. وفي المستوى النظري - العملي - "تزدرد" المعرفة "السس الانسانية للأنثروبولوجية... ستتردى الماركسية إلى أنثروولوجية غير إنسانية إذا لم تجعل الإنسان أساسا لها".

أما نحن فلا نبارز الماركسية وإنما نرفضها جملة وتفصيلا. ولا نتبع نظريات الفكر الجبار معقلا لأن للبناء العقلاني الماركسي منطقته الداخلي وجاذبية الرؤية الحاملة، وللواقع الماركسي المنتصر في روسيا والصين بهاء وهيبة إذا قيس بماضي أمتين ساقطتين خرجتا بفضل الماركسية من بين مخالب الذئاب الناهشة لأننا لانرضى بدين دوابي يحصرنا في ابعادنا الأرضية، ثم لا يحقق الحلم ولا يصل إلى غايته الموعودة ولن يصل. نرفضه كما نرفض العالم الجاهلي الآخر عالم النخاب والنتاج، كدوار وصداع وما لا يخطه اليراع.

العلم والإيمان : نسمع أحد قادة قومنا العرب يردد شعار " العلم والإيمان " فتحقق قلوبنا أملا وحلما بعيدا لكثرة ما خابت آمالنا. تخفق قلوبنا عندما نتخيل واقعا غير واقعا المعزوم نستبدل فيه جهلنا علما وجاهليتنا إيمانا. ولعل السنة الخلق تنطق بالحق، ولعل الحروف تتحول لنا حقيقة نعيشها بالعلم والإيمان، لاشعارا يقال ويهتف به لكن جهادا على المنهاج النبوي وعلى الدستور القرآني.

يمتاز عصرنا بالتقدم العلمي الهائل، بتفتح العقل العلمي على العالم وتسخيره للمادة والزمان والمكان. ومتى توجه العقل الإنساني إلى ميدانه الذي خلق له كان له النصر، لكنه إن رام ما لا يرام، إن حاول أن يصل إلى المعرفة تخبط ومسح عقلية تصنيفية لا تجيد إلا تسمية الأسماء وترتيب الأنثولوجيا. الأشياء ينفذ العقل لغوامضها ويستجلي أسرارها ويصنع بها ما يشاء. أما الإنسان فكل المحاولات الشبه علمية لا تلاحظ إلا تقلباته وهلعه وعنفه، أما كنهه وكوامن باطنه فتتفيتها الدراسات وتسمها على الخرطوم بطابع " الماورائية"، أو تسمها بأنها شبه كذا، شبه نفسية "Parapsychologique" مثلا، ثم ترجع هذه الدراسات إلى الإنسان تطبق عليه مناهج الدراسات الطبيعية، تغرز دبابيسها في الحيوان الإنساني كما في الحشرات، وينظر الفيلسوف وعالم الاجتماع في موضوع دراسته فماذا يرى؟ ويحه ماذا يرى؟ إن على عينيه غشاوة الكفر والغفلة. لذلك لا يرى إلا حيوانا متطورا، فيصنفه في سلم الحيوانات، ويعطيه، كما يليق، اسما علميا لاتينيا تتبعه صفته الظاهرة. فهذا الدابة العاقلة " homo sapiens" وهذا الدابة الاقتصادية "homo oeconomicus" وهذا الدابة اللاعبة "homo ludens"، وهناك حتى الدابة المتدينة "homo religiosus"، هذا الحيوان الغريب الذي يزعم أن له

مصيرا خارج الأرض. وأن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون.

غير أن الله تعالى تأذن أنه سيرينا آياته حتى نومن. يقول عز من قائل: { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق}. والعالم التجريبي المنكب على المادة ينتصر ويبدع ويكتشف، وكلما تقدم شوطا في كشفه ازداد حيرة وازداد تواضعا أمام خلق الرحمان، ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت.

كان لعلم الطبيعيات قواعد راسخة منذ عهد جاليليو ونيوتن. ودرج العلماء الطبيعيون على أرضية ثابتة فيما يرون حتى دهاهم النظرية النسبية والميكانيكا التمجوية والفيزيقا المتقطعة "Physique des quants". ولا يزالون يكتشفون وما يزلزل يقينهم السابق ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وتضمحل القوانين الحتمية التي كانتا يظنون أنها تحكم لا تتخلف.

لنسمع أحد فطاحل العلماء يتحدث عن الدرات الشعاعية الضوئية واستعصائها على الباحث بالوسائل المعهودة، هذا العالم هو لويس دبروي "Louis de Broglie" المتخصص في فيزياء الضوء يقول¹: " كان يظهر لي يقينا ان الجسم لابد أن يكون له في كل لحظة وضعا في المكان والسرعة... ولهذا فإن الجسم لا يتبع قوانين الميكانيكا الكلاسيكية... لا يمكن بصفة عامة، أن نزع أن للجسيم لا

وضعا ولا سرعة ولا مجرى معينة. وإنما يظهر الجسيم في اللحظة التي تجري فيها ملاحظة أو قياسا، يبدو لنا حينئذ أن لها وضعا ما وسرعة ما. زمعنى هذا أن له في كل لحظة سلسلة من الوضعيات وسلسلة من الحركات الممكنة، وهذه الامكانيات تتحقق فقط، مع شيء من الاحتمال، عندما تجري قياسا عليها ... أما الموجة الضوئية فإنها أيضا تفقد، وبصورة أكمل من الجسيم، معناها الذي تعطيه إياها الفيزياء الكلاسيكية. إنها لم تعد إلا تمثيلا لاحتمالات تتوقف على درجة علم الذي يجري الاختبار. إنها شخصية فاعلة كما هو الحال مع التوزيعات الاحتمالية، وهي مثلها تتغير فجأة عندما يكتسب المختبر معلومات جديدة".

أنظر كيف تخاطب الموجة المختبر وتحاوره وكيف تزيد بها معرفة كلما ترقى هو واكتسب علما جديدا. وانظر هذا الجسيم الموجود الغير موجود. إنه احتمال فقط لازمن له ولا مكان، لكنه أيضا يحضر في الميعاد ليحدث المختبر عن قدرة الله وسعة ملكه.

ومنذ سنين ظهرت ابحاث كثيرة تسال الكشوف العلمية عن الحق الموحى به، عن وجود الله ووجود الآخرة وعن معجزة الجسم البشري. ولعلها بداية الهداية للإنسان الجاهلي إن رجع إلى نفسه واعتبر ما في جسمه عله يبصر، " وفي أنفسكم، أفلا تبصرون؟".

¹ Panorma des idées contemporaines, 1968 p. 625.

كتب الأستاذ وحيد الدين خان الهندي بإشارة من عالم المسلمين السيد أبي الحسن الندوي كتابا بالاردية عرب بعنوان " الإسلام يتحى " جمع فيه شهادات علماء باحثين مسيحيين تثبت وجود الله ووجود الغيب وهو كتاب نفيس ينبغي أن يقرأه كل مسلم, ومنه نقتطف ما يلي :

يقول البروفسور سيسيل بايس هامان، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا : " كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل الإله, فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيمائيا. هل أبطل هذا وجود الإله؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟ إن الغذاء بعد دخوله للجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة لتصبح تفاعلا مفيدا؟ إن الغذاء بعد دخوله للجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة من خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض. فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!".

إذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون؟ وهذا الكلام لاميغنى له، لأننا لم نعثر على صفات الكون، أية كانت، تثبت أنه خالق نفسه. ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ولكننا اليوم، وبعد كشف " القانون الثاني للحرارة الديناميكية" نجد أن هذا الاستدلال فقد كل اساس كان

يقوم عليه. وهذا **Law of Entropy** يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزليا. فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائما من " وجود حراري " إلى " عدم حراري " والعكس غير ممكن.

يقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم، وفي كل مجموعة منها يوجد مائو مليار من النجوم، أو أكثر أو أقل، ويقدر أن اقرب مجموعة من النجوم، وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة، تضم حيزا مداه مائة الف سنة ضوئية (الضوء يقطع مسافة 300 الف كيلومتر في الثانية الواحدة، والسنة الضوئية مسافو يقطعها الضوء بهذه السرعة في السنة). ونحن سكان الأرض، نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة مليونان من السنين الضوئية. (هذا الكون يتسع من كل جوانبه في كل لحظة، والآتنا العلمية الراديو الكترونية تدرك من الكون عشر مليارات من السنوات الضوئية. فمن يحسب واين نحن من ملك الله؟ لكننا أن آمنا فالكون لنا ونحن مركزه ومن أجلنا خلقه الله. ولدار الآخرة خير ولنعم عقبى الدار).

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التلفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى مليونورن بأستراليا تتم في بضع ثوان. فإذا كان نظام اسلاك التلفون يوقعنا في هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا

العصبي، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا! إن ملايين الاخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر ليل نهار. وهذه الاخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وحركاته، وتتحكم في الحركات الرئوية. ولو لم يكن هذا النظام موجودا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقا لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص.

لقد توصل العلماء خلال ابحاثهم، إلى أنه لابد في المستقبل القريب — وطبقا لقانون دوران الأجرام السماوية — ان يقترب القمر من الأرض، حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء. (قال الله مخبرا بالحق : { اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر، وكذبوا واتبعوا أهواءهم، وكل أمر مستقر }. صدق الله العظيم).

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض. ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفا من الأميال — على سبيل المثال — فسوف يحدث طوفان شديد في البحار. (قال الله عز وجل : { ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه }.

وسف أختم هذا الباب (يقول الأستاذ وحيد الدين خان) بواقعة رواها العالم الهندي المعفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول :

" كان ذلك يوم أحد من ايام سنة 1908م، وكانت السماء تمطر بغزارة. وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فغذا بي ارى الفلكي

المشهور السير جمس جينز، الستاذ بجامعة كمبردج، ذاهبا 'لى الكنيسة، والانجيل والشمسية تحت إبطه. فدنوت منه، وسلمت عليه فلم يرد علي، فسلمت عليخ مرة أخرى، فسألني : " ماذا تريد مني؟" فقلت له : " أمرين ياسيدي، الأول هو أن شمسيك تحت إبطك رغم شدة المطر" فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له : " وأما الأمر الآخر فهو : ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة؟" وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : " عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي". وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة والضبط وأخبرتني أن السير جمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفسور منهمكا في افكاره، وعندما شعر بوجودي سألني : " ماذا كانسؤالك؟" ودون أن ينتظر ردي، بدا يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وابعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومناراتها وجاذبيتها. وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز من هيبة الله وجلاله. أما السير جمس فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويداع ترتعدان من خشية الله. وتوقف فجأة ثم بدا يقول : " يا عناية الله ! عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من جلال الإلهي،وعندما أركع امام الله واقول له : " إنك لعظيم" أجد أن كل جزء

من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين.
وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله
خان لما أذهب إلى الكنيسة؟".

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : " لقد أحدثت هذه المحاضرة
طوفانا في عقلي وقلت له : ياسيدي : لقد تأثرت جدا بالتفاصيل
العلمية التي رويتها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي
المقدس، فلو سمحتم لي لقراءتها عليكم. فهز رأسه قائلا " بكل سرور"
فقرأت عليه الآية التالية : " ومن الجبال جدد بيض وهو مختلف
الوانها و غرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختل الوانه
كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء." فصرخ السير جمس قائلا :
ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟! مذهش! وغريب
وعجيب جدا! ! إن الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة
استمرت خمسين سنة من أنبا محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في
القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فأكتب شهادة مني أن القرآن موحى
به من عند الله، ويستطرد السير جمس قائلا : لقد كان محمدا أميا،
ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره
بهذا السر... مذهش! وغريب وعجيب جدا! ! (انتهى كلام وحيد الدين
خان).

من الظلمات إلى النور يهدينا الله بالعلم والإيمان، " والذين
كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم

يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه"، "ظلمات بعضها فوق بعض،
إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور".
دين ماركس دين دوابي ظلماني، ونور الاسلام يشهد به أعداؤنا،
ويشهد العلم بوجود الفاطر بديع السموات والأرض، والعقلية
التصنيعية لا ترى إلا الانسان الدابة.

وجوابنا عن الفكر الجاهلي والعمل السرابي الاستغلالي لايجدي
فتيلاً أن انحصر في دائرة الكلام. إنما الجواب إقامة الدين وانبعاث
الاسلام في أمة مومنة قوية تشهد على الحق بالحق، وتقوم بالقسط.
وبدايتها تجربة علمية على المنهاج النبوي، تجربة شخصية قائمة
على الصحبة والجماعة والذكر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لمعاصريه داعياً لهذه التجربة : " قولوا لا إله إلا الله تفلحوا". فقالوها
وأفلحوا ويم الله. ومتى سمعنا الداعي إلى الله الصادق يتحدى بكلمة
التوحيد، ويعد بالفلاح من قالها، من ذكر الله وتزكى، ومتى استجبنا
لدعائه فسنفلح وسيتحقق كل واحد أن دين الله حق وأن من أطاع الله
وجد في طاعته السعادة والقوة، واكتسب السمات والتؤدة والاقتصاد.
وعلى الله قصد السبيل.

معرض المثلث

قال الله تعالى : { ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت
من قبلهم المثلثات}. المثلثات في تاريخ البشر كثيرة، قرى أهلها الله
لكفرها وتكذيبها الأنبياء، وحضارات انهارت لما سقطت أخلاقها، والله

يدعونا لتدبر هذه المثلث والاعتبار بمآلها. ولا نحتاج لشهادة الماضي لأن في حاضرنا الجاهلي الظلماني مثلث تعرض عليك بؤس الحيوان العمودي، الدابة العاقلة اللاعبة الغافلة. لنترك إلى حين دنيا الشيوعية الفاضلة في زعمها، الشيوعية العفيفة التي تقضي على الجهل بالعلمية وعلى الزنا والفقر وعلى الظلم والاستغلال، في زعمها، ولنطل إطلالة على عالم الانحلال الخلقي السافر، عالم الحربة والمتاع. ولن نطيل لأن أي جريدة أو مجلة تفتحها تحدثك عن الجريمة المنظمة وعن الفاحشة المعروضة بشكل مغر، وعن انحدار المرأة إلى قيمة البضاعة، مع البضاعة في الإعلانات والسينما والتلفزو، جمال الأنثى يبيع السلعة ويباع معها. وتحدثك الجرائد، إن كنت تفكر، عن مساوات الساسة، وتحدثك عن فضائح الكبير والصغير. ولا تذهب بعيدا فإن ابواب السياحة تدخل علينا نماذج دوابية عبرة لمن اعتبر. هؤلاء الهبي تلامذة الصهيوني ماركوس، غطوا الأرض بقذارتهم وجراثيم امراضهم، حيوانات تسعى على قدمين. قذارة تفرزها الحضارة الاستهلاكية بطبيعتها. قذرة مفلسفة، فالدابة الشقية بحضارتها وعنف أهلها تدعى عدم العنف وتنتسب إلى حركة الاعتراض " Contestation " الذي ينشد التغيير. ترفض الدابة الشقية قانون المجتمع وضغطه وقمعه، وتريد أن تستبدل بذخه وترفعه بالتقليل، وعجرفته بالمسكنة والتذلل وتريد حرية الجنس، أي بعبارة عامة الانخناس إلى الحيوانية في أبسط صورها. بيد أن الحيوان نظيف عفيف

إذا قيس بفسق الذباب ونتانة الذابة العنودية الشقية. إلى هذا تنتهي الحضارة الاستهلاكية التائهة. ويحن إلى الاقتداء بها من لا يزالون وراء السور الحديدي أو القصبي، وسيقتدون متى تم لهم ما يريدون من اللحاق بالغرب في ميادين الانتاج والاستهلاك. وهاك داهية الدواهي، المسرح الجديد، مسرح العري. دعك من هذه التفاهات السينمائية التي عفى عليها التقدم الثقافي، إن عرى السينما وعهارتها ثقافة بدائية. هاهو مسح العري، يحضره القوم ليتمتعوا بمشاهدة الدواب تتسافر، نعم نعم علانية وجهارا. ذهبت ايام الفسق المتستر وتحرر القوم.

المومن المطمئن ينظر إلى كل هذا ويرثي للدابة الشقية، ويرى تدبير الله للإنسان لينحط إلى الدرك الأسفل قبل أن يتيقظ ويطلب الخلاص، وليس ثم إلا الإسلام.

أمتنا ضعيفة مسخرة لخدمة جبابرة الاقتصاد العالمي وفي هذا عبرة ونحن كثير لكن كثرة غثائية كما عبر الرسول. ومصيبتنا في تقليدنا للجاهلية وأخذنا عنها أخذ الأعمى الأصم. قلنا في أنفسنا نثى وعبر.

والصهيونية العالمية تمسك بيدها حبال الدمى البشرية وتلعب بها كما تشاء. ولها في كل ميدان رجال ذوو فكر ثاقب وعزم وماض على أن ينتصر " شعب الله المختار"، خاب ظنهم إن شاء الله أن ينبعث الإسلام بعث في جانب من جوانب الأرض الموبوءة. فلنا في وجود

فسقة اليهود العباقرة مثلثات وعبر. وانظر، عافاك الله، من يقود الفكر الإنساني ويرتاد له الطريق، أجهزة الإعلام في العالم أوكار للصهيونية، ومختبرات العلم ومحافل السياسة. ووجوه ثلاثة بارزة :
ماركس ومركوس وفرويد. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفال ويحب أن يبردوا إليه رجلا حسنا الهيئة، وكان يكره الاسم المنكر. وما خلق الله من شيء عبثا. فماركس ومركوس ألفاظ تتكلم بفصاحة عن ارتكاس الانسانية في حماة الجاهلية حيث الصهاينة سدنة وقادة وماسكو أحبال الدمى البشرية.

الفكر الرائد: يلتقي كل فكر حر متشوق إلى الحقيقة الأرضية بالفكر الرائد فكر ماركوس وفرويد. وفي لافراغ المحيط يتجلى دين ماركس وفرويد كبديل للفوضى العامة والتدليس الكنسي والعمي الجاهلي. ويتجلى دين اليهوديين بناء متماسكا منطقيا علميا يقدم للمتعطشين " المعرفة الصرفة". وفي هطه الأحبولة الشيطانية يقسم ابناؤنا كما وقع ابناء أجيال ثلاثة منذ أزيد من قون. لناخذ مثلا لنا رفيق ماركس الحميم. كان إنجلز في شبابه شابا تواقا إلى معرفة الحق، وصدمه التدليس الكنسي فألغى الدين وصحب العملاق اليهودي، ودان. كتب إنجلز في شبابه إلى أحد أصدقائه ما يلي¹: " إنني أدعو كل يوم، واقضي اليوم كله داعيا أن تتكشف لي الحقيقة. لقد اصبح الدعاء هوايتي، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي. إنني

¹ من كتاب " الإسلام يتحدى" ص : 266.

لأستطيع أن أقبل عقائدكم (عقائد التدليس الكنسي). إن قلبي يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور، قلبي يبكي، عيني تبكي، ولكنني اشعر أنني لست بطريد من رحمة الله، بل آمل أن اصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي. وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القدس. ولن أقنع عن تفكيري هذا، ولو كذبه الانجيل المقدس عشرة آلاف مرة!".

في صفوف شبابنا التائه من يحملون مثل هذا التوقان إلى معرفة الحق. وفي لأقراغ المحيط، وتدليس ديدان القراء تجار الدين ومثالهم الساقط، يرتمي شبابنا في أحضان الشيوعية وأنواع الفكر الفوضوي أو العدمي. والجواب عن توقانهم لاتسعه السطور، وإنما يسعه ميدان العمل الإسلامي، وقيام الصادقين في الدعوة والجهاد حتى يجلو الإسلام في أعين الناس كافة نجاحه في الاقتصاد ونجاحه في إسعاد الإنسان. والى سفر في مبارزة الماركسية وتمجيد الإسلام لايعني فتيلًا. سيما إن كتب أو نطق باسم الاسلام ديدان القراء تجار الدين.

نعزو إلى ماركس وفرويد دينًا اخترعاه، وهو دس على الانسانية وتشيء واستلاب كما يعبرون. ولا يهمنا أن نبحت هل قصد العالمان، في اصطلاح القوم، دسا وتوهيما، يكفيننا أن نعلم ان الله تعالى يبتلي عباده ويسخرهم في هذا البلاء ويهدي من يشاء إلى

صراط مستقيم. وخلق الله الشيطان وجعله فتنة، ومن الناس شياطين قد لا يدركون أي دور يقومون به.

يلخص الكاتب الانجليزي ر.ازبورن رأي اليهوديين ماركس وفرويد في الدين، إنهما يفسران للإنسان غروره إن اعتقد وجود الإله ويرد أن كل اعتقاد إلى الدابة العاقلة وتخطبها في مشاكل الاقتصاد وغوامض العقل الباطني، ونورد كلام الانجليزي لنتفرج على العقلية التصنيفية في ابرع مظاهراتها. يقول¹:

"تستطيع أن نمذج نظريات ماركس وفرويد في الدين بالشكل الآتي : إن العامل الموضوعي الذي يقود إلى الدين في نظر ماركس هو العجز الذي يخلق حاجة للحماية والاتجاه الكفلين بتسليح الإنسان أمام تحديات العالم الخارجي. وهذا العجز في نظر فرويد يذكر بحاجة الطفل لحماية أبيه له، حماية توجهه الوجهة التي يحتاج عليها. لكن الراشد لا يرى بالطبع والده كما كان يراه وهو طفل. إنه اكتشف أن والده رهين بالجنس البشري وضعفه. فلكي يبحث عن حماية لا يمكن أن يلتفت إلى والده. ومع ذلك فإنه يحتفظ في اللاوعي بصورة أبيه أيام الطفولة، أبيه القوي الذي يعاقب ويكافئ على طاعة أوامره وإرشاداته. وإلى هذه الصورة يتوجه ليلتمس الحماية والأمن عندما يهدد الواقع بأن يغمره. هذه الصورة، صورة الأب القوي يسقطها "PROJETER" على العالم الخارجي فتكون له حماية، وهي صورة

¹ Marxisme et psychanalyse, R.OSBORN; PAYOT P.83.

الأب القادر. وهكذا يكرر المؤمن بالدين بصورة مبالغ فيها ذكرى مواقف والده الأرضي الذي كان يلاحظه في طفولته، الأب السماوي قادر على كل شيء، يعلم كل شيء، إنه شديد ومع ذلك فهو مليء بالمحبة. نلاحظ في الدين الدور المهم الذي يلعبه "الأنا الأعلى" "sur moi" المتمثل في القوى الخارجية التي تحكم حياة الإنسان. "إن الشعاع العجيب الذي ترسله هذي القوى في دماغ الانسان"، كما يول إنجلز، تقود الانسان لكي يسقط الننا الأعلى ثم يلتبس منه بعدئذ الحماية".

هكذا بسهولة ووفق العقلانية الشبه علمية يرجع الفكر الرائد الإنسان إلى نفسه، إنه في العالم وحده مع العالم، في الترتيب التوبوغرافي الفرويدي، هذا ثم الأنا الأعلى. وأمام هذه المبهمات الشبه علمية قوى خارجية يلخصها ماركس في مبدأ الاقتصاد ويلخصها فرويد في مبدأ الواقع. لاجرم مع هذا أن تكون القوة البهيمية الحيوية "La libido" الدافع الأول والأخير لأعمال الدابة البشرية. وانتصارها يتوج الدين الجديد، بانتصار مبدأ اللذة على مبدأ الواقع وبتسخير مكتسبات العلم المادية لتحقيق المجد الأرضي كما يصف مركوس العظيم.

ما بالنا وهذه التعقيدات الاسلامية، وفيها تفسير غيبي، وفيها الجن والملائكة والآخرة والجنة والنار. هذا ما يدور بخلد ابنائنا المعذبين في الأرض. ولولا أن الله تعالى جعل الهداية على يد البشر

بهذه الطاقة النبوية الموروثة عند أوليائه الدعاة إليه، هذه الهداية المبنية على تجربة شخصية علمية تجريبية تحول بفعلها الإلهي من الظلمات إلى النور لما أمكن أن نعثر على أحسن مما عثر عليه الرائد. إن أخبار اليهود المحدثون يفسرون الإنسان والدين والحياة تفسيراً أنيقاً بسيطاً مغرياً، فلذلك ترى شبابنا الحي يميل ويذهب به التيار. ومن يناقش أحداً منهم في جزئيات الفكر الرائد فإنما ينفخ في رماد، ومن يواجههم باللعن والعنف فإنما يفعل ذلك لجهله بأبعاد المأساة. هاتوا لهم واقعا إسلامياً ناجحاً، وهاتوا لهم دعوة صادقة تتحداهم بالتجربة الشخصية، بالصحة والجماعة والذكر، بالمنهاج الذي يتضمن الهداية والنور، وستجدون عند الصادقين منهم الاستجابة.

عبد الطاغوت: من أمتنا عافاك الله عبدة الطاغوت. المسخ الخنزيري رايناه عند الحفاة العراة المتقمنين رذائل الحضارة الهاوية، والمسخ القردي نراه عند أمثال خروتشوف اللاهث وراء البضائع الأمريكية، ويجتمع في أمتنا المفتونة كل هذا ومعه المسخ الأعظم مسخ عبدة الطاغوت. اتفح مذياك وتحسس لهجة بني قومنا العرب فماذا تسمع؟ تسمع زمجرة وزئيراً ووعيداً على العدو الغاشم، وكأنك أمام هدير البحر الطامي الذي يغرق الظلم والظالمين لكن تأن حتى تتبين أية آلهة يعبدون. إنه مايو العظيم، والميثاق والتهويم، وإنه شباط ونيسان، وأعياد يفرح لها الشيطان. وثنية الزمان تضاف إلى

وثنية الابطال. وقد جعل الله للمسلمين أعيادا وأمرهم بمحبته ومحبة رسوله، لكن ولاء عبدة الطاغوت يذهب للأوثان المنتصبة خزيا في تاريخنا. إن وثنية الزمان تدرجنا إلى المهواة، إنه حزينان، وملحمة باكستان.

نستفيد إن علمنا بم يدين أبطالنا. إن هزائنا ليست أحداثا اعتباطية، إنها يد الله القوية علينا حين خذلنا أنفسنا ولم ننصر الله لينصرنا. بطل العروبة يتحدث عن الدين ونحن نسمع للعبرة لا للتشفي، فقد ذهب الرجل إلى ربه، وحسابه عنده، وبقيت لنا الهزائم ولاثبور وعظائم الأمور. يقول ناصر في استجواب صحفي هندي متحدثا عن الذين والدنيا بعد أن سألته الصحفي عما إذا كان مستعدا للانضمام إلى حلف إسلامي يتألف من العرب وغير العرب¹:

"إني ردل شديد التدين... ولكنك لابد قد لاحظت أن الدستور الجديد للجمهورية العربية المتحدة لا يشير إلى دين الدولة... وسبب هذا أننا نومن بأننا عرب أولا... كما نومن بمحمد والمسيح... وقد ظهرا في أرضنا هذه ونبعا منها (وكأنه يقول : كما نبعنا نحن).

وكما أن العربي المسيح لا يستطيع أن ينظم إلى تحالف مسيحي غربي فالمسلم العربي أيضا لا يستطيع الانضمام إلى حلف إسلامي. ومع أنني كمسلك لا أرى مانعا من التعاون مع الجميع في مسائل الدين إلا أنني لا أرى من الحكمة اقحام الدين في السياسة. (هكذا!)

¹ كتاب "الشعبية الجديدة" لحمد مصطفى رمضان، 1969 ص 129.

إن الأضرار التي يسببها التعصب الديني شيء معروف لكل إنسان، وقد شهدنا وثاره في جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يعملون لإعادة الملكية وربط مصر بجهة معينة وقد تم القضاء على هذه الجماعة بمعاونة الله والشعب، (مرحى بوثنية الشعب، وهي الوجه المقابل لوثنية البطولة).

كما أننا جربنا ثمار امراطورية اسلامية أيام الامبراطوية العثمانية، وما أظن أحدا من العرب يفكر في إعادة هذه الامبراطورية... وإذا كان لابد في هذا الوقت من خلق جبهة اسلامية فإن هذه الجبهة سوف تضم تركيا والباكستان... وقد اصابتنا نتائج مريرة من جراء دعوتهم هذه (وكأنه يقول بلسان العصبية الأموية ك ما بالنا والموالي ونحن العرب الأشراف!).

.... ولو وقع هذا لأعتقد أن محاولة كهذه لإنشاء حلف دولي إسلامي على أساس ديني تكون خطوة في الطريق الصحيح (والطريق الصحيح ولاريب هو العروبة التي تربي قواد الجيش على سهر الليالي الحمراء ليلة الزحف وتربي الجندي العربي الاشتراكي المسكين على تسليم دبابته وتسليم ساقيه لريح).

يقول محمد مصطفى رمضان بعد هذا : " في كلام الرئيس " العربي" ردود بليغة على من يزعمون أن " القومية العربية" طريق إلى الدولة الاسلامية الكبرى. وفي حقيقة الأمر لقد كفانا سيادة الرئيس

مشقة إسكات هؤلاء السذج وأولئك المغرضين. فجزاه الله عن كل خير".

ولو ترى إذ تقام للبطل الوثني دعوى عريضة مريضة فاسقة مريدة يدوس بها عبد الطاغوت قدس الإسلام والمسلمين. ويقوم ديدان القراء على سدانة الدعوى في مجلة أكبر جامعة إسلامية. يكتب أحمد حسن الزيات في مجلة الأزهر عدد محرم 1383 تحت عنوان : " أمة التوحيد تتوحد¹ " :

" إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة، لأنها قامت على العقيدة، ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وإن الوحدة الصلاحية (يقصد صلاح الدين الأيوبي الرجل الصالح) كانت جزئية خاصة، لأنها قمت على السلطان، والسلطان يعتريه الوهن فيزول. أما الوحدة الناصرية فباقية نامية، لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديمقراطية في الحكم. وهذه المقومات لاثلاثة ضمان دائم للوحدة".

كبرت كلمة تخرج من أفواههم، يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هذا إن اجترأوا أعلى مقام الرسالة. ومسح أكثر من هذا لا يكون. ولم لايأفك الأفاكون وقد قضينا على هذه الشرذمة من الإخوان المسلمين الذين يحبون الله ورسوله ويدعون لوحدة إسلامية وعزة إسلامية! يقولون : القرآن دستورنا ومحمد

الحبيب قائدنا! وجواب الله دفاعا عن كرامة نبيه هو الخزي والدمار ما دام فينا من يعبد الطاغوت.

مجتمع الكراهية : أكرم الله العرب البادون البدائيون بأن بعث فيهم رسوله الأمين خلاصة العنصر الإنساني وجوهرته. فعزوا وبزوا وهم اليوم أضرى أعداء الإسلام على الإسلام. وهم اليوم عبرة لمن اعتبر وأمثولة وضحكة ولعبة للعالم. هم قومي ألم ما يألمون وأضج إلى الله من إلحاد الملحد وشرك الوثني، وضرع إليه سبحانه ألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. وتكثر المثالات وتتعدد الولايات في قومي المفتونين. وأقتطف فيما يلي وصفا لمجتمع الإلحاد والكراهية كما عبر سعد جمعة الوزير السابق زمان هزينة حزيران، وقد نفت نفثة مصدور في كتابيه وهو يبحث عن الاسلام فلا يهتدي إلا إلى الكره والانتقام والغيز والخصام.

الانحلال الخلقي ليس وقفا على أناس الحضارة والثقافة، بل هو عندنا يكتسي صبغة المسخ لأن له خلفية طاهرة تفضحه، يقول الدكتور عبد الصبور شاهين²: " أليس غريبا أن يكون بعض عتاة الملاحدة في مجتمعاتنا من يمتون إلى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية! ودعك من أن تكون إحداهن فتاة غلاف، تنشر لها صورة

¹ نقلا عن كتاب السيد أبي الحسن الندوي " الطريق إلى المدينة".

² مقدمة لكتاب " الإسلام يتحدى " ص: 14.

عارية، أشبه يصور السابحات الفاتنات، وهي من بنات العلماء! إنهم جميعا واضرابهم نتاج هذا الانقسام بين الفكر الديني وقضايا العصر".

يصور سعد جمعة ساسة العرب هكذا¹: " إن بعض اقطاب العمل السياسي في الأردن كزملائهم في بقية الأقطار العربية (ولا ينبئك مثل خبير". فيهم المغامر الصلف غير المؤتمن، وغيهم أدعاء معرفة ومروءة ووطنية، لايساؤون ثمن هذا الورق الذي أكتب فيه. خير ما فيهم، ولا خير فيهم، اتقأنهم نهش الأعراض، وتجريح الحرائر، والتشديق بهجر القول، والتمدح بوقاحة السميت. يغشون المجالس بالنكت السمجة، والظل الثقيل، ويغطون الصفاقة بالتدليس والنفاق. وفيهم ذوو نفوس رخيصة في سوق النخاسة، بدراهم معدودة. تستطيع أن تصطفي ما تشاء منهم عملاء وأذنايا. وقد جعلوا لتعاستهم أن الأصالة تنبع من الذات ولا تشتري بالعمالة. لو ارتدوا الف ثوب من الوطنية الزئفة، وأوؤوا من الخارج بمليون شهادة حسن سلوك يوارون بها خزيهم وضغارهم، ويسترون بها ما يقترفونه في الداخل من جرائم خلقية، وفساد وسرقة، وتجشيع على التآمر والمتاجرة بمصلحة البلد كلها. ذلك أن الشرف لايتجزأ، والخلق لايتجزأ، والوطنية لا تتجزأ، وهي صنعة نفس لابضاعة تشرى قتباع. فمن كان منهما في ذمته، صغيرا في مروءته، خائنا في انتمائه الداخلي وعمله المسلكي لا يكون كبيرا في انتمائه الخارجي وعمله القومي!!

... في جلسة مجلس الأعيان الأردني يوم 9 - 3 - 1969

لمناقشة موازنة الدولة، موازنة المعركة، تبارى الخطباء من الأعضاء في فضح سخائم الحكومة. وأشاروا بالأرقام والوثائق إلى السرقات والرشوات والمحسوبيات ولاصفقات والتفريط في أموال الدولة، واجتراء على الحق وإعانة على الفساد ولم يتركوا زيادة لمستزيد. وكل تهمة من هذه لو صحت جرم مشهود يستحق أقصى عقوبة في ظروف عادية، بله ظروف استثنائية.

... فوقف رئيس الوزراء المتهم، لا ليرد على التهجمات الوثائقية الخطيرة بل ليقول بالحرف الواحد : إن ما ذكره السادة الأعضاء هو مفتریات أمر عليها مر الكرام - هكذا والله! - ثم أتجه بكلامه نحو الرئيس السابق الذي يزاحمه على السلطة، هان الطالب والمطلوب، وقال بالحرف الواحد أيضا : " الكل يعرف أن الأردن كان في زمن حكومة (فلان) - وأنا أعف عن ذكر الأسماء، وأحجم أن أمسها بقلمی ففنتهك - يسير بسياسة انعزالية تآمرية معروفة في كل وقت تولي فيه مسؤولية الحكم. وإنني اتساءل : أين كانت تصرف أموال الأردن؟ وأجيب : كانت تصرف على المتأمرين الذين كانوا يتي بهم من هنا وهناك... ومن منا لم يشاهد على شاشة التلفزيون السوري النقود الأردنية يعرضها ويفضحها من حصل عليها من يد " دولته" بالذات؟ ومن منا لم يسمع بقضية الشيكات الموقعة من أجل

المؤامرة والمتآمرين. وكلكم تذكرون أن فلانا هذا في عهد حكومته طلب من شخصين مسؤوليين كبيرين سحب ثلاثة مليار دينار من احتياطي الدولة للتآمر على دولة شقيقة؟ ومن لم يسمع تصاريح الدبابات المنسوبة إليه. فإذا مرت على هذا البلد فترة سوداء داكنة من الحكم البوليسي الاستخباري فهو زمنه.. وعندي الكثير، الكثير، ولكنني أكتفي بما سلف ردا عليه".

وجلست بعد سويغات إلى مذياعي، وأدرت المفتاح على محطة إسرائيل، فإذا بالمعلق يهدر : " اسمعتم يا أبناء الضفة الغربية ما دار في جلسة مجلس الأعيان ... انظروا إلى من حكنوكن عشرين سنة، كيف يتراشقون التهم المخجلة؟ وأقل ما يصف به احدهم الآخر أنه عميل وخائن ومتآمر ولص !!!

مجتمع الكراهية والحق والاحلال بين الخاصة والعامة على السواء! هم الحاكمين السلب والنهب، ومظاهر الأبهة الفارغة... وهم المحكومين صنيعة ووثنية ونفاق، والوصول من أهون طريق... غاية المراد من رب العباد عند الرؤساء عبيد الشهوة عشاق أنفسهم وردة كبيرة ترشق في الصدور، وسيجار فخم يحمل بين الأصابع، ومواكب صخابة تحف بهم طبولها و " زماميرها" وبوقاتها، وإسرائيل تدق الأبواب وتقتحم الحدود وتفتك بالمواطنين، حتى الألفاظ ماتت على أفواه الساسة وفقد معانيها. تتغنى بالوطنية ولا وطنية، وبالإخلاص ولا إخلاص، وبالحرية والوحدة الاشتراكية، ولا حرية ولا وحدة

والاشتراكية... ونقول : الحياة الأمل، ونحن نغني الحياة الأمل
الأسفل. نحن عبيد أنفسنا، ثم عبيد غيرنا، ثم عبيد عدونا، نتمرغ
ونتزلف، ونساوم ونزايد ونهزل، وعدونا يبني ويجد (انتهى كلامه
وهو الأطف تعبيراته عن واقع مر خبره عن كذب واكتوى بناره).

ونكف نحن عن شهادات تثبت أن العالم الانقلابي العربي شر مما
قرأت. وأفضح الشهادات لايسطر وإنما تفضحه الهزائم المنكرة والذلة
أصبحت مذهباً، التزلف إلى "الأخ الأكبر" وقرع ابواب الأسياد ليسمعوا
شكوى المهازيل الغنائيين من عدوهم الضاري. وحسبنا ما علق به
الاسرائيلي على مجلس الأعيان. وفي بلاد الانقلابية أعيانها يؤلفون
الطبقة الجديدة والحال هي الحال. وإسلامنا ضائع. ووثنية المحكوم
والحاكم مسخ تام، ولقد تدات علينا الأمم كل ينهش على قدر قوته
وهائه وعلى قدر خورنا وانحلالنا.

واسوأته! واخجلته! وإسلاماه!

حضارة تحتضر : ومن المثلاث في عصرنا تدهور حضارة
العرب، ينبئ بذلك ترهل النظم القانونية بحيث تربت العدالة على كتف
المجرم وترثي لحاله وتلتمس له العذر من ماضيه على نور، أقول
على ظلمة، التحليل النفسي اليهودي. هذا برلمان انكلترا يبيع اللواط
رسمياً. وينبئ بذلك الترف والتختن التظاهر بالفاحشة. وينبئ بذلك
قلق الدابة المترفة ويأسها وتفشي الانتحار في أغنى الدول. وأمامي

وصف عريض طويل يخبر عن مخازي التلفزيون السويدي الذي يعرض الأجسام العارية ويناقش بكل بساطة مشاكل النعاشر اللوطية، وشاب يخبر بألفاظ فجّة عن تجاربيّه أخجل من نقلها وحتى الإشارة إلى مصدرها. غلالة الحضارة الزائفة تنكشف عن عالم موبوء فيه العار والشنار، لايعرف معنى العرض والشرف والمروءة. ومع هذا العالم نسير إلى حتفنا لآتمنعنا من ذلك الانقلابية أبدا.

هذا رجل رصين يصف زيف الحضارة، إنه كارل ياسيرز الفيلسوف المسيحي. يقول¹:

نسمع منذ نيتشه، ويزداد الصوت ارتفاعا باطراد، من يقول : أن الإله مات! وتصبح الحياة الإنسانية حياة كتل. تضمحل الفردية ويخضع كل واحد لنماذج السلوك التي تفرضها الدعاية والسنما، وتتسوى الحياة اليومية على هذا الأساس. يشعر الإنسان أنه في خطر فيلتمس شرفه في " نحن " ويندمج في قوة جبارة... وهناك من يطيعون ويضحون بحياتهم ويخدمون بحماس ديني غامض زعيما أو حزبا. يقبلون أن يعيشوا في جو الكذب، وهم مستعدون لاقتراف أبشع الجرائم متى أمروا بذلك. ويشعر المرء أن إنسان العالم الحاضر يعيش فوضى مظلمة. إن غرائزه تنبعث بلا وازع. هناك شيء كان منضبطا في الظاهر، وهو اليوم يخرق غلالة الحضارة المكتسبة على مر

¹ Panorama des idées contemporaines, 1968 p.749.

التاريخ. علم النفس الحديث يكتشف هذه الأغوار السحيقة ويدرك مغزاها الجهنمي. وعلم النفس إذ يزعم أنه يستقصي علما هذه المخازي إنما يحاول أن يجد لها مبررا".

نكتفي بهذا لأن وصف الحضارة الهاوية لاتستنفذه مجلدات. ومن أين تبدأ وصفك، من السياسة الغابوية الثعلبية، أو من الاقتصاد الداويني هذا الاحطبوط الذي ضمنا بين أطرافه الرهيبة، أو من مجتمع منحل ساقط دوابي؟ إن إنسان الحضارة الغربية في ويل شديد. وإن يأسه من حضارته وخبراتها التي من ضمنها الهواء الفاسد والجريمة المنظمة وسدانة دولاب الاقتصاد الذي لايرحم ويحول الإنسان إلى عجلة متدحرجة في يومها وغده وليلها ونهارها، تموت مختنقة وتجن وتصرع ويصيبها أدواء العصاب والسهر والانتحار، ولا تجد سلوة إلا في الخمر والمخدرات... وغيرها من الويلات. في قرارة الإنسان الجاهلي رغم هذا بقية شهامة وفيه توقان إلى الخير متى خلاه هلعه ونفسه يختبرها ويمرضها. هناك جمعيات الإحسان، وهناك كنائس يشمون فيها ريح الدين، الكنسي المثلث طبعاً، لكنهم قالوا إنا نصارى وكلمة الله هي العليا. ورحمة الإسلام معروضة ورسالته خالدة يتقبلونها إن حملت إليهم. لكن من يحمله؟ إن فتننا نحن بالحضارة المادية مسختنا، ولم نحمل الرسالة حتى نخرج من المسخ بالتزكي على المنهاج النبوي. روسالتنا لن تبلغ أحدا بالوعظ والارشاد، وإنما

تبلغ العالم كله بقيام أمة مسلمة حقا منبعثة عزيزة بإسلامها، لا تحمله عبئا تعتذر منه كما فعل ويفعل مسلموا الاشتراكية ومجمع الكراهية، بل يحملها إيمانها حتى تكون منارا للإنسانية تعرض عليها دين الله مجسما في تفوقها في الاقتصاد والنظام والانضباط وسعادة الناس. الحضارة المادية تراوغنا وتنافقتا وتدغدغ حساسيتنا حين تجارينا في وصف أنفسنا وصفا صبيانيا يعرض عن الحقائق بأننا أمة في طريق النمو، والحق أننا متخلفون وفي طريق تخلف أمعن وابعد، لأن سرعة تقدم الحضارة المادية المذهل يتسارع وتتباعدها الهوة بين مستوى قوتنا ومعاشنا ومستواهم.

جنة الشيوعية : قامت الثورات الشيوعية بالعنف لتخلص الشعوب من الاستعمار وحققت الديانة الماركسية لمعتقيها، بشكل من الأشكال، تعبئة ضمنت لها تغيير الإنسان ونقله من الكسل إلى الجد ومن الجهل إلى العلم ومن الضعف إلى القوة. لكن هل حولته إنسانا سعيدا، لأنسأل هل نقلته من دوابيته إلى كرامته الإنسانية، ومن مصيره الأرضي إلى إيمان ويقين بما خلق من أجله. لانطرح هذا السؤال لأن الديانة الماركسية قامت اساسا على نفي ما تسميه بتوهم الدين. لننظر فقط إلى عالم الشيوعية على مستوى أرضي بحث أشرنا إليها ونشير لأنها أعظم تحد نواجهه، فإنها لاتزال في عصر الأحلام والحماسز وهي تنعث الروسيين بأنهم "مراجعين"

Révisionnistes لأن الروس عضتهم عجلة التقدم المادي وهالتههم المطالبة والمعارضة في صفوف شبابهم المثقف، وكهولهم أيضا بل وعلمائهم، وهوم بهم الخوف من أن يغلبوا في المسارعة إلى التسلح والمسارعة لإدراك مستوى المعيشة الأوروبية الأميركية. فلذلك رجعوا للاقتصاد التربوي، اقتصاد الربح، وغزوا الأمم الضعيفة التي تدين بدينهم. وليشهد شاهد من أهلها ليكون ذلك ابغ فيما نريد. يقول موظف كبير اسمه فاركا كان عضوا في أكاديمية العلوم الروسية، في وصيته قبل موته، ألفها كتابا هربوه للخارج، نورد منه بعض الفقرات بالحرف الواحد¹:

" إن النظام الخلقى الجديد المادي لم يحل نظريا وليس له اساس فلسفى أو تاريخى. إنه يتحدد في إعلان عقدي بشعارات نظرية لاتستطيع أن تؤثر بقوة وعمق على الأفكار. إن العلاقات السائدة اليوم بين المجتمع السوفيتي تساعد على ظهور بقايا تصرفات غير أخلاقية. فمن جهة تجد السعة المادية المبالغ فيها التي تتمتع بها الارستقراطية البيروقراطية تولد في الطبقة المحظوظة، وخصوصا في أفراد أسرهم صلفا وكبرا وكثيرا من الانحراف الخلقى. وهذا يدفعهم لطلب المزيد من الرفاهية، واختلاس وبيع أمتعة الدولة، ويدفعهم لإرضاء شهواتهم الجامعة ويؤديهم أحيانا للجريمة. تحدثت الصحافة عن " التعفن " عندما

¹ Journal « le monde », 14 Mai 1970.

تعرضت لهؤلاء الشباب الذين افسدهم الترف. ويكثر الحديث عنهم وتجريمهم لكن ذلك لا يغير من الواقع شيئاً.

وبخلاف هذا فإن مستوى المعاش عند عمال المدينة والبادية، معيشة هزيلة غير قارة، يدفعهم لتكيل عيشهم بالسرقة وتسبب سقوطهم الخلقي، هذا السقوط الذي تدل عليه ظواهر مختلفة منكرة. هناك الإدمان والاعتداء على الزوجة والأولاد، والخصام في الأسرة والامتناع عن العمل والاجرام وحتى الجرائم التي لا مبرر لها ولا معنى. وليس العجيب أن يدفع البؤس الشديد الناس إلى إفساد حياة أسرهم واقتراف الجرائم، إنما العجيب أن تجد أناساً لهم عمل قار وأجور حسنة في غالب الأحيان يجرّدون مدينتهم لا لبؤسهم ولكن لسوء تربيتهم ولانحطاطهم الخلق. ويبلغ هذا أحياناً حد الدوابية والصادية " **Bestialité et sadisme**". فمثلاً راينا رجلين يتراهنان في لعبة الورق من منهما يقتل أحد المارة أو أحد الزائرين.

وربما تظن أن الحال أحسن بالنسبة للطبقة المتوسطة في الاتحاد السوفيتي، ومستوى معيشتهم على تواضعه يمكنهم من التوسيع على عيالهم. لكن عند هؤلاء بأنفسهم تتجلى صفة نفسية في الضمير، صفة سلبية تظهر بقوة، ألا وهي غياب الوعي الديمقراطي والمسؤولية الاجتماعية. إن هؤلاء يقبعون وراء مصالحهم المادية ومصالح أسرهم ويطمعون أكثر ما يطمعون في حياة برجوازية. إن المواطن السوفيتي

يهتم قبل كل شيء، بعد عمله، بشراء أكثر ما يقدر عليه من مواد الاستهلاك : شقة جيدة، وأرض يبني عليها منزله الريفي " Datcha " وتلفزيون وثياب. إنه يدخر الدراهم ويفتخر بذلك أمام الأهل والجيران. ومثل هؤلاء يمثلون البرجوازية الصغيرة السوفيتية".

لنقف فحديث الرجل طويل يخبر بأشياء وأشياء. وتبقى أماننا المثلات الجاهلية متشابهة حذو القذة بالقدة. إن الله عالم الغيب والشهادة أخبرنا أن الإنسان هلوع جزوع منوع إلا المصلين.

الذي أخذ إلى الأرض : يقول الله غز وجل : " واتل عليهم نبأ الذي ىتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو نشاء لرفعناه بها، ولكنه أخذ إلى الأرض ةاتبع هواه. فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. بيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا. فاقصص القصص لعلهم يتفكرون".

ويقول المفسرون إن الذي آتاه الله علما وآيات فانسلخ منها ردل يهودي اسمه بلعام بن باعوراء. كان صالحا فاشترى بايات الله ثمنا قليلا وسحر وفسق. ولا يزال فسقة اليهود أشد الناس إخلادا إلى الأرض وكفرا بالله ودسا على الانسانية. قال الله : { منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون}. فلنستثن هذه الطائفة منهم ويبقى في يدنا، تعبیر يسخر منا لأننا نحن في ايديهم، الصهيونية المتآمرة على العالم.

ثم لنطمئن إلى أن مؤامرتهم فاشلة لننتفرغ لوصف كيد اليهود.
يقول الله : { كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله. ويسعون في الأرض
فسادا والله لا يحب المفسدين } وقال : { وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى
يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب". اليهود الفاسقون هم أعداء الله
وأعداؤنا، وهم المفسدون وكيدهم في نحرهم ونارهم يطفئها الله
ويسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، ولئن سلطهم
الله على قومنا المتكبرين لإسلامهم فليربينا وبيده سبحانه وتعالى
ناصية عباده، وإنما يؤدب من يريد بهم الخير.

قتل اليهود الفسقة أنبياءهم وحرفوا التوراة وأفسدوا في الأرض.
نسبوا إلى أنبياء الله بهتاناً وأجترأوا على حرم الله، وأمثولاتهم لاتقل
وقاحة عن وقاحة الزيات في مقارنته الرسالة المحمدية المقدسة
برسالة البطل العربي وتوهينه لدين النبي واعتزازه بالاشتراكية
التأصلية.

هذه نبد من تحريفهم للتوراة لعنهم الله وحاشا لله ومعاذ الله
أنبياء الله¹:

ابراهيم (عليها السلام) قدم زوجته لفرعون، وهذا منحه بقرا
وجمالا وحميرا وقدمها لملك النقب (فصل 12 من سفر التكوين).

¹ نقلا عن مقال الأستاذ الدكتور الزعبي، مجلة " الفكر الإسلامي " تموز 1971 ص 43 وما بعدها.

واسحاق أيضا قدم زوجته لهذا الملك (سفر التكوين، فصل 20).

لوط زنى ببنتية وأولادهما عمون وموآب (سفر التكوين، فصل 19).

يعقوب خدع أباه الاعمى ورشاه بصحن عدس ليمنحه البكورية وسرق صنم خاله الذهبي، وخدع أهل نابلس لاجل علاقة شدت بنته "دينة" بشاب نابلسي (التكوين، فصول 25، 27، 30، 31، 34).

روبين بن يعقوب زنى بزوجة ابنة (تكوين، فصل 37، 38).

داود زنى بزوجه أوريا فحملت بسليمان (سفر الملوك، فصل 1).

سليمان كان له ألف زوجة يعبد سليمان أصنامهن (ملوك، فصل 11).

واليهودي العالمي الصهيوني كان عبر التاريخ عدو الإنسانية أينما حل، يحمل معه الكيد والربا والدس، لذلك تجد عند كل المجتمعات حذرا متأصلا من اليهود. وقد افترضت مؤامرتهم على الكويم كما يسمون غيرهم من الأمم حين اكتشفت بروتوكولات حكماء صهيون. ولأمر ما تجد رجلا شهيرا هو الأمريكي فورد جمع طائفة من العلماء والباحثين فالفوا له كتاب "اليهودي العالمي" يفضح بالأرقام مؤامرتهم

على مر التاريخ. وقد خرج البنا منذ قليل كتاب " أحجار على رقعة الشطرنج" كتبه أمريكي كرس حياته منذ خمسين عاما لفضح كيد اليهود. والكتابان موجودان بالعربية لم تصل إليهما يد اليهودي العالمي الذي يطير من الأسواق العالمية كلها أي كتاب يمس اليهودي العالمي.

نسرد سطورا من مخططات حكماء صهيون ونترك للقاريء أن يرجع للكتابين. يقول الحكماء المتآمرون¹:

" إن الله قد أنعم علينا، نحن الشعب المختار بنعمة السبى والشتات في الأرض. وهذا الأمر كان فيما مضى مجلى ضعفنا، فأصبح فيما بعد سبب قوتنا، إذا استطعنا أن نلج الباب الذي منه نبسط سيادتنا وسلطاننا على العالم كله... إن جميع الصحف التي تشرب من مائنا ستحمل شتى الوجوه والسحنات والنزعات والدعوات، من ارستقراطية إلى جمهورية إلى ثورية وحتى فوضوية. وستكون هذه الصحف كصنم له مائة ذراع ومائة عين لتهمين على كل رأي ووكل اتجاه ولكي نصرف أذهان الجمهور المزعج المشاكس عن مناقشة الأمور السياسية ونبقيه في ضلالاه. ننشئ له وسائل اللهو واللذة الرخيصة، ونقدم له ضروبا من الفن والأدب، هي في غاية التفاهة

¹ كتاب المرامرة " ومعركة المصير" لسعد جمعة ص 160.

والقدارة والغثاة فيغرق فيها، ونمضي نحن في التدبير والتخطيط والتآمر!.

ومتى ولجنا أبواب مملكتنا، لا يلىق بنا أن يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهو دين الله الواحد المرتبط به مصيرنا من حيث كوننا شعب الله المختار، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا. فيجب علينا أن ندمر جميع الأديان الأخرى على اختلاف صورها... ولكي يتم لنا تخريب جميع القوى التي تعمل على تحقيق الانسجام الفكري والتضامن الاجتماعي ما عدا قوانا نحن علينا أن نبدا في تفكيك حلقات المرحلة الأولى من هذا، وهو الجامعات! فننقض أساليب التعليم من أساسها، ونفرغها في أساليب جديدة، ونهيء الأساتذة تهيئة خاصة، وفق برامج سرية، وبهذا تقذف الجامعات كل سنة العالم بألوف من المخنثين الذي ينطلقون برعونة لتلفيق المخططات الدستورية، ورسم المشروعات الهوائية". إذن ما نسمعه يكاد يكون حلما طائشا وتحاملا على حفة من اليهود لا يظهر لها بأس لولا أن اكتشف المخططات واقع تاريخي وتدعمه أحداث ناطقة فصيحة. يحدثك وليام كاي كار في كتابه " أحجار على رقعة الشطرنج" كيف بدأت المؤامرة وكيف اكتشفت بالصدفة. ويحدثنا التاريخ القديم والمعاصر عن تطبيق الخطط بدقة ومهارة شيطانية. فلسفات أوربا وأمريكا أساتذتها البارزون يهود،

ماركس¹، ماركوس، فرويد، والقائمة طويلة. وقرأ لائحة كتاب الاجتماع فلت تجد إلا أسماءا يهودية، لأن في علم الإنسان، ميدان المبهمات والتلفيقات لتسميم الأفكار والتضليل وهدم القيم الأخلاقية وإيقاظ الغرائز. والساسة اليهود هم أقاموا الشيوعية، هذا تروتسكي ولينين (ولم يكشف أصله اليهودي إلا أخيرا) وزينوفيف وستاينبرغ وروزنتلغد. وهل اتاك أن ستالين تزوج يهودية فرفعت أسرتها إلى الحكم ولعبت بالاتحاد السوفيتي زمانا قبل أن يبطش بهم الجبار الروسي عندما اكتشف أمرهم؟

ثم هذه أمريكا اليوم في يد الصهيونية العالمية. ولا عجب أن نشهد تخادل أمريكا ودعمها لإسرائيل. فإن مخططات التلفزة الثلاثة الكبرى بأمريكا ملك لليهود. N . B. C, C. B. S, A. B. C ، والجرائد الكبرى أيضا، النيويورك تايمز، والواشنطن بوست وكثير كثير.

الجاسوسية العالمية هم سادتها، والثقافة الغثة، والنشرات الخلية. وكيف لا والله تعالى أخبرنا أنهم ملعونون وأنهم يفسدون في الأرض.

في شهر ماي 1968 قامت ثورة الطلبة الفوضويين بفرنسا. وفرنسا لاتزال تغزو ذلك إلى عوامل اجتماعية. لكن من ينظر الأحداث

¹ أستاذ ماركس حاحام يهودي يدعى هس، وهو واضع البيان الشيوعي، انظر كتاب " مجتمع الكراهية" ص : 156.

بعين الخبير الخدر يجد مركز هذه الحداث شابا يهوديا وقحا اسمه " كوهن بندت. يقول أستاذ جامعي نكر اسمه حتى لا يعرف، وجامعاتهم فحولها يهود برزوا أو تنكروا، يقول هذا¹:

" نتذكر أن كوهن بنديت أحرز على الشهرة يوم 8 يناير في تانتر، يوم تدشين وزير الشباب والرياضة للمسبح. كلفه الطلبة أن يجيب على خطاب الوزير باسمهم. وأجاب الشاب اليهودي الوزير المسيو ميسوف بوقاحة كانت النموذج النهائي لتصرفات الطلبة فيما سكي بعد حركة 22 مارس. طلب من الوزير أولا سيجارة ونارا، ثم به لأنه غفل في كتابه الأبيض عن الشباب لم يذكر الحرية الجنسيو".

ويعطي اليهود المثال الواقح كما يعطون الفكر المصنف المعمر المضلل. نفس الكاتب يقول في لاصفحة التالية : " وتنوقلت الأخبار واتخذت صورة الرمز وفهمت الحادثة على أنها شكل " أوديبي" للتصرف. ففي الحديث سب للأب وتجريده من قناعه الرسمي، وإهانة، بل الفتك بالوزير. " ويزيد تيهانا وتضليلا بتفسيرات استواحاها من خرافات فرويد الوثنية الجاهلية.

ربما يقال إن كوهن بنديت طالب ككل الطلبة. والحق اتضح لي وشيكا. فمنذ عدة اسابيع أقيمت مناظرة حول فلسطين شارك أحد رجال الدعوة الاسلامية الأفاضل، سمعته يذكر أن رجلا تعرض له في الشارع

¹ Cesidées qui ont branlé la France, Epistémon, p : 58

قبل المناظرة وحاروه واحتج على أن المناظرة لم يمثل فيها رأي إسرائيل، ثم اقترح عليه أن يشارك في المناظرة... أحرز من أعدده لمثل هذه المهمات؟ إنه كوهن بنديت بعينه!

ومن اجتراً على الله وحرف كتابه، كيف لايجترئ على عباد الله؟ إن اليهود الكفرة الملعونين، أخبارهم المتالهون كما يصفهم القرآن، قالوا على الله جل شأنه أكثر مما قالوه عن أنبيائه، فلا تعجب أن لقتهم لعنته في الأرض بحيث مسخهم مسخاً سرمدياً وسخرهم، وهم عباده، في اقدر الأعمال وأخزاها.

أنقل لك أن اقوال الحاخامات: " إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمار (جزأي التلمود) فليس له إله.

وكان الرابي مناحم يقول : إن الله (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لايمكن حلها في السماء. وأنه يجب الالتفات إلى اقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى.

وأما عن نظرة تعاليم التلمود إلى الله، فهي أن الله يخطئ ويصيب، لا بل إنه كثير الخطأ، وكثيرا ما يطلب إلى لاقائمين على أمر التلمود أن يغفروا له اخطاءه. وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم التلمود وجعلهم أكثر عصمة من خالفهم، بل ان أخطاء الله

في التلمود قد وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه فهو مثلا، كما تقول آيات التلمود، قد أخطأ لكون القمر اصغر من الشمس وعن هذه الخطيئة، كون القمر أصغر من الشمس، تسجل آيات التلمود أن حوارا حدث بين الله والقمر، وإن القمر قال لله : أخطأت حين خلقتني أصغر من الشمس، فادعى الله لذلك، واعترف بخطئه وقالوا : اذهبوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي لأنني خلقت القمر أصغر من الشمس".

دع هذا كل وائل آيات ربك في القرآن الكريم يحدثك عن كفرهم ونقضهم الميثاق وعبادتهم للأحبار الحاخامات، وما تلى ذلك من حلول اللعنة عليهم والمسح وطابع الفساد والافساد في الأرض، ووقاحتهم على الله ورسله، وجبنهم وبهتانهم. ومنهم أمة مقتصدة كما أخبر الله تشهد على فسادهم. ونقبل شهادتهم لأن الصالحين منهم، وكلمة الله هي العيا في ذلك، ذوو ذمة، وقد مات رسول الله μ ودرعه مرهونة عند يهودي، فهو μ خط لنا الطريق في معاملة المقتصدين منهم. يقول الكاتب اليهودي " موسى مينوئين" في كتابه " انحطاط اليهودية في عصرنا"¹:

" إن اليهودية التي بشر بها الأنبياء هي يهودية التسامح لا يهودية " النابالم". إن اليهود القوميين ليسوا يهودا ولا تربطني بهم صلة، لأنهم فقدوا كل شعور بالأخلاق اليهودية وبالمثل الانسانية...

¹ سعد جمعة : " مجتمع الكراهية" ص : 157.

وإنني لأشعر بالعار والخجل حين يقرن اسمي كيهودي بأمثال هؤلاء المجرمين، وبقضيتهم الغير المقدسة" وبعد، فإن اليهود أعداؤنا عينهم لنا خالقنا، اليهود والمشركون. ونحن نداس اليوم تحت أقدام الممسوخين الملعونين وتحت أقدام عبدة البقر. تداس العروبة والعصبية القومية، حاشا الإسلام. وقد خر بطل العروبة وقواد جيشه المترفون لليدين وللهم أمام عدو الإسلام والمسلمين، ولم يهزم المسلمون لأن المسلمين لا يعرفون إلا إحدى الحسنيين، الشهادة أو النصر. ومرعة أعدائنا يجب ألا تحيد بنا عن القصد، وترجع بنا إلى العقلية التبيرية الضعيفة التي تزين لنا أنصاف الحلو، وتهين كرامة المترفين من أصحاب الانقلابية وغيرهم إذ يلتسون الرشاء العالمي ويقرعون الأبواب. إنما ينبغي أن نعرف عدونا اللاصق بالأرض المخلد عليها، ونعرف كيده وسريانه في عالم الجاهلية سريان العصب في الجسم لنعلم من أين نوتي ولنعد القوة، ولنومن بربنا الذي وعدنا أن ينصر من ينصره ورسله.

المهدية : المهدية مذهب من يدعون الهداية دون غيرهم من الناس. وقد اشتهر مهديون استغلوا اسمى البيت، وآخرون ينتسبون للصوفية. ونحن ندخل تحت هذا الاسم كل من ينظر إلى نفسه فيزيكها ويفسق الآخرين ويكفرهم ويعنف عليهم. وبهذا المعنى فأول مهدية في الإسلام مهدية الخوارج ثم ما تلاها من العصبية النتنة التي تجمع

لأفضل في عصبية الدم والمذهب أو المواطنة أو الجمعية المتآمرة. الأمويون مهديون حين سموا المسلمين غير العرب موالى، وقد كانت كلمة تشريف (وسنقرأ كبف عن صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان لافارسي في آخر فصل من هذا الكتاب). وأصبح المولى عند بني أمية فمن بعدهم علما على المسلم من طبقة دون لاحق له ولا كرامة. ومهدية أيضا هذه الانقلابية التي تاكلنا. فما من جماعة تقوم إلا ومن ورائها جماعة أخرى تتامر وتتحزب لأنها تزكي الاكليروس المذهبي الذب ابتلينا به عبر التاريخ، يكفر هذا المذهب أتباع المذهب الآخر، ويكفر الشيعي السني والسني الشيعي، وقد جعلهم الله عباده المومنين ليتحتبوا ويتحدوا والعصبية المذهبية تفرقهم. وفي الشيعيين شعب ومذاهب، وفي السنيين مثل ذلك، ونذ جيل فقط أو أقل من ذلك كان المالكي لا يصلي وراء الشافعي، زكأن الأحناف في نظر السنيين المتعصبين كلابا. وعوذ بالله أن ندعو إلى عصبية ومهدية. ولم يسلم الصوفية من هذه العفونات، بل إن لهم منها النصيب الأوفر، وبس النصيب.

ومخرجنا من المهدية المذهبية والسياسية والاجتماعية تجاوز كل المذاهب في التربية والعمل إلى المحمدية، إلى الحنفية السمحة، إن كتاب ربنا وسنة نبينا. ولأبأس إن اجتمعنا على ما يجمعنا، وهي اصول الإسلام الخمسة، وتركنا ما يفرقنا كل يجتهد حسب اجتهاده،

على أن لانتك لله ورسوله وصحابته حرمة ولا نبغي في الأرض
فسادا. مخرجنا التؤدة والسمت.

مجتمع الكراهية يغلي غليانا ناره العصبية القومية، ووقوده
الزعماء السياسيون، وضحايا هذه الأمة المسكينة. يقول سعد جمعة،
وهو الخبير في شؤون قومنا العرب المعاصرين¹.

" فطيلة سبعة عشر عاما أتخت المة العربية صراخا محموما
بشعارات زائفة، وشبعت هجر قول، وشتيمة وتبججا وغطرسا
واستعلاء، وكذبا ودجلا ونفاقا ، هي أبشع ما رواه تاريخ الشعوب من
همجية ونزول أخلاقي. وكان هم القادة والزعماء أن يفتعلوا المواقف
في الحارات والأزقة، "ليردح" بعضهم لبعض، ويسفه الواحد منهم
أخاه، في كلام بذيء لا تنضح به إلا المواخير!والجماهير مستغرقة في
هذيان الغيبوبة والهياج العاطفي....تصفق وتصفق وتصرخ وتصيح
في فوضى عارمة لا ضابط لغوائها!وكم...وكم من جريمة خلقية
وسلوكية وذوقية وإنسانية وعقلية وعاطفية قد ارتكبت باسم تلك
الجماهير التي كانت تبحث عن الزعيم، عن المنقذ، عن
المخلص!ومعذورة هي حين ظنت أن انتفاخ الأوداج ونزوات الصرع
وصرخات البذاءة هي المقومات الحقيقية للزعيم المنتظر!"

¹ " المؤامرة ومعركة المصير"، ص : 114.

ويقابل تصارع الزعماء وضجيجهم المفسد عصبية ومهدية
الفوضويين الشيوعيين، تلامذة فرويد ومركوس وماركس وما اشتق
من ذلك من أنواع الإرتكاس. وعنف هؤلاء ووقاحتهم وتفاهة أحلامهم
يذكرك بما قرأته منذ حين في مخططات حكماء صهيون. مهديو
الشيوعية والفوضوية هم الشرذمة التي أراد اليهودي العالمي المموهة
البراقة. وينسيك ما تقرأه عن هؤلاء كل الولايات، حتى سقوط العروبة
تلحق التراب من تكناتها الإيديولوجية القومية. يقول سعد جمعة(1):

"وبلغ السفه بهم أن يفلسفوا أسباب الهزيمة" باحتقان الجسد
العربي بالشهوة، واختلاله بالتشنجيات والعقد، والإلتواءات، لتمسكه
بأوثان التقاليد والمبادئ الخلقية والدينية... تلك المفاهيم التي أصبحت
أوثانا لابد لتحرير الجسد العربي من البصق عليها وركلها بالأقدام-
هذا أسلوبهم!- . ويتساءل شاعرهم الذي يقذفنا بمخازيه في "الوست
هول" في الجامعة الأمريكية بببيروت، تحت ستار حرية الرأي والتفكير،
يتساءل: "هل هذا وقت الحديث عن الحب والجنس، ونحن غارقون في
المأساة حتى الركب؟ ويجب نفسه: نعم! هذا هو الوقت الذي يحاول فيه
الإنسان العربي أن يغير ويتغير... إنه وقت الانقراض على كل
شيء... على كل قيمة خلقية"... ولو صدق لقال : ننقص نحن على
القيم الخلقية ونترك لإسرائيل حرية الانقراض على بلادنا وأموالنا
وأعراضنا... ويكتب كاتبهم في ملحق " النهار " اللبنانية تحت عنوان :

"امرأة بلادي للوجد والعشق والجنس": لنتحدث عن حرية المرأة... دعوني أعترف لكم فوراً أن حرية المرأة ليس لها غير معنى واحد. أنه المعنى الجنسي... المرأة في نظري هي مصب الأشواق والشهوات، هي مخلوقة غرامية لامعنى لها خارج الوجد والعشق والجنس. إن أقوى ما يحرك الرجل هو المرأة، هو أننا نشتيتها. أنا أو من بامرأة تعشق من أول نظرة... وإذا ارتفعت دون حريتها حواجز الأخلاق والقتاليد والعادات، تنظر إلى هذه الحواجز بابتسامة احتقار، وتتخطاها أو تحظم الحواجز من غير تفكير". (لتسمه المرأة المسلمة ولتتع مكانها عند من يريدون تحريرها!).

القومية العربية مهدية قومنا، والقومية بصفة عامة مهدية أمتنا المفتونة ووثنيتهما، وإذا اقترنت هذه القومية بالظلام الجاهلي واسم الصهيوني أخرجت إلينا ما ترى من مسخ.

أما والله لن يكون لنا شأن إن لم نرجع إلى الإسلام على كتاب الله وسنة رسوله وعلى المنهاج النبوي الكامل الذي يرقى بالمسلم ويربيه على الإيمان والإحسان ويحرر عقله وغرداته من ظلام الجاهلية إلى نور الله نمشي به في الناس.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وصف العصبية بأنها منتنة : عن جابر بن عبد الله قال¹: " كنا في غزاة فكسع رجل

¹ البخاري.

من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري : يالأنصار! فقال المهاجر للمهاجرين! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوها إنها منتنة".

والتؤدة الإسلامية في زمن الفتنة داؤونا، التؤدة السياسية تؤدة السمع والطاعة للأمر ما أقام الصلاة ولو طغى. وبالتؤدة يمكن للدعوة الإسلامية أن تبني بناء من الأساس يخلف البنية الاجتماعية بماعة مومنة لحمتها وسداها الولاية بين المومنين والمومنات والإخاء والمحبة في الله، وعصمتها ولاية الله لمن تولاه ونصره لمن نصره وعز رسوله وآزر دينه.

هذا مولانا عبد الله بن عمر، بايع يزيد بن معاوية، ويزيد لا يحتاج إلى تعريف فهو الموسوم بالفسق. ولما خلع أهل المدينة يزيدا قال سيدنا عبد الله لولده وأهله: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة"، وإنما قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني لأعلم غدرا أعظم من أن يبايع الرجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإني لأعلم أحدا منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفصيل بيني وبينه¹.

والسيد الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سيد السنيين. والسنة هي المنهاج، والمنهاج صحبة وجماعة وذكر بالمبايعة

الصادقة الوفية. وذلك هو البديل الوحيد لنا من نزع الملاحدة من
أبنائنا تلامذة الجاهلية الصهيونية ومن فساد الزعامات والأساسليب
السياسية ومن عنف الانقلابية ومن كل هذه الولايات التي جعلنا بين
الناس مثلات تعتبر حين لم تعتبر نحن بما وجه الله إليه أنظارنا من
المثلات السابقة واللاحقة، ومن مثلاتنا في أنفسنا.

وعندما يأذن الله، ويبيده مقارع البلاء نلوظ بجلاله، وتذهب ريح
وثنيات البطولات والقوميات والجماهيريات وسائر العصبية، يلتقي
المسلمون في المسجد بيت الله لايسال أحدهم أخاه ما مذهبك وإنما
يساله عما فعل لتحقيق الحق ووحكل رسالة الإسلام لتبلغ الانسانية
المعذبة المرتكسة في دوابيتها وفق ما خططه الفكر الصهيوني عنصر
الشر والظلمة، وينتصر الاسلام وتسود عمله سمات النبوة: المت
والتؤدة والاقتصاد. وفي المسجد، بيت الله يتبايع المومؤمنون بيع الله
ورسوله، وما عقد بيت الله خليف أن يوفى به وأن يرفعنا من احطاطنا
إلى عزة موعود الله.

الترف : وقد تركت لآخر هذا الفصل أمثلة المثلات وأمهن،
وأفزع العصبية والأنانية، ألا وهي الترف، الأثرة الشرهة الدوابية.
ومن الدواب ما يأكل ولا يمنع غيره من خلق الله خير الله. وشر
الدواب الشره الذي ينبج على الطعام. فالترف إخلاد إلى الأرض،

ويكون المترفون عصبية قدرة ليست فقط مظهرا لانهطاطنا ومسخنا لكنها سببه الدائر معه المولد لثورة التائرين وبؤس البائسين، وانحلال الخليعين. ويعرف الظلم بأنه وضع الشيء في غير محله، وبهذا التعريف يكون الترف افدح اللم وأعتاه. إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى. فإذا لم يكن العدل في توزيع الأرزاق فلا إحسان يمكن، وتتنشر الفحشاء ويظهر المنكر ويعم البغى. يعظكم لعكم تذكرون.

ألا ياقوم إن مصحفكم سيخلفه، إن لم تنتهوا، كتيب صغير أحمر فيه وصفة لدواء غير الدواء الذي أصفه. وإن ثمانمائة مليون صيني كاسية طاعمة متساوية الأرزاق مثل مشع حاضر في أذهان كل من يقرأ ويسمع ويتحسس الأخبار من الجائعين والمحرومين. اقتحم الصيني مجلس الأمم المتحدة وتصدره ورفع عقيرته يلعن الامبريالية، ويلعن الدب لاروسي الهرم ويصفه بأنه طاعون الاشتراكية الامبريالية، ويلوح للشعوب المظلومة الفقيرة بأنه نصيرها. ويرشدها إلى الماركسية الماوية، ومع الارشادات والمعونات الظاهرة دس "Subversion" وتجنيد للمساكين والمحرومين نحو العنف. إنه ياقوم الاسلام أو الطوفان، وإن رتف المرتفين أهم أمراضنا وأشدّها فتكا.

إن الانقلابية لاتبرئنا ولا تتجينا. وبين يدي كتيب لوزير مصري سابق يذكر فيه جهوده الضائعة في إصلاح الجهاز الإداري ومحاربة الرشوة، وينصح بتغيير الانسان تغييرا جذريا، تغييرا لا تعطيه الامقلابية. لايعرنا أن الانقلابيين يكرهون الشيوعية ويحاربونها. فما دام في الأمة جائع يقرأ ويسمع ويرى تقدم الأمم المستضعفة بفضل الثورة الحمراء، فستجد المنظمات السرية المدسوسة جندا ونصيرا.

لم لاتقدر أن نضع، لأقول قنبلة كقنبلة الصين، بل ابرة نخط بها أسمال البؤساء وديباج المترفين؟ والجواب واضح وجلي، هو أنه لن نستطيع صنع الابرة ما دام فينا ذوو اسمال ولايس ديباج.

والعقلية التبريرية لاتنفك تغزو شرورنا وابتزازنا لأموال المساكين لعوامل خارجة عن حدودنا. ومن دعاة الاشتراكية والشيوعية من يصب نقمته على العدو الامبريالي وحتى على العدو البرجوازي الداخلي، لكنك إن زرت قصره رايت التناقض المزري بالداعي وفكره وضميره.

الدعوة الإسلامية المعاصرة

خبت جذوة الاخوان المسلمين حين جابها الطاغوت العربي، ودب بين رجالها مستعجلون عنيفون. ودخلت الدعوة في السرية والتكتم، ونرجو أن يعيد الله لهذه الجماعة تألقها وفعاليتها، فقد كانت في عصرنا نبراسا أنار معالم الطريق، وإن ربنا لقادر أن يبعث للجماعة رجالا كالشيخ العظيم حسن البنا شهيد الاسلام عليه رضى ان الله يجدد لها تربية وصحبة وذكرًا. وفي البقية من رجال الجماعة البركة، ومن رجالها سيد قطب رحمه الله معلم الجيل الصاعد وأستاذة جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا.

وسنقف في هذا الفصل قليل مع سيد قطب، والسيد الندوي أبي الحسن والسيد الأستاذ المودودي، بعد أن نذكر فضل جماعة رجال التبليغ.

ونود أن نشير ونحيي كل صادق يخدم الاسلام والدعو، فمن رجال الدعوة أفراد يعملون في التدريس والوعظ والكتابة، ونتائج عملهم على قدر صدقهم وجهادهم، ولا يبلغ أثرهم أبدا مبلغ العمل الجماعي، ولكل عند الله أجره.

رجال التبليغ: من أبرز الجماعات المعاصرة وأبعتها أثرا جماعة رجال التبليغ. ولهؤلاء السادة الكرام سمت المومنين وصبر الصديقين، ولهم في كل بلد جولات، وقد هدى الله إلى الاسلام على يدهم طائفة من النصارى والوثنيين. وإن لم يكن للجماعة فكر منظم فإن لهم

منهجا ومضاء، ولهم في كل بلد من بلاد المسلمين، الأستاذ الفاضل شيخ أدباء العربية يتحدث عنهم، وقد كتب هذا الفاضل، وهو السيد علي الطنطاوي عن الجماعة منذ أكثر من خمسة عشر عاما. والجماعة منذئذ لا تزيد إلا قوة وانتشارا، ويعم خيرها أرض الله وعباده، يقول¹:

« أما دعوة رجال التبليغ فقد أسسها الشيخ إلياس، وألزم فيها تلامذته أن يبذلوا لها قليلا من أوقاتهم، ساعة في الأسبوع، أو يوما في الشهر، أو شهرا في السنة، أو أربعة أشهر في العمر، يسيحون فيها في البلاد على نفقة أنفسهم، لا يسألون أحدا معونة، بل لا يقبلون المعونة من أحد. يدعون إلى الله ويبلغون المسلمين رسالة الإسلام، لأنهم صاروا إليها، في الواقع، أحوج من غير المسلمين. ولم يكتفوا بالوصول إلى أقصى القارة الهندية، بل رحلوا إلى بلاد الاسلام الأخرى وقدموا الشام ومصر والعراق (وكل بلاد المعمورة أيضا). وقد رأيت منهم بمكة، ومشى منهم نفر مشيا من مكة إلى المدينة، ومن مكة إلى اليمن، يعرفون بدو الصحراء بالاسم الذي انبثق من أرضهم، ولكنهم جهلوه حتى صاروا يحتاجون أن يقتبسوه من هؤلاء الشباب القادمين من الهند، الذين بلغوا في الاخلاص والتجرد، وعلو الهمة، والدأب على العمل أبعد الغايات".

¹ مجلة "المسلمون" العدد العاشر سنة 1956 ميلادية، ص 17.

يعمل رجال التبليغ عملا جماعيا ينبني على صحبة المتطوع الجديد لمن لهم القدم في الدعوة، وتتخذ المبايعة عندهم شكل النذر المتجدد للخروج في سبيل الله، ولهم أذكار مرتبة، وهم أشد الناس تعلقا بالسنة وبأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله. أما صبرهم ورقة قلوبهم فيذكرك بالسلف الصالح، فهم الجوابون المشاءون البكاؤون، زادهم الله بركة ونفع بهم هذه الأمة. وقد ألف لهم الشيخ الصالح سيدي محمد يوسف كتابا نفيسا يدل عنوانه "حياة الصحابة" على منهج الجماعة وهدفها. ومن مبادئهم الأساسية: ترك ما لا يعني، وكأني بهم يقصدون صرف أنظار أصحابهم عن الخوض والاضطراب السياسي الذي سرعان ما تنزلق إليه المنظمات.

المودودي: يقول نفس الكاتب السابق في نفس الصفحة التي تحدث فيها جماعة رجال التبليغ: "ولا أستطيع أن أغفل جماعة هي في رأي أصفى الجماعات الإسلامية، وأقواها وأشدّها تمسكا بالإسلام، وإن كان عددها قليلا جدا، هي جماعة المودودي".

وقد كثر العدد منذ كتابة الطنطاوي وزاد المدد، وجاهدت الجماعة الإسلامية بباكستان، وافتتن أعضاؤها بالحدث الجسام التي عاشها المسلمون في تلك الأرض الإسلامية. وانشق بعضهم عن الأستاذ الجليل حين قرر أن تشارك الجماعة في العمل السياسي بالأسلوب المتاح، بالتقدم للانتخابات ومزاحمة الأحزاب بوسائلها. ولا تزال الجماعة أقوى جماعات المسلمين وأمتها تركيبا وأدقها نظاما.

قامت جماعة المودودي حول رجل مجاهد كرس حياته منذ أكثر من خمسين سنة للدعوة والكتابة والتأليف. وكان قلمه أيده الله القوة الجامعة والطاقة المشعة في جهاد جماعته، فصحبته صحبة علم وثقافة وفكر لاصحبة روح.

ويهمنا قبل كل شيء أن ننظر في فكر الرجال لنرى أين نحن من منهجه، ولنكتشف مواضع القوة في فكره وعمله.

إنه رجل سني يوصي بالصحبة، لكنه لايعرف من أنواعها إلا تكتلا على المبادئ. أما الصحبة الصوفية فيتحدث عنها بتحرز شديد، بل إنه ينفر منها نفورا بينا. ولعله لم يعرف لا جماعات المتصوفة المقلدين أو المحترفين، وحق له، أن كان الأمر كذلك، أن يحترز وينفر.

وهو في هذا على عكس رجال التبليغ، هؤلاء يتركون لرجالهم حرية الأخذ عن المشايخ، ويوصون بزيارة الصالحين والتماس دعواتهم ويؤكدون في ذلك. أما أبو الأعلى فيتحدث في كتبه عن ربط العلاقة بالله وعن التقوى والذكر، ويوصي بكم النوافل والتستر لئلا يدخل المصلي الرياء ويفسد عمله.

وأقوى ما عند الرجل من المنهاج النبوي المبايعة والتؤدة. فهو يكرر في كتبه أن من العبث محاولة أي عمل دون مبايعة والتزام، وهو يوصي بعدم العنف وبالتزام الأناة وبعدم الاستعجال.

وتمتاز كتاباته بالتبسط وبالاستعلاء على الجاهلية، فهو مع البارزين من رجال الدعوة والفكر، بل انهم معه، فله فضل الأسبقية

رضي الله عنه، في الاعتزاز بالاسلام وفضح مخازي الجاهلية،
والتبشير بعالمية الرسالة المحمدية. ونظرا لقيام باكستان على أساس
ديني، وما كانت تجسمه في قلوب المسلمين الذين انتظروا الاتبعات
الاسلامي في باكستان، فإن هذا العالم الجليل ألف كتباً يصف فيها
تنظيمات الدولة المرتقبة. ولم يتم ما أراد الداعي، فقد انحرف شباب
باكستان المترفون ببلادهم إلى حكم غير اسلامي، ونجحت دعوة
الاشتراكية، وانشقت باكستان، وكان ما نعرفه من حرب خاطفة تداعت
علينا فيها الأمم تداعي الأكلة على قصعتها، وانقض المشركون الهنود
على باكستان فمزقوها. وكان أبو الأعلى ينذر المسلمين بالشر إن لم
يرجعوا إلى اسلامهم، ففعل الله يلهم المسلمين أن يتعبروا نكباتهم
ليرجعوا إلى ربهم.

يحذر المودودي ابتاعه من الصوفية المتأخرين، ويسميهم بأنهم
اقتبسوا الطقوس من المجوس والرهبان. ويوصي بديلاً عن طرق
القوم بالرجوع إلى فعل الرسول الكريم. كيفية ربط العلاقة بالله،
بالصلاة والذكر والصيام والتوبة، وينصح بالتفكير في اليوم الآخر
ودراسة السيرة النبوية. ويتحدث لاتباعه، بلسان الخبير، أنهم يلقون
متى أعلنوا توبتهم عننا وتنكروا من ذويهم وأصدقائهم. بضفة عامة
يوصي الرجل بجهاد النفس ورياضتها على الخير، ولا تجد عنده ذكراً
لمجالس الذكر وللصحبة السنوية التي سموها صوفية. مع أنه عندما
كتب عن تجديد الدين في الاسلام لم يجد نماذج يقدمها إلا رجالاً

صوفية عمر بن عبد العزيز وكانت له صحبة قبل أن يخترع اسم الصوفي، الشيخ أحمد السرهندي الصوفي، والشيخ ولي الله الدهلوي. لا يمنعنا اختلافنا مع الرجل في هذه النقطة أن نعرف له فضله على هذه الأجيال من المسلمين، فله الاستاذية في الفكر الاسلامي المعاصر، على تفاوت في قيمة ما يكتب. والله وحده الكمال، والرجل طرق مواضيع متعددة فيها الاقتصاد وفيها الفقه والقانون وفيها التربية الاسلامية. والذي يبقى بارزا في فكره هو هذا الوضوح في الموقف أمام الجاهلية ورفضها والاعتزاز بالاسلام والايمان بأنه رسالة الله الخالدة التي تنقذ الانسانية من ظلمات الشرك والعنف. نورد فيما يلي شهادة رجل نحبه على بعد مسافة وهو أكثر منا خبرة بما يجري في ميدان الدعوة إلى الاسلام. يقول أبو الحسن الندوي¹:

"وقد توفرت لمؤسسها (الجماعة) الاستاذ أبي الأعلى المودودي صفات عديدة ترشحه للزعامة الفكرية في شبه قارة الهند. منها: صفاء الفكر والاطلاع على مناهج الفكرة الحديثة، والثقة بفضل التعاليم الاسلامية وجدراتها للبقاء والانتشار، والاعتداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعة، والقلم البليغ السيل، والأسلوب القوي الدافق. وقد كان لبحوثه العلمية التي كتبها في الهند التي كان يتكلم فيها عن مستوى عال وقوة وثقة، ولمقالاته ورسائله ذوي عظيم في الأوساط الاسلامية التي كانت تعاني قلقا فكريا، وكانت في دور

¹ كتابه "الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية" ص 114.

انتقال، وجلبت إليه عددا عظيما من عشاق الفكرة الاسلامية وهواة
المجد الاسلامي، تكون بهم جهاز الجماعة الاسلامية الأول، وانتقلت
القيادة بطبيعة الحال إلى باكستان على العمل الاسلامي الجديد
الناهض، وخاضت في السياسة واكتوت بنارها وأباحت لنفسها
استخدام الأساليب والمناهج السياسية والجمهورية للوصول إل الحكم،
التي شددت عليها النكير وكانت تعتبرها الشعارات الجاهلية والحكم
بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت، وسمت ذلك "الحكمة العملية"
التي تقبل التغيير والمرونة. وهناك دب الخلاف في صفوف الجماعة،
وانشق عنها بعض كبار المسؤولين والذين كانوا في طليعة الدعوة
وفي مركز التوجيه"

ويريد الندوى أن يرجع أبو الأعلى إلى قلمه وكتبه، ويعتبر ذلك
أنجح للدعوة وأنجح لمساعيها، وهنا نلمس العقبة الكؤود التي عرقلت
الدعوات الاسلامية المعاصرة. فالأخوان المسلمون تكاثر عددهم
بسرعة ولم تسمح بالتربية اللازمة لكل فرد، فطغت العقلية السياسية
على السمات الاسلامي والتؤدة الاسلامية، وانحرف البعض عن
الاقتصاد، وهكذا وقع لجماعة المودودس. غير أن أي جماعة إسلامية
مخلصة إنما يكون هدفها الأعلى أن يعبد الله في الأرض ون تبلغ
رسالة الاسلام البر والبحر. ولم يتح للمودودي وجماعته أية وسيلة
أخرى للعمل إلا المزاحمة في السوق السياسية بالوسائل الجمهورية.
فهل يعد هذا نزولا عن الهمة العليا؟ قد يقول قائل: إن الجماعة لو

انتصرت في الانتخاب وحكمت لن تستطيع أن تغير الناس من جهالتهم ووتنقلهم إلى الاسلام والحياة الاسلامية بالضغط. وثم معارضة ستحارب الاسلام بحث النظام الجمهوري الليبرالي، فكيف يصح أن تعرض الدعوة للمهاترات السوقية؟ هذا حق، وما فعله المودودي إنما فعله حيث لم ير مخرجا غيره، وله اجتهاده في أن مشاركة الجماعة بهذا الشكل في العمل حكمة عملية ومرونة.

ونحن نعرض هذا على منهاجنا، فنجد أن نقطة الانطلاق، وهي صحبة الولي العارف المؤيد الموفق وحدها، تمكن بما يصحبها من نورانية سماها أعداء الأنبياء والأولياء سحرا، من تحويل أمة بكاملها بما يشبه الموجة العميقة التي لا تقاوم. وان حيوية الإخوان المسلمين، بفصل صحبة الشيخ البناء، شيء آخر غير العمل الجهادي المنظم في صفوف أبي الأعلى. وفي تاريخنا الحديث ظهرت أيضا حيوية الدعوة المؤيدة الصوفية عند السادة السنوسيين، ولقد أخرجت زواياهم علماء ورجال دعوة أدخلوا الاسلام إلى جل أنحاء افريقيا، وأخرجت زواياهم مجاهدين من أمثال عمر المختار.

وعلى أي حال فالدعوة الاسلامية لا تكون تامة إلا بتجديدها بما كان عليه النبي وصحبه: وهو الصحبة أولا وأساسا والمبايعة والجماعة، وما يجيء بعد هذا بالتربية من التزام للسمت الاسلامي والتؤدة والاقتصاد. والدخول مع الرجس في مزاحمة نزول في نظرنا عن السمت والهمة العليا. وما كانت معاهدة رسول الله صلى الله عليه

وسلم ليهود يثريب حين نزل بدارهم حيا داعي السميت الاسلامي، لأن اليهود بقوا أمة وحدهم، لا صلة لهم بحياة المسلمين إلا مجابهة للعدو المشترك واحتراما للحقوق من الجانبين. أما تحويل الدعوة تحزبا يشبه تحزبا جاهليا عصبيا فهو اعتراف ضمني بمشروعية الأنظمة السياسية في دار الاسلام، وجازى الله أبا الأعلى عن جهاده واجتهاده أفضل الجزاء.

إن هذا السيد الكريم يرى أن انبعاث الاسلام يبدأ بإذكاء الطاقة الروحية بين المسلمين. يقول تحت عنوان: "الاستعداد الروحي"¹.
"ولكن العالم الاسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها أوربا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوربا كل يوم إفلاسها فيها، وينتصر بالايمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة و الحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله وهو الجرثومة التي انبت حولها جماعة الاستاذ المودودي جرثومة فكرية محضة، فالصحة عنده صحة فكرية وإن كان هذا الفكر يدعو إلى تزكية روحية وسمو روعي وربط للعلاقات بالله كما يفصل ذلك كتاب الاستاذ المترجم إلى العربية بعنوان: "تذكرة دعاة الاسلام".

¹ كتابه " ماذا خسر العالم بالخطا المسلمين " الطبعة السابعة ص 270.

وفي بلاد شبه الجزيرة الهندية بلاد السادة الصوفية، أهل الصحبة والروحانية العالية، يجد السيد المودودي من بين أصحابه من يقتشد هذه الروحانية فلا يجدها، وكأن هذا الاعتراض الذي نجد قصته تحت قلم الاستاذ ينبئ عن موقف تجاه الصحبة الصوفية أكثر وضوحاً مما تبديه الكتب. نورد فيما يلي نقاشاً حول الروحانية المفتقدة، ونتأمل جواب الاستاذ عنها ودفاعه بن أعماله وأقواله طبق للكتاب والسنة. وكان الاستاذ عندما يؤكد ذلك ينفي أن يكون للصحبة الروحية مكان في التربية الإسلامية يقول في كتابه المترجم بعنوان: "الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية"¹:

" وكذلك قد بلغني أن من الناس من يرون أن الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه "بالروحانية" على حين أنهم لا يكادون يحددون بأنفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى. ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير إليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية إلى الزوايا. والذي تتم عنه هذه الأفكار والآراء ضرورية. أنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا لهذا الغرض من الجهود المتتابة. وها قد بينت² لكم أنفاً "الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان"، فإن كنتم ترون في هذه الكلمة شيئاً اختلقته من تلقاء

¹ الكتاب المذكور، بلا تاريخ ص 68، ترجمة السيد مسعود الندوي.

² الأمر اذن لا يعد والبيان العقلي !

نفسى معرضا عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، فلكم أن تنبهوني عليه وتهدوني إلى الصواب في أمره. وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الأربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة، فتفكروا هل يمكن أن توجد تلك الروحانية التي أنتم في صدد البحث عنها في أماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين ولم تتأصل جذور التقوى والإحسان؟¹.

أبو الحسن الندوي: هو من رجال القلم والدعوة إلى الله، رجل صوفي عاشر أهل الله حتى استنار قلبه وأشرق فيه محبة الله ورسوله ومحبة الخير لهذه الأمة. كتبه الكثيرة تنبئ عن اهتمام بمنابع الروحانية الإسلامية وحركة الدعوة في ماضيها الوضاح وفعاليتها الممكنة في حياة الأمة الحاضرة والمستقبل.

تجد عند السيد الندوي لهجا بذكر الرسول ومحبتة، وتمسكا بالمنهاج النبوي، منهاج الصحبة والذكر والتؤدة والسمت، لذلك لا يكتف ولوعه بالسادة الصوفية ولا إعجابه بالشاعر الصوفي شاعر المحبة الإسلامية والمجد الإسلامي والشوق إلى الآفاق الروحية العليا السيد إقبال.

لا نعثر فيما كتب السيد الندوي على ما يدل أن للرجل ممارسة ومعاونة لبناء الجماعة كما نجد عند أمثال السيد المودودي أو عند كتاب الإخوان المسلمين كالسيد البهي الخولي صاحب كتاب: "تذكرة

¹ في كلام الاستاذ تحامل على الزوايا، وكأنه ما عرف إلا نوع المتصوفة المرتزقة ولو بحث كما بحث السيد أبو الحسن الندوي لوجد الصادقين أهل التقوى والإحسان.

الدعاة". والسبب في ذلك أن العالم الفاضل أمين ندوة العلماء بالهند يعيش تحت دولة مجوسية لاتقبل التجمعات خاصة التجمعات الاسلامية¹. ومنهاج الندوة في العمل، والندوة تتكون من علماء أصحاب ميول الصوفية، يعتمد على بناء المدارس الدينية ونشر الدعوة بين المسلمين وغيرهم. ولهذا كان رأي السيد أبي الحسن ألا تستقل باكستان عن الهند وأن يمكث المسلمون كتلة واحدة وسط الدولة المجوسية يبثون دعوتهم. وكأنه رضي الله عنه عندما أبدى ذلك الرأي منذ زمن بعيد وقبل قيام باكستان كان ينظر إلى ما آلت إليه الأمور.

ومن أهم كتب السيد الندوي كتابه "ربانية لا رهبانية"، خصصه للحديث عن التزكية الروحية وعن المومنين المحسنين المسمون صوفية. وكان عنوان الكتاب يشير إلى الانحرافات الرهبانية التي ابتليت بها الطوائف المتصوفة المحترفين. وفي هذا الكتاب يعقد السيد الجليل فصلا عن حياة شيخ الاسلام ابن تيمية، ويذكر محاسن هذا الرجل العظيم ويشيد بفضله. وهذا وحده كاف لمعرفة قيمة أبي الحسن وفضله، فقد درج بعض المتصوفة على ثلب كل من عارض أو انتقد سلوك بعض الصوفية، وينهشون عرض شيخ الاسلام ويكفرونه لأنه ناقش الغزالي وابن عربي، ونقاشه كاف، في نظر الأعمار، ليغطي فضل عالم جليل وفحل من فحول المسلمين.

¹ لا سيما بعد عداتها للسافر للمسلمين الباكستانيين بعد أن ولغت في دمائهم وقرقت شملهم.

هذه نبذ من كتاب "ربانية لا رهبانية" تعطينا صورة عن فكر الندوي وعمق إدراكه للمنهاج النبوي منهاج الصحبة والذكر؛ يقول عن كمال الدين بالتزكية الروحية التي يحققها منهاج النبوي¹:

"فالتزكية والاحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يقربها المسلمون جميعا، ولو ترك "المتصوفون" اللاحاح على منهاج علمي خاص لوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية أو الاحسان أو فقه الباطن، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على "الغاية" دون "الوسائل"، لم يختلف في هذه القضية اثنان ولم ينتطح فيها عنزان، وخضع الجميع وأقروا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الاسلام يحسن أن نعبر عنه بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، وأقروا بأنها روح الشريعة ولب لباب الدين وحاجة الحياة، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية، ولا لذة - المعنى الحقيقي - في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة".

ويذكر السيد الندوي شيخه فيسرد قصة حياته، وينتهي إلى اكتشاف منهاج النبوي الذي من شأنه وحده أن يحيي موات الأمة.

قال²:

¹ الكتاب المذكور، البعة الثانية، ص : 14.

² المصدر المذكور، ص : 44.

" وأن أكبر واجب ومهمة في هذا العصر هو إحياء الإخلاص والأخلاق وتجديدهما. وأكثر وسيلة للحصول عليهما هو الحب. والطريق إلى الحب الذكر والصحبة وعشرة عباد الله الصالحين والعارفين".

وهذا ما فعله الندوي، فقد صحب العارفين والتمس بركاتهم، ولا غرو فهو يذكر ان زالده وجده كانا أصحاب زاوية، فالدر يخرج من معدنه. قال بعد أن ذكر دراسته لحياة العارفين، وفي كتابه نماذج منها ومن جهاد الصوفية وفاعليتهم في التاريخ¹:

" لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على رغبة صادقة في الاجتماع بأمثال هؤلاء، والبحث عنهم، انتهت بي إلى الوصول الى بعضهم الذين كان لهم فضل كبير في منهج الحياة الذي أثرته أخيراً، وأحب البقاء عليه .

"أتاني هواها أن أعرف الهوى
فصادف قلباً فارغاً
فتمكنا "

وما هو منهج الحياة الذي أثره أن يبقى عليه الندوي؟ إن المنهاج النبوي منهاج الصحبة والذكر والتؤدة والسمت والاقتصاد يصفه لنا من عاشره وعرفه، وهو الاستاذ أحمد الشرباصي، فيقول في مقدمته لكتاب الندوي الأكثر ذيوعا وهو "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين":

¹ المصدر السابق، ص : 146 .

"وأخي أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة، ولا يقيم المال وزنا في حياته، وثقته بربه فوق كل شيء، ومثابرتة على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال، واخلاصه العميق سر نجاحه بينما يشغل الآخرون".

وحيث يرى المودودي أن جدور التقوى والاحسان لم تتأصل يرى الندوي منارات للإسلام والجهاد والتقوى والإيمان. ذاك ينكر على الزوايا أن يتحقق فيها أية روحانية، وهذا يؤكد أن الإسلام ما ثبت على الزمان إلا بوجود هذه الزوايا، ولعل الأمر راجع إلى تجربة الرجلين المتباينة، ولعل المودودي رجل الفكر والمجاهدة لم يتعرف إلا على متصوفة سطحيين، ولعله لم يحب أن يتعرف على شيء مجهول عنده مفر بما سرى في صفوف أصحابه من بدع وشعوذة. يقول الندوي عن هذه الزوايا الصوفية¹:

"وكانت نتيجة ذلك (تأسيس الزوايا وتنظيم التعليم والتربية الروحية بها) أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدو بلسما لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم. إن حجر عطفهم وحبهم كان مفتوحا لكل من هجره المجتمع أو الأسرة أو تنكر له الحظ وأدبرت عنه السعادة. إن هؤلاء الذيم لم يقبلهم أبناء أسرهم أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى هؤلاء الصوفية والمشايخ

¹ كتاب "ربانية لارهبانية" ص: 117.

ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الأحبة".

هنا كلام يصور الزوايا كملاجيء خيرية يدخلها البائسون والمطرودون، فماذا تخرج لنا هذه الزوايا؟ وما هو دورها في حياة الأمة؟ وأية مزية لهذه التربية الروحية الصوفية؟ عن هذا يجيب الندوي فيقول¹:

"ومما يجدر الذكر ويسترعي الانتباه أن تلك القوة المعنوية والروحية، والشخصية القوية الفذة، والإخلاص والربانية، والحنان والعاطفة، والإقدام والشهامة التي نحتاج إليها للتضحية والفداء والإصلاح والفتح والتسخير، لاتنشأ ولا تظهر — في أكثر الأحيان — إلا بعد صفاء الروح وتهذيب النفس، والرياضة والعبادة. ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام كانوا يتمتعون بمكانة روحية سامية.

سرح طرفك في هذه القرون الأخيرة تجد فيها أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، والشيخ محمد أحمد السوداني، وسيدي أحمد الشريف السنوسي، والسيد الإمام أحمد الشهيد الذي كان شيخ ريقة وزعيما روحيا في جانب، ومجاهدا وقائدا مناضلا في جانب آخر.

الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات وتزكية النفس والصلة بالله تنشئ في الإنسان حالة عجيبة من الشوق والوجد والحب والحنان،

¹ المصدر السابق ص : 120.

تتغلغل في أحشائه وتستقر في أعماقه، حتى تراه ينشد بلسان حاله ويقول:

" إني لا أملك شيئاً أفديك به إلا هذه الحياة التي اعترتني إياها، فهي منك وإليك ومن فيضك وفضلك".

فنهاية المطاف في هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل هي حب الشهادة، والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هي الجهاد".

يقف فكر السيد الندوي ودعوته موقفاً مباشراً إزاء مشكلة الإنسان في كل زمان. يقف مع المنهاج النبوي الذي يغير الإنسان ويرجعه إلى الفطرة ويسمو بروحانيته فيهيئه للتضحية والبذل ويجعل منه خلقاً آخر غير هذا الإنسان العاط من روحانيته الشقي بأنظمته وحضارته.

وإذ تجد المودودي يدعو إلى جهاد فكري يرمي لوصف النموذج الإسلامي المنشود وما يتيح من حلول اجتماعية واقتصادية، ويرمي لتربية فكرية وتزكية بالمجاهدة دون الصحبة، يظهر لك الفرق واضحاً بين المنهاج النبوي الذي يأخذ الإنسان أخذاً مباشراً كلياً شمولياً من جميع نواحيه، وبين التناول الفكري الذي يجزيء الإنسان ويمسك في سبيل تغييره طريق التبشير بالمذهب الاقتصادي والاجتماعي والنموذجي. وإزاء فكر المرحوم سيد قطب المستعلى على الجاهلية لكن المعرض عن المشاكل الزمنية لأن قيام دولة الإسلام ستمحوها بمجرد ظهورها، يردك الندوي إلى الاعتبار الأساسي، إلى مكن الداء في نفس الإنسان الغافل، ويدبك على السلوك الروحي وعلى المنهاج

النبي. وحيث يلتصق سيد قطب السلطة والحاكمة ينتزعها المومنون، يوميء الندوي إلى الانضباط والقوة النابعين من تربية الإنسان على المنهاج لنبي. مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها. ولا يحتفظ بالبقية منها ولا يغذيها حتى نضب معينها في قلبه. فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان والصبر والثبات، وتحمل الشدائد والنكبات وزلزل بعض الزلازل، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة باهمال هذه القوة الروحية وتضييعها، وبحث في جعبته فلم يجد شيئاً يسد مكانها ويغنى عنها".

يصف الاستاذ الندوي تخاذل المسلمين وانطفاء شعبة شعلة "الحمية الدينية" كما يسميها، والقرآن يسمى الحمية عصبية جاهلية، نشير لمثل هذا لنحاذي اللفظ القرآني والمعنى القرآني. لكن السيد الكريم لا يصف لنا الدواء لاسترجاع هذه القوة المعنوية، لا يعلمنا أن التربية الروحية، أن التركيز بالصحة والجماعة والذكر هي دوائنا، إنما يرى العلاج في دعوة حرة متناثرة، وهو معذور فليس ينتمي لجماعة، وإذن فلن يعلم كيف يكون بناء جماعة الدعوة ولن يعلم صعوبة بنائها وضرورة المبايعة كما يعلم المودودي.

يقول الاستاذ الكريم العزيز علينا: يخاطب المسلمين، ويكشف بذلك عن مذهبه في الدعوة¹

" فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته (لاحظ أنه لايفرق بين الجمعية والجماعة) وهيآته الدينية وللدول الاسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج نشر الدعوة الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعا، وتستعمل لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسه كتب السيرة وأخبار الصحابة، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الاسلام وشهداءه، ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الاسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلنا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فنية ملتهبة حماسة وغيره وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة".

¹ نفس المصدر ص : 281.

لنمر مر الكرام على عبارات: نار، وأبطال، وملتهبة، وحنق وسخط، فإن كل هذه المعاني أجنبية عن فكرنا. نحن نشد النور والجهاد والتؤدة ولا الحنق، والرحمة الفعالة لا السخط المدمر.

يقول السيد الجليل إن مخرجنا من الورطة هو الدعوة الإسلامية الأولى. ويتحدث عن القرآن وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم. لكنه لا يفسر لنا منهاج الدعوة الأولى ويعلمنا كيف نوتي الإيمان قبل أن تخشع قلوبنا لذكر الله وتطهر لتكون وعاء للقرآن وبعدد وسائل الدعوة، ونحن نوافقه على استعمال هذه الوسائل. ويبقى الرجل مع الوعظ والارشاد "والهَاب" العاطفة بالخطب والتأليف. والتربية الإسلامية الجادة لاتعتمد على العاطفة الحماسية، بل تحذر منها أشد الحذر، إنما يربي الإسلام على الصبر البعيد المدى وعلى مراقبة الله وذكره ذكر خيره وجزائه في كل طرفة عين.

ولنا لقاء مع الأستاذ السيد في إيمانه بأن الاسلام لن ينبعث إلا بقيادة جهادية تساند الدعوة وتحمل أعباءها. إن كان السيد الندوي لا يخبرنا بمكان الصحبة والمبايعة والجماعة والذكر، فإنه ينتظر كما ننتظر ظهور قيادة عمرية تستجيب لدعوة وتجدد للمسلمين حياتهم.

يقول السيد (1) بعنوان: "الفراغ الأكبر والعقري المطلوب": إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الاسلامي هو وجود ذلك العقري (هكذا) العصامي (ونقف عند كلمة عصامي لأن نفس عصام سودت عصاما. العصامي يكون نفسه ويربيها. وهذا لا يكون أبدا. ولن يخرج

للمسلمين منقد كون نفسه خارج صحبة رجال الدعوة الصادقين) الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقا خاصا بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، طريقا يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة، وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، متمسكا بالحقائق وأسباب القوة، وبالباب دون القشور.

العسكري العصامي الذي يشق له ولبلاده وأمته طريقا مبتكرا يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الأنبياء والرسل والدين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم... العسكري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية - بعلمها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها - كمواد خام، يصوع منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والانتاج والرفاهية وحب الابتكار في حب جانب آخر. ولا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يوخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علته، إنما يأخذها كأجزاء، يختار منها ما يشاء، ويركب منها جهازا يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ونظرة خاصة إلى الدنيا، وسلوك خاص لبني النوع، وسعي خاص للآخرة، وجهاد دائم "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله"...

هذا هو العبقرى العصامى الذى لا يزال مفقودا فى صفوف القادة والزعماء فى العالم الاسلامى على كثرتهم وتنوعهم، وهذا هو العملاق حقا الذى يبدو فى جانبه القادة المقلدون المطبقون صغارا متواضعين كالأقزام... وانها أعظم تجربة وأبعدها أثرا. ليس فى محيط العالم الاسلامى فحسب، بل فى محيط العالم وفى محيط الانسانية كلها. وان التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها فى الأقطار الاسلامية والعربية، ممسك قلبه ليسطر له سطور الثناء والاجلال، ويقلده الزعامة الحقيقية، ومركز التجديد فى العالم الاسلامى، والعبقرية والعصامية فى التاريخ الانسانى".

ما أحسن كلامك يا أبا الحسن، ونحن نسأل الله معك أن يبعث فىنا رجلا على النموذج الذى ذكرت. لكنه لن ياتينا أبدا إلا من صحبة سنية، لن ياتينا إلا من الأفق الذى برز منه عمر ابن عبد العزيز، وصلاح الدين، وابن تاشفين، كلهم جدد الدين وأنقذ المسلمين، وكان لكل منهم صحبة وهمة وتربية على يد أولياء الله أهل الله رجال الدعوة الصادقين. إذا كانت العبقرية والعصامية فى عبارتك تعنى الابتكار فى الميدان الجهادى والاجتهاد فى عويزات مشاكل الأمة المفتونة فنعم. وحياك الله يا أبا الحسن.

سيد قطب: مفخرة من مفاخر الفكر الاسلامى، وعلم من أعلام الأمة وأئمتها، حباه الله بكرامة الشهادة فى سبيله، وساق على يده علما غزيرا فياضا. له ديباجة مشرقة وبيانا أخاذا، مضافا إلى ذلك

صولة الأسد الهادر وثقة المؤمن المستقتل، وصوته رحمه الله ورضي عنه أبلغ الأصوات وأبعدها صدى في كشف عورات الجاهلية وجلو النورانية الإسلامية وعزة المومنين بالله ورسوله. كان رحمه الله كاتباً مرموقاً، فلما أكرمه الله بصحبة الشيخ الجليل سيدي حسن البناء اكتمل نضجه وعلا نجمه. وخلف على رأس الاخوان المسلمين، بعد نكباتهم وخيبة آمالهم بعد موت البناء وما تلا ذلك من انشقاق في الصف لضعف القيادة، نقول نحن لموت المصحوب المتبوع النوراني، خلف القائد الصديق على رأس الاخوان المسلمين، ونطق بالحق كما يعتقد، وكان صريحا تبلغ صراحته العنف والمجاهرة بالعداء للحكام الجاهلين في عرفه، المفتونين في فكرنا.

و استمات هذا الرجل العظيم حتى قتلوه، وبقيت كتبه سلوة للمومنين، وعبرة لرجال الدعوة ومثالا. ونحن اذ نعترض لفكر سيد قطب نخبره ونستنطق سطورَه نجد انه خير من بحث عن المنهج النبوي، عاشر اكثر من عشرين سنة يتدبر القرآن والسنة، وخرج من تاملاته بضلال القرآن، وبكتابه الذي من اجله قتل "معاليم في الطريق". في هذين الكتابين وفي كتبه الاخرى الكثيرة نجد رؤية الاسلام صافية متعارضة تعارضا تاما مع ظلام الجاهلية، وينشد الرجل مفاصلة بين المسلم ومن ليس على هديه من اهله وعشيرته، ويحب القوة في الدين والصراحة وحمل الرسالة بشجاعة وايمان. ثم انهمع كل هذا، و مع بحثه الطويل العميق عن المنهج، لا يتحدث الا قليلا عن

الصحبة، عن هذه الطاقة النورانية التي تقتبس من المصحوب التبوع و
تقلب عقل المرید صاحب ووجهته. ولا یذكر هذا السيد المبارک
المبايعة الا في سياق الظلال ولا یبرزها كعامل اساسي لبناء الجماعة. ثم
انه يتحدث عن المجتمع الاسلامي الذي لا وجود له اليوم، ولا یميز بين
المجتمع والجماعة. ولعله رحمه الله نسي ایضا ان الذکر وعهده
باستاده البناء قریب. و البناء ما بنى جماعته الا بالمنهاج النبوي،
بالصحبة والمبايعة والذکر.

الصراحة والقوة ومنازمة الجاهلية والحاكمية الإنسانية حاکمية
الطاغوت، هذه المواضيع الرئيسية في فکر سيد قطب. وهو إذ يعرض
فكره بالبيان الناصع والوضوح التام یاخذ بلب القارئ وعاطفته. ولعله
رحمه الله حسب أن الفكر یغني عن الصحبة السينة التي سموها
صوفية. وليس الأمر كذلك، فإن الموعظة البالغة البليغة، إن أثرت في
السامع أو القارئ فإنما تذكي حماسا عابرا، ولا تحقق ایمانا ولا تبني
جماعة. لنستمع إلى الكاتب البلیغ والقلب الكبير یعبر عن قوة الدعوة
وعزة المومنین. یقول¹:

" لن نتدسس اليهم بالاسلام تدسسا. ولن نربت على شهواتهم
وتصوراتهم المنحرفة ... سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة ...
هذه الجاهلية التي أنتم فیها (ونحن نقول: الفتنة) نجس والله یرید أن
یطهرکم ... هذه الأوضاع التي أنتم فیها خبث والله یرید أن یطیبکم ...

¹ كتابه "معالم في الطريق" الطبعة المغربية ص 202.

هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم ... والاسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تتكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها، وإلى أوضاع أخرى تحتقرون معها أوضاعكم في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى قيم أخرى تشمئزون معها من قيمكم السائدة في الأرض جميعا... وإذا كنتم، لشقوتكم، لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية، لأن أعداءكم — أعداء الدين — يتكثرون للحيلولة دون قيام هذه الحياة، ودون تجسد هذه الصورة، فنحن قد رأيناها — والحمد لله — ممثلة في ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا المبدع للمستقبل الذي لا نشك في مجيئه...

ونقرأ فيما يلي نظرة الرجل في الحاكمية، والقبض على زمامها، حقا لا يرد، متى قامت في البلد جماعة اسلامية. ولا يحدثنا رحمه الله عن الأسلوب، ويزكرنا كلامه بالخطبة الشهيرة التي سبق أن أشرنا إليها ونقلنا منها كلمات متوعة فاه بها الشيخ البناء في المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين. ومن كل هذا يبقى الأمر مبهما فيما يرجع إلى وسائل اثبات الاسلام في الأرض، ومن خلال هذه الفجوات يبرز وجه العنف وتدبر الأيدي المسلحة غير المسؤولة فتنه، ولست أدري هل قرأ البناء وقطب السيدان الجليلان باب الفتن من كتب السنة وهل وقفوا على أمر الرسول القاطع بالسمع والطاعة للأمير ولو جار ما أقام الصلاة، وعلى أمره صلى الله عليه وسلم بالرفق ونبذ العنف،

لست أدري ويحز في قلبي وقلب كل مسلم نكبة الاخوان، وقد كانت حركتهم أقوى وأعظم وأوسع حركة عرفها المسلمون منذ قرون وقرون. ويعطي الله على الرفق ما لا يعطي على العنف، صدقت يا مولانا يا رسول الله.

يقول سيد قطب¹:

" فالاسلام منهج الله للحياة البشرية. وهو منهج يقوم على أفراد الله وحده بالالوهية – متمثلة في الحاكمية – وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية. فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمر موكل إلى حرية الاقتناع في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات (ونزيد نحن: مع استثناء المرتدين فهؤلاء حكمهم الاستتابة وإلايتوبوا يقتلوا حدا وكفرا كما يقول الفقهاء). ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الاسلامي (ولعله رحمه الله يقصد الجماعة الإسلامية) الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لنسلم السلطان وتقرير النظام. مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لامسألة مبدأ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص

¹ نفس المصدر ص : 108.

القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة؛ ولا نخلط بين دلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل.

وحين يتحدث رحمه الله عن أصل الرسالة الإسلامية الغيبي، فإنه يتخطى شخص الرسول الذي تتجمع فيه القوى الغيبية بالعمل الإنساني، ومن شخصه صلى الله عليه وسلم يستقي الإيمان وتوخذ القوة. يقول¹:

" والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري، إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر، تنشيء لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات، وتحدد لهم منهاجا للعمل يترجم هذا التصور. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون، إنها — كما قلنا — آتية لهم من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري، وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه. إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي.

وبهذا العنصر الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب له حسابه، ودون أن يكون للإنسان يد فيه — في ابتداء الأمر — تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي. ويبدأ معها عمل "الإنسان" أيضا، إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر

¹ نفس المصدر ص : 154.

الغيبى، الجارية بقدر الله وحده. وحين يؤمن هذا الانسان الواحد بهذه العقيدة (وفاته أن هذا الانسان ليس كالناس فهو نبي رسول معصوم، بشر لا كالbشر، مؤيد من الله بالوحي والمدد الغيبى) يبدأ وجود المجتمع الاسلامى (حكما). ان الانسان لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه، إنه سينطلق بها، هذه طبيعتها، طبيعة الحركة الحية. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزة حتما! إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما. وحين يبلغ المومنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر (هكذا)، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع اسلامى مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلى الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولاتسود فيه قيمها الأساسية — القيم التي أسلفنا الإشارة إليها — وهنا يكون المجتمع الاسلامى قد وجد (فعلا)."

أحب إلينا من عبارات: القوة العليا، وطبيعة الحركة، وتخطي شخص الرسول، كلام أوضح بلفظ قرآنى نبوى. ويرحمك الله يا سيد قطب فقد جاهدت وأبليت في جهادك البلاء الحسن.

التلفيق الحضارى: من بين كتابنا المسلمين المعاصرين رجل أكثر تحمل كتبه عناوين اسلامية، ويقبل على قراءته الشباب المتعطشون للإسلام. هو مالك بن نبي مؤلف كتاب "فكرة الافريقية الآسيوية" غداة مؤتمر باندونغ، وكتاب "كومولث إسلامى" وكتاب "وجهة العالم الاسلامى" وكثير غيرها. وكل من ينتمى إلى الاسلام ويدين بدين الله

فهو أخونا، وكل من نصح الله ورسوله والمؤمنين ونقع الأمة بعلمه وعمله فهو سيدنا وحبیبنا. بيد أننا نحب الوضوح ونحب أن تسیر الدعوة الإسلامية على بصيرة من أمرها. والأستاذ مالك بن نبي طالب حضارة وثقافة، كما يعتبرف بنفسه وكما يدل على ذلك العنوان المشترك لدراساته وهو: "مشكلات الحضارة"، وليس طالب اسلام ولا رجل دعوة. ويظلمه بعض اخواننا، كالأستاذ غازي التوبة في كتابه "الفكر الإسلامي المعاصر" إذ يعده من رجال الدعوة والاصلاح ويقرنه بالامام الشيخ محمد عبده. ولو أن غازي التوبة وقف في المقارنة عند ضعف عبده ومالك أمام تحدي الجاهلية لهان الأمر، لكنه يذهب في المقارنة بعيدا ويظلم بذلك الرجلين. فعبدہ رحمہ اللہ عاش في غبش الليل المظلم الذي خيم على المسلمين قرونا، وكان له الفضل في النهضة الإسلامية، لا يضره، إن شاء الله، أن يلتمس الصلح مع الجاهلية العاتية وأن يرد الغيب الواجب الايمان به إلى تفسيرات لا يكرها العقل، كما فعل عندما رد الجن إلى جراثيم الأمراض التي كشف عنها معاصره باستور. أما مالك فرجل سياسة وفكر وحضارة وثقافة، يصلي الله ويصوم ويعلم اسلامه، وهذا شيء كثير جدا، لكنه لا يميز واقعين متميزين واقع جاهلي ظلماني وواقع اسلامي نوراني، في التاريخ الأول أو التاريخ المستقبل.

صفق السيد مالك بن نبي لمؤتمر باندونج، وهب ليكون منظر العالم الثالث، وأهدى كتابه لبطل العروبة. ودعا في كتابه إلى مزج

حضارات العالم الثالث على محور طنجة - جاكارتا مارا بالهند،
وتركيب حضارة اسلامية - هندوسية. هاك ما يقول:¹

"ومن ناحية أخرى، فإن الاتصال في تركيب فكرة الإفريسيوية لا
يمكن أن يتحقق إلا باتصال الفكر الإسلامي بالفكرة الهندوسية بواسطة
الحوار والمواجهة. ومن هذا الاتصال نستطيع أن نقدح شرارة تركيب
الفكر الإفريسيوي التي يستطيع كل بلد، من طنجة إلى جاكارتا، أن
يتعرف فيه على جزء من عبقريته الخاصة، وأما من الناحية الثالثة
فالالاتصال يهدف أساسا إلى تحقيق العالمية عما بينا، أما من الوجهة
التربوية فإن مشكلة الاتصال تواجهنا بمشكلة توجيه التعليم، وهنا
يجب على القادة المسلمين أن يفتحوا عقولهم أكثر للقيم الثقافية في
الهند والعالم".

أظن ان في هذا ما يكفي لتصنيف الرجل، فإن كان متمسكا
بإسلامه الفردي فمرحى وحيهلا، أما فهم الاسلام وتفهميه والحديث
عنه، فالفقرة السالفة والتزلف إلى البطل السفاك قاتل علماء المسلمين
ومشردهم نقط سلبية حاسمة في حكمنا على الرجل.
ولكي لا نغمت الرجل حقه، نتركه يتحدث عن كتبه والغايات التي
من أجلها ألفها. يقول:²

¹ " فكرة الافريقية الاسيوية" الطبعة الأولى ص 276.

² مجلة "الفكر الاسلامي" تموز 1971 ص: 9

" كتبي كلها بعناوينها المختلفة أدرجت تحت عنوان عام، هو "مشكلات الحضارة"، لأن المجتمع الإسلامي، لا يعاني عندما تحل به أزمة سوى مشكلة واحدة، هي مشكلة حضارته في طور من أطوارها يتلاءم أو لا يتلاءم مع ضرورات الحياة. فعندما يتحقق شرط الانسجام تكون الحضارة مزدهرة، فيكون المجتمع بمثابة العقل السليم في الجسم السليم، وإن لم يتحقق هذا الانسجام تحل بالمجتمع في هذا الطور من أطوار حضارته كل المحن التي يعاني تحت أسماء مختلفة، من استعمار إلى جهل إلى فقر الخ، بينما هي في الحقيقة كلها أعراض لمرض واحد هو فقدان الحضارة، إذن فكتبي أردت أن أخصصها من ناحية لدراسة أعراض هذا المرض ومن ناحية أخرى إلى تقييد طرق علاجها".

مرضنا في رأي الرجل هو فقدان الحضارة، ويوصي بتغيير الإنسان لهدف واحد: الحضارة! هذا واضح كل الوضوح، والانسجام المتحدث عنه هو انسجام بين الإنسان والزمن والتراب كما يفسر مالك في كتبه، ويسمى ذلك معادلة حضارية. إنه طالب حضارة لاحامل رسالة. وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقول فقهاؤنا. ويعز علينا أن نرجع الحق إلى نصابه مخافة أن نمس من يحب الاسلام، لكن الحق أحق أن يبتع، والمسلمون لن تقوم لهم قائمة إت غاصوا في بحر الظلمات بحر الثقافة الجاهلية والحضارة الجاهلية يبغون عندها النموذج والمثال. الإسلام دين الله جاءنا به رسله عليهم السلام ليخرجونا من الظلمات

إلى النور، ليحولونا من مستوى "الدوابية" اللاصقة بالأرض إلى قيمة الإنسان المكرم عند الله المعد للآخرة ونعيمها أو سعيها. وإنما تأتي الحضارة والثقافة بناء حتميا وتعبيرا عن واقع حياة الإنسان. وحضارة وثقافة الجماعة المومنة المنبثقة عن الضمير النظيف والقلب النير والايمان والبذل والسمت والتؤدة والاقتصاد النبوية، شيء غير حضارة الجاهلية وثقافتها، وزنيمة هي حضارة ملفقة، وماذا نسمي الفكر الذي لا يكمل إلا بتفتحه على ثقافة مجوسية¹؟ ويحكم يا قوم! ويحنا والله وكيلنا!.

الدرس: آثرنا أن نعرض لأمثال السيد مالك بن نبي نصيحة وتحذيرا لشبابنا الباحثين عن إسلامهم، وتركنا الحديث عن مفكرين مسلمين ذوي أصالة، من علمائنا الأجلاء، وشبابنا المومن مكتفين برجال الدعوة البارزين. ونود الآن أن نتعلم من المقارنة بين فكر وعمل هؤلاء الرجال وبين المنهاج النبوي كما رتبناه في الخصال العشر. نحن عند أنفسنا أحقر من أن نطاول الرجال المجاهدين وإنما نتعلم منهم، ومن خلال نظرتهم، مواقع الحكمة، وليس معنا والله إلا ما فتح الله لنا في قرآنه وكلام نبيه حبيبنا صلى الله عليه وسلم، فمنهما نستقي نطلب الله أن يجلو لنا الحق وإلينا ومنا الخطأ، ومن ربنا الكريم التوفيق.

¹ انظر جواب المرحوم سيد قطب على مالك واعتراض هذا عليه: "فكرة الافريقية الآسيوية" طبعة أول ص 393 وكتاب "معالم في الطريق" الطبعة المغربية ص 141.

1) الصحبة والجماعة: الستاذ الكريم أبو الحسن الندوي رجل قلم ومنبر، يبدو من كتبه وخطبه ومقالاته أنه لم يعان صعوبات تكوين الجماعة في نفسه صحبة صوفية فهو يكتمها، ويرسل قارئه حياة الصحابة وتاريخ المسلمين. وقد قدم الكتاب "حياة الصحابة" للمرحوم الشيخ محمد يوسف مؤسس جماعة رجال التبليغ، وله بالجماعة واستاذها إعجاب لتمسكهم بالسنة تمسكا فريدا. وأشار لضرورة الصحبة بقوله : " ولم يزل ولا يزال الدين يوجد من الاحياء، ويقوم بالاحياء. ولم يكن الانسان في دور من الادوار فبينا عن القدوة والصحبة¹.

أما السيد المودودي فصحبته صحبة فكر أولا وأساسيا، على فكر اسلامي مرتبط بالمنابع ارتباطا وثيقا. وتجده يعبر عن روابط الجماعة وعن الاسلام بالقومية الفكرية. فالاسلام عنده قومية فكرية، ولست أدري ايعتقد الاستاذ أن هذه القومية، ككل القوميات، تقتضي عصبية ورفضاً للأجنبي الخارج عن الفكرة التي يدعو إليها. والنقطة الايجابية عنده هي أن لا عمل الا بمبايعة. لذلك التمس شمل جماعته رغم وقوفه واباهم في فهم الصحبة على انها صحبة فكر. وانشاقق الجماعة وما طرأ عليها من تغيرات تشير الى ضعف في التكوين يرجع الى فقدان نورانية القائد الصوفي.

¹ كتابه رجال الفكر والدعوة في الإسلام الطبعة الثالثة ص 246 .

وبمقارنة هذه الجماعة، التي يعدها الطنطاوي أسمى الجماعات الإسلامية، بتماسك جماعة المسلمين وروحانيتهم العالية وقوتهم يظهر مكان الصلابة والتربية الروحية. عند الشيخ البناء تربية صوفية روحانية هو محورها ومركز قوتها، وعنده نظام جماعي بالمبايعة والضبط العسكري. واذ يشير المودودي على أباة بالتبطل والتكتم والحذر من الصوفية، يضع البناء لجماعته أورادا ووظيفة ومراقبة صوفية، ويسمي حركته صوفية، وحرص المودودي على الطاعة نقطة إجابية أخرى لكنها لا تعوض الصلابة الصوفية .

أما السادة رجال التبليغ فقد كان مؤسس جماعتهم وابنه المرحومان من رجال الله أهل التقوى والاحسان. فصحبتهما رضي الله عنهما أعطت الجماعة قوة على الجهاد وتحملا لا يقدر عليهما إلا من أيداه الله بنصر من عنده. وقد وضع الشيخ إلياس رحمه الله أورادا نبوية لجماعته، وبنى على النذر للخروج في سبيل الله نظاما وضبطا للأعمال والوقت يبلغ في كثير من الأحيان دقة العمل العسكري في حالة الطوارئ.

وبنية الجماعة عند رجال الدعوة المعاصرين تبرز في أكمل صورها عند الإخوان المسلمين. للمريدين درجات يترقى فيها الأخ، ومع كل ترقية واجبات أوسع وطاعة أشمل. ويحث رجال التبليغ على طاعة الأمير طاعة كاملة كما تقضي السنة النبوية. غير أننا لانرى عند هؤلاء السادة الحاحا على تقسيم المراتب، والله الح على ذلك إذ

بعث جبريل عليه السلام ليعلمنا ديننا، ليعلمنا أن الاسلام يرقى بالمسلم إلى الايمان ومن الايمان إلى الاحسان بالعمل والمجاهدة، بالصحة والذكر. ولعل أدعياء التصوف، هؤلاء المتصوفة المحترفون، بما ابتدعوا من طقوس ما أنزل الله بها من سلطان غموا على المسلمين حياة الاسلام الروحية حتى لا يرو صفاء السنة النبوية، والسمة الأولى لاتباع الرسل الأولين وهي الصحة. لهذا وربما أيضا لتفاوت رجال الله في مراتب سلوكهم لاجد أثرا عند جماعاتنا المعاصرة لذكر المعراج الروحي ومعرفة الله تعالى والكمال الذي يكرم الله به عباده. نعم لرجال التبليغ كرامات يومرون بكتمها كما هو الأليق، ويحذر المودودي والبناء من الكشف حتى لا يعتمد عليه الاتباع ولا يقفوا عنده. كل هذا صواب، لكن جانب الغيب وجانب الكمال والاكتمال والسعي إليهما لا أثر له.

جكاة سبقت كانت اقوى بنية وأكثر تمكنا في ميادين التربية العملية والسلوك الصوفي السائر بالمريد لكماله الروحي، هي جماعة الإخوان السنوسيين على عهد الإمام محمد بن علي الشيخ المؤسس حامل السر. وكانت بنية الجماعة تعتمد على تصنيف صوفي: فهناك العامة والخاصة وخاصة الخاصة أو قل بلسان نبوي: مسلمون ومومنون ومحسنون.

وأخاف أن يكون عسيرا على رجال الدعوة في زمان الديمقراطية أن يعترفوا أن في الاسلام طبقة. ولكيلا نضيع مع أوهام الجاهلية

نكرر أن الله تعالى فضل من يخلص له على من لا يخلص وفضل المجاهدين على القاعدين، وكذب الأعراب الذين قالوا آمنا وردهم إلى مرتبتهم مسلمين. ففي الإسلام طبقية أساسها الصفاء والاخلاص والبذل، وأعلاها من يخدم الجماعة ويضحي من أجل نفعها. وهذه الطبقية طبقية خدمة وعمل لاطبقية استغلال واستعلاء، وإنما الرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وقسمته من الله ورسوله. فهذا تفاوت في الجهاد والعمل، ويطلب الرقي في سلم الطبقية الإسلامية من مطلب مصعب من مو الأناية المتكبرة، ومن إقامة الوجه لله تعالى ورعاية عباده وحقوقه.

2 - الذكر: جماعة المودودي وجماعة رجال التبليغ تعتمدان على الأذكار النبوية الفردية، وعند الإخوان المسلمين أذكار جماعية يحث الشيخ رحمه الله عليها ويسميتها وظيفة. ويجعل من الواجبات العشر على الإخوان المسلمين: قراءة الوظيفة وحضور مجالس الذكر. والذكر هو المحور الذي تدور عليه التربية الروحية بعد الصحبة. وبالذكر يتكشف عن البصيرة غواشيها، ويتصل الذكور بالغيب، وبالإيمان بالغيب تنفتح أبواب الهداية بالقرآن.

3 - الصدق: نجاح كل دعوة يتوقف على صدق الداعي، وعلى مقدار صدقه تكون فعالية الصحبة ونزرائيتها. لانعني بالصدق هذه الأخلاق التي تخرج الإنسان من النفاق فقط، وهي قول الصدق والوفاء بالعهد والأمانة، وإنما نقصد الصدق مع الله. ولاشك أن الجماعات التي

نستعرضها أسسها رجال صادقون وإلا لما كتب لها النجاح. وللصدق مع الله درجات ومراتب، ومقام الصديقية العظمى أعلاها، وعلى تفاوت مراتب الرجال في هذا السلم تتفاوت روحانية القيادة وقوتها.

وبالقتاء صدق الطلب مع صدق الدعوة تتكون الجماعة بسماتها الإسلامية، بالولاية بين الله ورسوله والمومنين. وصدق الطلب معناه توجه الهمة إلى الله تعالى وإلى ما عنده، ولا يقدر على هذا كل الناس. لا يستطيع عامة الناس أن يتجردوا عن حظوظهم الدنيوية ليخلصوا القصد للمولى سبحانه ويكون جهادهم لوجهه الكريم. لذلك فإن جماعات الدعوة قد يتسرب إليها من له قصد غير الصدق الصادق، ومثل هذا لا تفيد فيه التربية. ومتى اتخذت الدعوة شكل تجمع سياسي قائم على المطالبة كان خطر التسرب أعظم. ولعل العبرة التي بين أيدينا، وهي أعظم درس نتعلمه من جماعتي الإخوان المسلمين وجماعة الاستاذ أبي الأعلى، هي أن هذه المطالبة كانت السبب في وهن الجماعتين وكانت السبب فيما آل إليه أمر الإخوان المسلمين من عنف. تسابقت الأعداد الكثيرة من الناس لجماعة كما تتسابق للحزب السياسي الذي يضمن الظهور والوظائف والشفوف على الأقران. وحملت هذه "الجماهير" المنحرفة القصد والصدق معها أساليب العمل السياسي واستعجاله وعنقه.

وفي هذا الصدد فإن لجماعة رجال التبليغ المنعة التامة من الانحراف عن الصدق لأنها قائمة على الواجب لا على المطالبة.

والتربية عند هذه الجماعة تتم عبر الجهاد الشديد والعمل الجاد والصبر على الأسفار والأتعاب وأذى الناس. وهذا لا يقدر عليه إلا الصادقون. وكل جماعة دعوة تقوم على المطالبة تتعرض للتسرب المنافق كائنة ما كانت تربيتها وصحتها ومبادئها. ولم يكن للمنافقين أثر في صفوف صحابة النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان المسلمون أقلية مضطهدة بمكة. إنما تكاثروا عندما أصبح للمسلمين شوكة وصولية ومغانم وشفوف. والذين دخلوا في دين الله أفواجا بعد الفتح لم تكن صفتهم البارزة هي الصدق في طلب الله وما عند الله، بل كان منهم الخائف والطامع، وكان منهم الوصولي والمرتزق.

4 - البذل: يلح الشيخ البناء في وصاياه العشر على الصحبة ودوام الصلة بالجماعة وعلى الذكر والمحبة للاخوان واستماع نصيحة من لهم واجب النصيحة. ولا نجده يحث على البذل مثلما يحث أبو الأعلى المودودي. أما رجال التبليغ فمن مبادئهم الأولى أن يسافر المبلغ على نفقته وألا يقبل معاونة من أحد أيا كان. والمنهاج النبوي يجعل الايمان رهنا بالعطاء والبذل، بذل المال أولا والنفس ثانيا، وبدون البذل والعطاء لا يكون إيماننا. {إنما المومنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. أولئك هم الصادقون}

يجعل الشيخ البناء من المنجيات العشر تشجيع المشاريع الوطنية، ويتحدث عن البركة التي يضعها الله في قروض الجماعة. ثم إن

الجماعة أسست مساجد ومدارس ومستوصفات، وكان لها نفقات كثيرة. فقد كان بذل ولا ريب، كما هو الشأن عند المودودي، وتحتاج هذه الخصلة إلى إشارة خاصة لأن من الناس من يقف عند وهم شائع أن الدعوة الصادقة لاتمس الدرهم. وليس غلط أفدح من هذا، وإن اطلاع على أحوال الرسول وصحبه تبرز لك أن الناس إنما كانوا يتفاضلون، وإنما كان إيمانهم يتجلى بوضوح على قدر بذلهم لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وما حث الله في القرآن، بعد الذكر، ما حث على النفقة والبذل.

وإذا كان الغرض من التربية الإسلامية، التربية الروحية والعملية والعقلية، أن تذوب أنانية الفرد ويذهب انطوائه على مصالحه وشهواته، فإن أقرب الوسائل وأنجعها لمعرفة درجة إيمانه اختباره في بذل ما يملك. فإن كان شحيحا بدرهمه على الجماعة فإنه لايزال مع نفسه وهواها، ولا يكون شحا إثثار المسلم أهله ومن تحت كفالته بالضروريات الواجبات ولا بما يصلح به أمر معاشه. ومن وصايا السيد البناء لمريديه أن يستصلحوا أموالهم ويتحاشوا الوظائف الحكومية ما أمكن، وأن يجمعوا المال في مشاريع خاصة بالاخوان، وكان السادة السنوسيين اهتمام كثير بالتجارة، وكان على كل مريد أن يسعى ليحصل على المال الكثير. وهذا كله فهم سليم لمقتضيات الدعوة إلى الله، وإذا كانوا يقولون أن عسب كل حكرة هو المال، فإن المال الذي يبذله عضو الجماعة المسلمة، جماعة الدعوة، يؤدي هذا

الوظيف ومعه وظيف تربوي سام. قال تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}، وسواء كانت هذه الصدقة الزكاة الواجبة، أو البذل الواسع الكريم فالمال مطية المومن للبر، وصدق ربنا حيث نصحنا: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}.

5 - العلم: رأينا كيف يجعل السيد الندوي الوعظ المقروء والمسموع والتبليغ بكل الوسائل العصرية طريقا للدعوة. أما السيد المودودي فيهتم اهتماما خاصا بنقل علوم الحكمة إلى البلاد الإسلامية ويوصي بإعادة صياغتها صياغة إسلامية. ويتفق الاخوان المسلمون والباكستانيون من جماعة المودودي على وجوب الدرس والتعلم لكل عضو من أعضاء الجماعة. ولانجد رجال التبليغ اثرا في هذا الميدان ما عدا كتاب الشيخ القيم عن حياة الصحابة. ولا يخفى على كل مسلم أن العلم واكتسابه واجب بالضرورة على كل مسلم ومسلمة كما ينص الحديث. والمنهاج النبوي يقتضي اكتساب علم الشريعة أولا، علم ما فرض الله عليك وما حرم، وعلم السنة وحياة النبي والأصحاب، ثم على الحكمة الدنيوي، وفي حالة تخلف المسلمين وتكبرهم للدين، يعد اكتساب العلم بأنواعه وادخاله في حيز التطبيق جهادا في سبيل الله. وهناك علم ذوقي غير مكتسب يهبه الله لمن خشيه وجاهد في ذكره وسبح اسمه، وهذا لا بد للإنسان في نيله، إنما هو هبة لدنية تخص صاحبها ولا تعم الجماعة.

6 - العمل: رجال التبليغ ينحصر عملهم في تبليغ الاسلام لأهله الغافلين عنه أولا ثم لأهل الملل. أما العمل عند رجال الدعوتين الآخرين، فيشمل العلم والثقافة والاقتصاد وكل مظاهر الحياة كما يشمل التربية العملية والروحية والخلقية. ومنهج العمل عند الإخوان المسلمين ونتائجه أوضع وأبعد أثرا منه عند غيرهم. إن عمل الجماعتين يهدف إلى نبذ الحياة الجاهلية ومقاطعتها واحلال الإسلام محله في دنيا العمل، في المسجد والسوق والبنك. وتذهب هذه المقاطعة عند المودودي إلى مقاطعة المحاكم الوضعية وإن كان ذلك يؤدي لضياع حقوق المومن. ويوصي البناء بمقاطعة البضائع الأجنبية والأعياد الأجنبية والتقاليد الغربية.

7 - السمات: رجال التبليغ رجال السنة، عملهم كله من قيام وقعود ونوم وأكل وتعبد ومشى يسير طبقا للسمات النبوي. وهم في هذا لايجارون. أما السمات الجماعي، سمات العمل، كما عرفناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وهو استبدال أساليب السياسة ووسائلها ومظاهرها بسمات اسلامي قائم على مبايعة القيادة الجهادية وعلى جدية العمل في المسجد بهيبته وجلاله وقديسيته، وبما يليق بكل هذا من هدوء وطمأنينة ومنازمة للسياسة كما يفهمها المحترفون، فكل ذلك بقي وصايا لم تنفذ. فالسيد البناء يوصي بفك الأحزاب السياسية، ويسمي السيد المودودي مشاركته في تسابق الأحزاب على صناديق الانتخاب "حكمة علمية". لكن الجماعتين لم تستطعا أن تتجاوزا

السياسة إلى سمت اسلامي لأنها لم تجد قيادة جهادية، آمنت بضرورة هذه القيادة أو لم تومن، ولعل سعي الشيخ البناء للقاء فاروق ويأسه منه أرجعاه إلى ميدان المطالبة بالتغيير ومنازلة الخصوم السياسيين في الجرائد والمظاهرات.

8 — التؤدة: لو قدر لك أن ترى جماعة من رجال التبليغ، وقد يتاح لك ذلك بسهولة فهم رضي الله عنهم في كل مكان، لرأيت عباد الرحمان الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. الصير هم رجاله والتحمل والأناة قوتهم والدأب على العمل ديدنهم. والسيد المودودي يوصي بعدم العنف ويوصي بالصبر، وما دخل حلبة السباق على الأصوات بالأسلوب السياسي إلا تفادي للعنف. هذا ما أظنه والله أعلم. أما الإخوان المسلمون، لهف نفسي عليهم، لهف نفسي على شباب طاهر، على أيد متوطئة وقلوب يملأها الإيمان، فقد طنّها العنف في مواجهتها الباسلة للجاهلية المترفة، جاهلية الحكم العاتي، اغتال فاروق الشيخ فاثار غيظ جماعة ممن كانوا يحملون السلاح. وأقلت مع استشهاد الشيخ رحمه الله زمام القيادة من يد ضعفاء الرجال ممن خلفوه. ولعل في كلام الشيخ رحمه الله بذرة هذا العنف، فإنه هدد في خطبة المؤتمر الخامس أن يغزو كل جبار عنيد متى توفر له اثنا عشر ألف رجل. وبظهور العنف استفحلت الفتنة، ونجد لها صدى في عنف القول عند السيد الجليل سيد قطب وأخيه محمد قطب ومن تبعهما.

9 - الاقتصاد: الاقتصاد في معنييه كما شرحنا في الجزء الأول

من هذا الكتاب: اقتصاد النفقة والتقل من المتاع وعموم الرخاء، والصمود إلى القصد وعدم الانحراف عن الهدف. أما التقل فهو أحد الميزات الظاهرة لرجال التبليغ، وبغ بهم التقل درجة التقشف. ونجد في الطرف الثاني بعض الإخوان المسلمين يرون أن رجل الدعوة ينبغي أن يكون له سمت كريم وحياة مادية كريمة. رجل التبليغ يلبس الخلق من الثياب تشبها بالرسول وصحبه، ويتقل في طعامه ونفقاته بما يشبه مجاهدة الصوفية الأولين. ولعل التوسط في مثل هذه الأمور أجدى وأنفع للدعوة. وعامة الناس لايقبلون على داع يريد لهم من أول الأمر ما اختاره لنفسه من شطف العيش. واستثمار الأموال كان أحد أهداف جماعة الإخوان المسلمين، استثمارا إسلاميا خاليا من الربا يعطي العامل حقه موفورا. وقد نجحوا في ذلك نجاحا ملحوظا.

أما سلوك الطريق بقصد، أما معالجة القصد ورصده لئلا تزيغ الدعوة عن هدفها، فلا نطن أن من نتحدث عنهم من الرجال يغفل عن ذلك. وهم صادقون وهبوا حياتهم لله، إنما يتعسر الاقتصاد بهذا المعنى لوجود عناصر لما تكتمل تربيتها ونضجها بين الصفوف، وحتى في مراتب القيادة. فربما يغلب عندئذ الأسلوب السياسي الاضطرابي، ويضيع السمت وتذهب التؤدة ويحل محلها العنف. وهذا خطر يهدد كل دعوة تتفتح للجماهير الكثيرة بسرعة وبدون اختبار المرشحين للعضوية وابتلائهم. وقد يفرح رجال الدعوة بوافد له علم أو جاه أو

مال أو مهارة فيرفعونه فوق قدره، وهو ضعيف الهمة خابي الروحانية، ومن مثل هذا يتسرب الانحراف، سيما إن أعطيته مقاليد التربية والتوجيه. وراجع تاريخ الاخوان المسلمين بعد وفاة الشيخ فإنك واجد أن كبوتهم ترجع إلى ما ذكرنا.

10 – الجهاد: الجهاد عند السيد المودودي وسيلة نشر الاسلام،
وهو جهاد السيف، وهو ماض إلى يوم القيامة. وعند الاخوان المسلمين مثل هذا التصور، وإن كانت الدعوة تتخذ شكلا جهاديا آخر، كما يقول سيد قطب، فإنما تفعل ذلك لمقتضيات الحال، استراتيجية مرحلية حتى إذا قويت الجماعة وملكت الوسائل فبالقوة تضرب كل مارد جبارن وبها تزيل العراقيل امام الدعوة المبشرة الهادية. أما رجال التبليغ فإن وضعهم داخل بلد وثني حتم عليهم جهادا من نوع خاص، جهاد ضرب المثل بالصبر والتقليل والسير في رحاب الأرض لحمل الرسالة. ومن مبادئهم ترك ما لا يعني. فهم بهذا وديعون في جهادهم لا يرون في آفاقهم إمكان قتال، ومع هذا فهم في الجهاد الاكبر .

ويتحدث الشيخ رحمه الله عن الجهاد في رسالة خاصة، ويضيف فيها الحديث الذي رواه البيهقي ويقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر". فالجهاد عند الاخوان جهاد سلاح قبل كل شيء. ولاشك ان الأمر كذلك أن دهم

العدو بلاد المسلمين. وقد برهن شباب الاخوان في حرب فلسطين عن
فعاليتهم أمام العدو، وعن قوة إيمانهم.

لكننا ننظر في المنهاج النبوي فنقرأ وصية الرسول صلى الله عليه
وسلم لنا ألا نعنف في زمان الفتنة ولا في أي زمان عل المسلمين ولو
فسقوا، وأن نسمع ونطيع ولو ولي عبد حبشي ما أقام الصلاة.
والدعوة موجهة قبل كل أحد إلى الغافلين من المسلمين. فجهادنا بينهم
جهاد قيام بالقسط، جهاد تمثيل للاسلام وقيمه وسمته وتوحيده، ولانجد
هذا التقسيم عند السادة رجال رجال الدعوة. فهم يجاهدون الأحمر
والأبيض، العدو الخارجي والداخلي، ولعل هذا ناشئ عن تكفير الحكام
الذين نبذوا شرع الله وحكموا بالطاغوت. وهؤلاء ان أقاموا الصلاة،
قوم جائرون، ورسولنا يحذرنا من حمل السيف على السلطان ولو
جار.

ونجد أثر هذا العنف، عنف القول عند مؤسس جماعة الاخوان
المسلمين، عنف العمل عند أتباعه من بعده، على شكل فتنة طاشت
معها الأحلام، ونز فيها بعض علماء الأزهر منازل الطعام، فقد كتبوا
يكفرون الاخوان المسلمين ويصفونهم ويسمونهم أبشع الأسامي، ومن
يكون، ويحكم، مسلما أن لم يكن الاخوان المسلمون؟ ثم ان الاخوان
ينفون عن أنفسهم كل التهم وهم محقون في ذلك فإن مت تربي تربية
إسلامية كاملة، روحا وعقلا وعملا، خليق ألا يحمل السلاح على أخيه
المسلم ولو جار. ومن حملوا السلاح فتية جاؤوا بعنفهم، واندسوا بين

الصفوف ولو يستسلموا للتربية ولا انضبطوا بنظامها، أما عنف القول عند سيد قطب، فهو جهد الصادق في اجتهاده، هكذا يعتقد وله عند الله أجر المجتهدين.

أما بعد فإن خصالنا العشر تكون منهاج تربية داخل الجماعة، وهي في نفس الوقت منهاج عمل شامل لامة منبعثة عزم الله لها أن تنبذ لباس الجاهلية وتتحدى مجلة الاسلام. إنه المنهاج النبوي الخالد على الصحبة والجماعة والذكر. إنه المنهاج النبوي كما عاشه الرسول وصحبه، يكمله وصاياه صلى الله عليه وسلم الخاصة بزمان الفتنة.

وقوامه الصحبة الصوفية بشروطها كأساس ومنطق. وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، وتحرير العقل بالذكر والتزكي، وتحرير الارادة وتعبئتها بالمبايعة بين ذوي الذمم الصادقين. ويتلو ذلك العمل على علم وبصيرة والجهاد ببذل النفس والنفيس والسمت والتؤدة والاقتصاد، المنهاج النبوي ليس منهاج عنف ولا انحراف، إنه منهاج القيام بالقسط، ومن قام بالقسط، خاصة بين الغافلين، كان في منازل الشهداء والصديقين، قال تعالى: {شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط} فأولوا العلم القائمون بالقسط يحملون شهادة التوحيد مع الله وملائكته ورسوله.

وملاك الأمر في منهاج التربية، ولا تربية بدون طعة. ويدرك هذا بالتجربة من مارس الدعوة. فلذلك تكون المبايعة شرطا حاكما في كل دعوة، وشرطا حاكما في الاتبعات الاسلامي الذي يريد أن ينتقل من

مخاتلات المنهج السياسي إلى السميت الاسلامي، إل العمل الجاد، إلى
التعبئة والقوة لئلا تاكلنا الانقلابية، ولئلا تزداد فضيحة بين الأمم، وأنه
الاسلام أو الطوفان!

التجربة الشخصية

يبحث المسلمون عن إسلامهم الضائع، ويبذلون في البحث جهودا
ضائعة، بعضهم يراه قومية وعصبية، ووقد برهنت مأساة باكستان
على أن الاسلام ليس قومية ولا وحدة فكرية كما يعبر الاستاذ
المودودي، وبعضهم يراه أصالة وخصائص نوعية ولونا فلكلوريا
يكسب صاحبه شخصية مميزة وانتماء حضاريا وثقافيا كيان إسلامي
تاريخي غامض.

وليس الاسلام شيئا من كل هذا، إنه عند الفرد تجربة شخصية
واكتشاف للنفس وغوامض الوجود بما تيسره هذه التجربة الشخصية،
متى توفرت ظروفها، من الالتقاء بعالم الغيب، وهو للأمة حياة وقوة
ان استجابت لداعي ربها وثام فيها جماعة تربط بينهم أواصر الولاية
والمحبة والتآزر زتشد همتها مبايعة لقيادة جهادية مومنة، الاسلام
حياة ووعد صادق بالسعادة في الدارين وبالنصر والتمكن في الأرض
لمن نصر الله ورسوله وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، إنه عزة لله
ورسوله والمومنين.

ويتوقف الانبعاث الاسلامي على التجربة الشخصية، على الممارسة الفردية والاكتشاف الفردي لحقيقة الوجود، وهذه التجربة لا يقوم مقامها الاخبار ولا الوعظ، ولا تمكن إلا مع الصحبة، وأول صفات الجيل الأول من هذه الأمة انهم صحابة، وكان ايمانهم قويا بلغ درجة اليقين لأنهم صحبوا المعصوم صل الله عليه وسلم، وانكشف لهم ببركة محبته سر وجودهم ووجود العالم، فأصبحت قلوبهم هشة خاشعة تسمع كلام الله فتتدبر وتأنر، وجاء يقينهم من الالتقاء بالغيب حين ذكروا الله في حضرة رسوله، شهدوا معجزاته الكثيرة صلى الله عليه وسلم، وشهدوا الملائكة في غزوة بدر تحارب بإزائهم، وأخبرهم الرسول وأخبرهم ربهم في قرآنه بوجود الجن واستماعهم للقرآن، وكان منهم دوو كرامات وخرق عادات، ومن خرقت له عادات هذا العالم الحسي عالم الأسباب الظاهرة علم علم اليقين أن وراء الحس عوالم كثيرة، وتيقن بوجود الجنة والنار ووجود ما أخبرنا الله به من عوالم غيبه، وبهذا يتحرر عقله ويتم استعداده لبذل نفسه في سبيل الله تعرضا لموعد الله الذي لا يتخلف.

التجربة الشخصية، متى توفرت الصحبة الصادقة، الصاحب الصادق فكان الطالب راغبا صادقا، هي تجربة علمية تتحدى الجاهلية الكافر بما وراء الحس المفتونة بالظواهر التي لاتخضع للمنظومات العلمية العقلانية، هذه التجربة الشخصية نعرض نماذج منها في حياة الرسول وصحبه، وفي شهادات رجال الله الذين سماهم الله أوليائه

وسماهم الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الله وخاصته وسماهم الناس صوفية، وا كان المتصوفة المحترفون لابسوا الخرق والمرقعات تظاهرا، وكاتبوا التمام ارتزاقا، أصحاب الصخب والتعصب أعطوا للمسلمين نماذج سلبية عمت عليهم الق حتى ضلوا وكفروا كثيرا من أهل الله، وحتى نفوا امكان هذه التجربة الشخصية التي ترفع المرید من اسلامه الظاهر إلى مقام الايمان وحلاوته إلى مراتب الاحسان.

الرسول الكريم وصحبه: من المعلوم بالضرورة أن الرسل عليهم السلام بشر ياكلون الطعام ويمشون في الأسواق وتجرى عليهم أسباب المعاش والحياة. لكن لهم أيضا طاقة يجعلها الله لهم برهانا وحجة، فلموسى عليه السلام عصاه تلقف ما يافك الساحرون، ولعيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم معجزات لا تكاد تحصى، وأكبرها هذا القرآن المعجز وهذه الشخصية المتزنة الجاذبة، وهذه الطاقة الخفية التي تفعل فعلها في القلوب وسماها الكفرة في كل زمان ومكان سحرا وجنونا، "كذلك، ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا سحرا أو مجنون، أتواصوا به؟ بل هم قوم طاغون".

(1) "هم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالببيت، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: ما ذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لاشيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي صلى الله

عليه وسلم، ثم قال استغفر الله، ثم وضع يده عل صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده على صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إل الحيث، فقلت يأبى الله علي والاسلام¹ .

مثل هذه القصة كثير جدا في حياة الرسول الكريم، تأمل اتصال الغيب وتأيد الله الخفي لنبيه في القصة، علم الرسول ما بقلب الرجل، وهذا سماه الصوفية كشفاً، وهو لصاحي الأمة وراثة نبوية، وأمر الرسول فضالة أن يستغفر الله، ويسمي الصوفية هذا إذناً في الذكر، ونتج عن لمس الرسول صدر فضالة تحول في اللحظة نفسها من الكراهية إلى المحبة، ومن النفاق إلى الايمان، وإيمانه حول سلوكه فأعرض عن المرأة، هكذا بصحبة الرسول ومجالسته ومخالطته تم تحويل جيل للصحابو، ومن الناس من يعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ناقلاً للوحي كساعي البريد، وينفرون منه صلى الله عليه وسلم ويعدون مشركاً من توسل به إلى الله، وهؤلاء قوم سفهاء يندسون في صفوف المسلمين ويدعون تارة الانتساب إلى السلفية وتارة إلى السنة الطاهرة، والسنة بريئة منهم والاسلام، كفيلاً والله تعالى صلى على نبيه وملائكته وأمرنا بالصلاة عليه، وهو تعالى جعل محبته خاصة لمن أحب رسوله وأتبعه وآزره وعززه، {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم}، فليس سنياً ولا مومنناً من

¹ زاد المعاد.

لا يحب رسول الله، وإن امتاز الصوفية المحسنون بشيء فبمحبتهم لله
ورسوله ولهجههم بالصلاة على الهادي البشير كلهم بذكر ربهم،
وانظر رحمك الله في القصة التالية أين بلغت عند الصحابة محبتهم
لرسول الله وكيف آثروه على النفس والأهل.

(2) روى البخاري عن ابن جرير عن ابن زيد قال: دعا رسول
الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي قال: ألا ترى ما
يقول أبوك؟ قال: ما يقول بأبي أنت وأمي، قال: يقول: لئن رجعنا إلى
المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال: صدق والله يا رسول الله، أنت
والله الأعز وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة وإن أهل يثرب
ليعلمون ما بها أحد أبرمني، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتياهما
برأسه لآتيتهما به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا فلما
قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله على بابها بالسيف لأبيه، ثم
قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل؟ أما
والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لا
يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله، فقال: يا للخزرج،
ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، فقال: والله لا يأويه
أبدا إلا بإذن منه، فاجتمع إليهم رجال فكلموه فقال: والله لا يدخله إلا
بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال:
اذهبوا إليه فقولوا له: خله ومسكنه، فأتوه فقال: أما إذا جاء أمر النبي
صلى الله عليه وسلم فنعم".

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هجروا من بيوتهم وفارقوا الأهل والولد والمال، وتحولوا خلقا جديدا بفضل الصحبة، وظهر لهم في حياتهم وفي أنفسهم آيات، كما ظهرت على يد الرسول آيات، وهالك بعض كرامات الصحابة.

(3) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما حضرت أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإنني لا أترك بعدي أعز علي مك ومن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن علي دينا فاقضه واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا فكا أول قتيل، ودفنت معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع خر، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه، فجعلته في قبر علي حدة" أولياء الله ياكلهم التراب وإن لهم لإلهاما من الله صادقا.

(4) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر، رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط: إنه لأظنه كذا إلا كان كما يظن رواه البخاري.

ونقل التاريخ أن الإمام عمر كان في خطبة بالمسجد فصاح فجأة: يا سارية الجبل الجبل، وكان سارية في جيش أحاط به العدو، فسمع كلمة عمر على بعد المسافة وتسلق وجيشه الجبل فنجوا.

وكرامات الصحابة وأهل الله في كل زمان كثيرة، وليست مقصودة في ذاتها لأن خرق العادة قد يحدث استدراجاً من الله على يد مشرك، وإما هي تأييد منه سبحانه، قال تعالى {بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم}، وإلا فالجهاد والعمل يطلبه الله منا برهاناً على صدقنا وبعملنا نكتسب رضاه عز وجل، وعندما التفت المسلمون إلى الكرامات ووقوفاً عندها يعيشون مع مناقب الأولياء ويعرضون الجهد والبذل والعمل ذهبت ريحهم لانحرافهم عن القصد، وكل لقاء بالغيب لا يرد الإنسان إلى العمل الصالح، إلى السعي الدائب لنصر الله ورسوله، فهو مضيعة للوقت وتفويت لفرص النجاح.

وقد يقول القائل أن الصحبة لا تتجدد وهي للأتبياء والرسل خاصة، وجوابنا في قوله تعالى: {ولكل قوم هاد} وفي وقول الرسول: " المرأ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل" فأرسلك لتبحث عن خليل مومن، ونجد في كلام الامام علي كلمة الهادي كما جاءت في القرآن، ونجده كرم الله وجهه يجعل النجاة في صحبة الهادي والاعتصام به، يقول¹: "رحم الله عبداً سمع فوعى، ودعي إلى الرشاد فدنا، وأخذ بحجرة هاد فنجا" وقد كان رضي الله عنه رجل دعوة، فانظر : كيف رتب مراحل الدعوة من الاستماع الواعي إلى الدنو من الداعي إلى

¹ "زهر الآداب" ج أول ص : 41.

النجاة بالتمسك بقوة بالهادي، ومن امسكته بحجزته فقد تعلق به
تعلقا كاملا.

ما هي الصحبة المتجددة، وكيف تتجدد التجربة الشخصية الروحية
وما هي نتائجها؟ أسئلة جوابها في شهادات أولياء الله الذين خبروا
السلوك الصوفي وعلمونا الطريق.

المتبوع المقدم: لعل اهم تجربة شخصية ترك لنا صاحبها وصفا
كاملا لمراحلها هي تجربة ابي حامد الغزالي، في كتابه "المنقذ من
الظلال" عرض علينا ازمته النفسية وتخطئه مع مذاهب عصره حتى
يئس منها جميعا، كان يطلب الحقيقة فلم يعثر عليها إلا في التجربة
الشخصية على المنهاج النبوي، وجدها في الصحبة والمبايعة والذكر،
وجدها عند أهل الطريق، أهل المنهاج النبوي والمحجة البيضاء، يقول
رحمه الله¹.

"ثم إني لما فرغت من هذه العلوم (كل المذاهب العقلية والنقلية)
أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم
وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن اخلاقها
المذمومة، وصفاتها الخبيثة، وحتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير
الله تعالى وتحليته بذكر الله".

¹ المنقذ من الضلال

ثم يصف لنا صراعه مع نفسه، وقد كان عالم بغداد وحجة أساتذتها وما يطلبه من الحق يقتضي صحبة لابد أن يخرج لطلبها، يقول:

"فلم أزل أفكر فيه مدة - وأنا بعد على مقام الاختيار - أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا، وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فنفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادي: "الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك الإيمان ينادي: "الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟" فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: "هذه حالة عارضة، إياك أن تطاوعها، فإها سريعة الزوال، فإذا أعرضت عنها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة".

ولم يزل رجل الهمة التواقة في نزاع مع نفسه وهواها حتى مرض مرضا شديدا يئس الأطباء من علاجه فلجأ إلى الله تعالى فأيده

في طلبه، وخرج من بغداد حتى لقي شيخه، وسماه متبوعا مقدما،
يقول¹:

"فمن كان لله كان الله له، حتى أنه في الوقت الذي صدقت فيه
رغبتي لسلوك هذه الطريق، شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في
المواظبة على تلاوة القرآن (تأمل حجة الاسم عالم بغداد الأكبر بدون
منافس يرجع إلى شيخه فيما يظهر أنه أمر واضح لا غبار عليه، لكن
من يئس من نفسه وسمت همته إلى الله وعرف مكان السادة المشايخ
الصادقين لا يسعه إلا أن يسلم لهم القيادة، فهم أطباء نفسانيون يعلمون
أمراض النفوس ومخابئ هواها)، فمنعنا وقال: السبيل أن تقطع
علائقك من الدنيا بالكلية بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال
وطن وعلم وولاية، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجودها
وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض
والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموه الهم، مقبلا بذكر على الله
تعالى، وذلك في أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى، فلا
تزال تقول: الله، الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى
حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك،
لكثرة اعتياده، ثم تصير مواظبا على الذكر من غير حركة اللسان، ثم
تواظب إلى أن لا يبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف

¹ "ميزان العمل" دار المعارف ص : 222.

اللفظ وهيآت الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد، حاضرا في قلبك على اللزوم والدوام".

هكذا أذن له شيخه ونظم له أذكاره وأوراده، وعندما يقرأ بعض المغفلين مثل هذا يظنون أن السر في الكيفية فيعكفون في زاوية يذكرون كما كان يذكر الغزالي، والنتيجة ا، مثل هؤلاء يجنون من حيث فاز الغزالي وأدرك مناه، وفرق ما بينهما أن الغزالي أخذ الإذن م شيخه وهم أخذوا الكيفية من الأوراق، إنما السر في إذن الشيخ المأذون حامل السر، ومن علامات الشيخ المأذون أن يأذن في الاسم المفرد "الله" دون أن يحصر العدد، فإن بذكر الاسم الجامع يقع الفتح للمريد، ومن ذكر الاسم الجامع بلا إذن وأكثر منه أو ذمر بإذن من لا إذن عنده جن، هذه تجربة معهودة، ولاتحاول أن تتحداها، وقد رأينا من تحدى ذلك فأصبح عبرة للمعتبرين، ثم إن الخلوة، هذه العزلة الجسدية تمكن المريد من جمع همته على الذكر، فإن أمر بها الشيخ كانت هي الدواء، وإن اختارها المريد الحر فلن يجد فيها إلا مشقة وبلاء، وقراءة الأوراق والأخذ عنها مزلة خطيرة لطب التزكية، وفي خضوع الغزالي لمتبوعه المقدم الذي رده من اجتهاده في المواظبة على التلاوة إلى الذكر حتى يوتي الايمان، وقد أخبرنا سيدنا عبد الله بن عمر أنهم كانوا على عهد الرسول يوتون الايمان قبل القرآن.

ولما أخذ الغزالي الاذن عكف على الذكر حتى فتح له، يقول¹: "ثم دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين، لاشغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طوال النهار، وأغلق بابها على نفسي... ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لايمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ينتفه به، إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرف، وأخلاقهم أزك الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الموافقين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلون بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به".

هذه هي الشهادة التي أداها هذا الرجل الذي علمه الله من لدنه علما، وهي في غاية الوضوح والبساطة والقوة والصدق، لذلك نجد كثيرا من الناس يختارون، إن لزم الاختيار، تصوف الغزالي على تصوف غيره، وهم لو علموا لتبين لهم أن الطريق واحدة هي طريق القوة بالاصلاح المتأخر وهي المنهاج النبوي المنبي أولا على

¹ " المنفذ من الضلال".

الصحة، وإن كان بعض أهل الله يعبر عن تجربته تعبيرا مخالفا لتعبير الغزالي فليس معنى ذلك أن السلوك الايماني الإحساني المسمى صوفيا أصناف، بل هو ألوان ودرجات، وقد قرأت للفاضل المومن السيد علي الطنطاوي مقالا يفضل فيه تصوف الغزالي على تصوف الشعراني وابن عريز، وتجد عالما جليلا مثل السيد رشيد رضا يتلمذ للغزالي زمانا ثم يرجع عنه إلى ظاهر الشرع مع الشيخ ابن تيمية، ويعذر من لم يجد شيئا يربيه ويأذن له إن لم يعلم أن القوم رضي الله عنهم يستقون من معين واحد ولو اختلفت المشارب، ويعذ أن وجد في كلامهم ما يكفرهم عليه الناس، وهم رضي الله عنهم إنما يعبرون عن تجربتهم بصدق، وإن قال أحدهم ما لايسعه القول وظهر من لفظه ما لايتحمله حويصلة الضعفاء من الرجال فكلامهم لايعدو الإخبار عما أخبر الله به في الحديث القدسي المتواتر: "إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها"، وإن كان أولياء الله لم يحسنوا التعبير عن تجربتهم، فإن كلام نبينا المخبّر عن وحي ربه واضح وضوح نور الشمس في رابعة النهار.

ولئن قال الحلاج قولته فذلك لضعفه عن الكتمان، وقد قال مولانا عبد القادر الجيلاني: "لو أدركت الحلاج لأخذت بيده" وقالها بعده غيره من الفحول.

أما فتح الله الغزالي فيتحدث عنهم ببعض التفصيل منشورا في كتبه، ويفيدنا الغزالي أيضا في دفع المتصوفة المحترفين الموجودين في كل زمان ومكان، ويكفي أن يكون لأهل الله أوليائه حظوة عند الناس ليسعى كل من هب ودب يحاكيهم ويلبس الخرق ويفتعل الأحوال، وانظر باب الرياء في كتاب الغزالي: "كتاب الأربعين في أصول الدين" فإنك تجد وصفا للمرائين الدجالين من أدعياء التصوف.

طريق الوصول: كتب ولي الله تعالى الإمام الشعراني كتبا كثيرة أهمها كتابه "لطائف المنن" فيه يذكر حياته ومجاهدته وأحواله، ويقرأ اليوم بعض الناس مثل هذا الكتاب فلا يرون إلا خرافات وعقلية متخلفة عامية، لأن الامام الشيخ رضي الله عنه يحدث عن لقائه للجن وعن كراماته وكرامات غيره من الأولياء، ويصف لقاءه لظلمة المماليك يشفع عنده للمظلومين، ويصف مجالس الذكر وتربية المريدين وطبقة أدعياء السلوك من المتمشixin، والمستشرقون يقرأون هذا فلا يرون ولا يرى تلامذتهم إلا خليطا من الثثرة البليدة، وهيهات أن يشم رائحة المسك ويتمتع بشذاة خفافس العقلانية الجاهلية.

وحين يذكر الشيخ والأخذ عنه وضرورة الصحبة لمن أراد سلوك الطريق يزعم بعضهم ويدعى أن ذلك بدعة ومنكر، ويأتي هذا القول خاصة من الذين يعتبرون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ساعي بريد، ويأتي من أمثالهم المفتونين، والشعراني في كتبه ينصحك إن

أردت التخلق بما يصفه لك من الفضل والفضائل أن تصحب شيخا مربيا عارفا، ويكرر رحمه الله النصيحة لايمل، وجزاه الله عن المسلمين خيرا، ويقول في كتابه "الميزان الكبرى"¹:

"فصل: إن قال قائل كيف الوصول إلى الاطلاع على عين الشريعة المطهرة التي يشهد الإنسان اعتراف جميع المجتهدين مذاهبهم منها ويشهد تساويها كلها في الصحة كشافا ويقينا لا إيمانا وتسليما فقط وظنا وتخميننا، فالجواب: طريق الوصول إلى ذلك هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون، بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفي أموالها وعيالها كيف شاء، مع انشراح قلب المرید لذلك كل الانشراح".

وتسليم النفس للشيخ شيء تأباه النفس وتنفر منه، وارجع إلى أزمة الغزالي انظر كيف سلم نفسه لمتبوعه المقدم، وقد اجمع القوم رضي الله عنهم على أن من لاشيخ له لايشم رائحة السلوك، نعم هنالك المجاذيب الذين تجذبهم الحضرة الالهية مباشرة، وهؤلاء يرفع عنهم التكليف ولاينتفع بهم، يقول الشعراني:²

"فإن قلت فما حكم من أكل الحلال وترك المعاصي وسلك بنفسه من غير شيخ، فهل يصل إلى هذا المقام من الوقوف على العين الأولى

¹ الطبعة الأولى ص : 20.

² نفس المصدر ص : 21.

للشريعة؟ فالجواب: لا يصح لعبد الوصول إلى المقامات العالية بإحد أمرين، إما بالجذب الالهي وإما بالسلوك على يد الأشياخ الصادقين".

المدد الفائض: وإم من معرفة ضرورة الشيخ وأتباعه معرفة من يصحب، أيصحب أولياء الله الذين في القبور؟ أيتم السلوك بالاتصال بروحانيتهم؟ وهل يمكن هذا الاتصال؟ ثم إن من طبع البشر الاعتراف بالموتى ، والاعتراف بالولاية واختصاص الله بفضله من يشاء، فإذا أشرت إلى شخص بعينه حين يسعى، وقفت النفس الأمار بالسوء وأنكرت واستعلت، لكن السلوك والتربية لا تتأتى أبدا إلا بصحبة الأحياء من أهل الله، ولنحدد ما عمناه، فإن صحبة شيخ واحد والاقتصار عليه شرط في طريق القوم، إلا أن أذن ذلك بصحبة غيره، والموتى بهذه المعنى لا يصحبون، ذلك ما يقوله ولي الله سيدي أحمد التجانب مكررا وصية تركها كل الأكابر لاتباعهم، لكن الاتباع يفضلون التبرك بصاحب القبر، وبذلك تكونت مذاهب وطرق، كل يقول: نحن وصفية. ولاضير، إنما ينبغي أن نميز بين من له شيخ يربيه حين يسعى ويأمر وينهي، وبين من سكنت في قلبه محبة ولي راحل إلى الدار الآخرة، ومحبة أهل القبور من أولياء الله وأحبائه فضل يوتيهم الله من يشاء، لكنها محبة لسلوك، قال الشيخ الأكبر سيدي أحمد التجاني¹.

"قاعدة" اعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل في سابق علمه ونفوذ مشيئته أن المدد الواصل إلى خلقه من فيض رحمته هو في كل عصر

¹ جواهر المعاني، الجزء الثاني ص 100 طبعة 1372.

يجري مع الخاصة العليا من خلقه من النبيين والصديقين، فمن فزع إلى أهل عصره الأحياء من ذوي الخاصة العليا وصحبهم واقتدى بهم واستمد منهم فاز بنيل المدد الفائض من الله، ومن أعرض عن أهل عصره مستغنيا بكلام من تقدمه من الأولياء الأموات طبع عليه بطابع الحرمان، وكان مثله كمن أعرض عن نبي زمانه وتشريعہ مستغنيا بشرائع النبيين الذين خلوا قبله، فيسجل عليه بطابع الكفر والسلام، (يعني رضي الله عنه أن الولي الحي يمد مريده وأن الميت إنما يترك كلاما ووصية، وما جاء عن بعض أهل الله من تصرفهم أحياء وأمواتا لا ينصب على الامداد والتربية أبدا).

ثم يقول رضي الله عنه: "والدليل على أن الصحبة لا تكون إلا للحي قوله صلى الله عليه وسلم لأبي جحيفة رضي الله عنه: "سل العلماء وخالط الحكماء واصحب الكبراء"، فالعالم دلالاته على الأمر العام أمرا ونهيا بما يوجب المدح عند الله وسقوط الثمة عن العبد، ونهايته الجنة، والحكيم دلالاته على التقرب إلى الله تعالى بالطهارة من أهوية النفوس ومتابعة الهوى، ونهايته منازل القربة. والكبير دلالاته على الله من حيث محو النفس والبراءة من التدبير لها بكل ما يجب المصلحة لها دنيا وأخرى، وبكل ما يدفع المضرة عنها دنيا وأخرى، ونهايته الله. ثم قال: يوخذ من هذا أن الصحبة لا تكون إلا للحي، إذ الميت لا يصحب ولا يكلم ولا يخالط، انتهى"

نكتب هذا نصيحة لمعاصرينا الباحثين عن الحقيقة، إن طرق القوم متعددة تتراوح بين المحترفين، ومنهم من له جوقات رقص تعرض ألعابها في عواصم أوربا، وبين تابعين اتقياء محافظين على أذكار مشايخهم، وللمستقيمين منهم عند ربهم خير الجزاء، لكن بغية الطالبين عند الشيخ العارف المأدون، وفي زماننا يرجع كثير من مفكرينا المسلمين إلى كتب القوم يستنطقونها، ويعيهم الطلب لأن سوق التصوف عامرة ملونة، فمن أين للطالب الغرير أن يعثر على الكبريت الأحمر والروح المطهر الذي يأخذ بيده إلى الله؟ ونحن نخبر الطالبين أن الذي يعز وجوده هو صدق الطلب من المرید، فإذا صح منه العزم وطرح عنه أوهانه، وجد بغيته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفتح الأكبر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صار مؤيدا للمعجزات، والقرآن والحديث مليئان بأخبار الغيب، الجن والملائكة والآخرة والجنة والنار، وأول ما اتصل النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب الرؤيا الصادقة، وكن لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل عند صلاة الصبح أصحابه من منهم رأى رؤيا فيؤولها له، وذكر الله في القرآن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، وقال في غزوة بدر: "إذ يريكم الله في منامك قليلا، ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم في الأمر"، فجعل الرؤيا أهمية في الحياة العملية، وكان صلى الله عليه وسلم يحدث عما وقع لصالحه من كان

قبله من الكرامات ويعرضها على أصحابه ليزدادوا إيماناً و يقيناً، وهكذا حدثهم عن كرامة جريج الراهب وعن البقرة التي كلمت صاحبها حين ظلها وحمل عليها وحدثهم عن الفتية الذين حصرتهم الصخرة في الكهف.

وأول فتح يقع للمريد في طريق القوم الرؤيا الصادقة، سنة الله في خلقه ووراثه نبوية للصادقين، وبعد ذلك يفتح الله لمن شاء بما شاء يقظة ومناماً، ونهاية ذلك الفتح الأكبر، وبه يكمل السالك وتتجلي عنه الحجب.

ونورد هنا شهادة عبد من عباد الله أمي أو يكاد، يصف لنا ببساطة وصدق ما حدث له حين اصطفاه الله وقربه إليه فأبصر بنور الله وسمع بسمعه، يقول مولانا عبد العزيز الدباغ:¹

"فلما بلغت باب الفتوح (باب من أبواب فاس) دخلتني قشعريرة ثم رعدة كثيرة، ثم جعل لحمي يتتمل كثيراً، فجعلت أمشي وأنا على ذلك، والحال يتزايد إلى أن بلغت إلى قبر سيدي يحيى بن علال نفعا الله به وهو في طريق سيدي علي بن حرازم، فاشتد الحال وجعل صدري يضطرب اضطراباً عظيماً حتى كانت ترقوني تضرب لحيتي، فقلت: هذا هو الميت من غير شك، ثم خرج شيء من ذاتي شيء كأنه بخار الكسكاس (آنية الطبخ)، ثم صارت ذاتي تتناول حتى صارت أطول من كل طويل، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي، فرأيت

¹ كتاب "الابريز" طبعة محمد علي صبيح ص: 9.

جميع القرى والمدن والمداشر، ورأيت كل ما في هذا البر، ورأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور، ورأين الأرضين السبع كل ما فيهن من دواب ومخلوقات، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا أنظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة، فجاء بذلك النور من فوقى ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي ومن أمامي ومن خلفي، وأصابني منه برد عظيم حتى ظننت أن يموت، فبادرت ورقدت على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيوناً، العين تبصر والرأس تبصر والرجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر، ونظرت إلى الثياب التي علي فوجدتها لاتحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء، ثم استمر الأمر علي ساعة ثم انقطع".

وبقية كتاب الابيز تتمة للفتح وأخبار عن الغيوب وعن أنوار الذات ومعرفة الله وصحبة رسوله، ومن يقرأه من العامة العقلانيين يتوهم أن بالرجل خبالاً أو يخرج لك واحدة من هذه المصطلحات التي زودته بها العقلية التصنيفية الجاهلية لتحديد نوع المرض النفسي الذي يصاب به أولياء الله، وحاشا معاذ الله أن تنفذ البصائر المعمية إلى أسرار الله ولو عرضها عليهم صادق مسكين كسيدي عبد العزيز، نعم انهم عندما يتلقون مثل هذه الشهادة من رجل فصيح القلم والحنان مثل سيدي محيي الدين بن عربي يستعظمون ما يقرأون ويعزون للرجل الصالح فلسفة وعبرية فلسفية، لكن ما قولهم في الأمي الذي خرج

من بيته يسعى في رزق أهله حتى أخذته قشعريرة وتتمل جسده كما يقول، وتلا ذلك علم لدني غزير فياض كالبحر حار في تفسيره جهابذة علماء زمانه وعلماء كل زمان، سيدي عيد العزيز حفظ في صغره حزب "سبح" فلما فتح الله عليه تتلمذ له العلماء وفسر لهم عويصات مسائلهم في الحديث والفقه وعلوم الشريعة الأخرى وعلوم الكون، وكانوا يقرأون عليه كلاما لاعهد له به فيقول: هذا قرآن، أو هذا حديث قدسي أو حديث صحيح أو مكذوب، وما في كتابه رضي الله عنه لايحمل في صفحة، وإنما يرجع إليه من يطلبون الحقيقة حتى تكل أذهانهم، إن كان طلبهم صادقا، ويلتمسوا لأنفسهم شيئا يربيههم كما ربي عبد العزيز شيخه وكا ربي أولياء الله من صحبوه من الأكابر.

طريقتنا الاسلام: الشيخ محمد عبده علم من أعلام الإسلام في القرن الحاضر، تخرج من مدرسته رجال مثل السيد رشيد رضى حملوا راية الدعوة ودافعوا عن الإسلام بما كان لديهم من وسائل وعلى قدر اجتهادهم رحمهم الله، وللشيخ محمد عبده المزية الكبرى في زيادة الدعوة تغطي كل نقص ينسب إليه رحمه الله.

وكان لمحمد عبده تجربة شخصية، تجربة صوفية، في شبابه، وسأل شيخه أول اتصاله بالنورانية الإسلامية، ما طريقتم؟ فأجابه أن طريقتنا الإسلام، وبمثل ذلك يجيب كل مومن حملوه أسماء وألقابا خلفها لنا التاريخ الاسلامي المليء بالفتن، والطرق الصوفية عديدة كثيرة، فتجد الصوفية يعرفون جماعتهم باسم الشيخ المؤسس،

والصادقون منهم لا يعرفهم التعريف الكامل إلا أنهم مسلمون محمديون، أما المحترفون الزائغون فتقيدهم باسم خاص وعكوفهم على عادات وبدع يبتغون بها عرض الدنيا فتحجز ومهدية وعصبية ما أنزل الله بها من سلطان.

ويضيع الباحث عن حقائق الاسلام بين مذاهب الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة وبين الطرق الصوفية فيسأل كما سأل محمد عبده الشاب: ما طريقكم؟ ولا يقف عند السؤال من يرى انتهاك حرمة الله باسم الاسلام والتصوف، فيبرز لمحاربة أصحاب المرقعات الراتعين في كسلهم وبدعهم، وتسوقه انطلاقته الهاجمة فيحمل على أهل الله الصادقين، ويكفر ويطعن حيثما لاح له ما لا يعرفه من صريح الإسلام وظاهره، وهكذا يقف أمثال الشيخ ابن تيمية رحمه الله موقف الخصم العنيد من رجال الله، فهو يكفي ابن عربي لأن هذا الولي حاول أن يعبر عما لا يعبر عنه، وما عدا الصوفي الكبير أن أنبأ بما تحمله الألفاظ عن الحديث القدسي المتواتر الذي أخبرنا فيه المولى عز وجل أنه يصبح عين العبد وسمعه ويده، وما سلم من ابن تيمية إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله روحه، فهو يجله ويعظمه ويشهد بسلامة عقيدته، ويعلم من يقرأ كتب القوم أن الجيلاني رضي الله عنه يكتب موافقه مع الحق سبحانه، فيقول: خاطبني الحق، وسألت الحق فأجابني، ولعل الامام ابن تيمية رضي الله عنه لم ينكر مثل هذا لأنه وقف على الحديث الذي أوردناه يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم

أن في هذه الأمة محدثين، فلم ينكر مقالة الجيلي، ولعل ابن تيمية إنما طعن من طعن سدا للذرائع.

على أن الحق الساطع ببراهينه وآياته تهطع له الأبصار وتدين له العقول، ويرجع علماء الإسلام الباحثون الصادقون إلى التماس وسيلة العلم أسمى من العقل، يلتمسون نور الإيمان والإحسان عند الشيوخ المربين عندما تنقطع بهم أسباب العقل المسجون في عالم الحس المنقطع عن الغيب، وهكذا رجع الغزالي والفخر الرازي وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وكثير كثير من العلماء الاعم، وابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية الأكبر يكتب ثلاث مجلدات في شرح رسالة للهروي أحد كبار العلماء بالله رجال الله، ومن علمائنا المعاصرين من أعوزتهم الأسباب للاتصال بالشيخ البصير المتبع يرشدهم إلى الطريق، فوقفوا من التصوف موقفا خيرا، يمجون الصوفية الصادقين ويشهدون بأثرهم البين القوي في إصلاح الأمة عبر التاريخ، لكنهم لا يعرفون مكان الصحبة والقدوة ويحبسون النصوص فقها باطنيا لتزكية النفس ضروريا يطبقه المسلم على نفسه، ومثالنا الأقوى على هذا الاستاذ المودودي أيده الله وأمد للمسلمين في عمره.

كان علماء المسلمين صوفية في كل بقاع الأرض وفي كل العصور، وكان الواحد منهم يسرد سلسلة شيوخه أو مشايخه في التربية الروحية، ولما طغت موجة الذين تحجروا وحجروا الناس على

تدين قاس أجرد لأثر فيه لرحمة الإسلام ومحبة الله لعباده ومحبة العباد لله ورسوله، أحجم الناس عن التربية الروحية فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فكثير منهم من يرون أن الرسول الكريم ساعي يريد انتهت مهمته، وبئس ما يرون.

طريقتنا الإسلام، لاتلتبس المحجة البيضاء بغيرها من الطرق والمذاهب، وإن كان علماء الكلام ينسقون كلمات ومعاني في موضوع الذات والصفات، وإن كان الفقهاء يكرسون حياتهم، جازاهم الله خيرا، لضبط الشريعة ونصوصها، وإن كان غير هؤلاء يمسك من الإسلام بسبب، فإن الصوفية يلتمسون في المنهاج النبوي وسيلة لاكتساب الطاقة الروحية التي تحقق لهم التوحيد ذوقا وتحبب إليهم شريعة الله والوقوف عند حدوده.

يرى الناس عند الصوفية مظاهر تجلبهم عن الجواهر، فيسارعون إلى الحكم على ما يعملون، الصوفية يلهجون بالمحبة والذوق، ويتحدثون عن الغيب ومعرفة الله، ويلبسون المرقعات ويحضرون مجالس الذكر والسماع، هذا ما يعرفه العامة عن الصوفية، وقد يلتقون بجماعة مزركشة مرقعاتها وافرة لحاها تتحدث عن الأحوال والمقامات والمحبة والذوق، وسلوكها أبعد عن الاسلام من سلوك المردة الكافرين، فيعمم العقل العامي حكمه ويقول: هؤلاء هم الصوفية، وهذه شنشنتهم، وله العذر في ذلك إن كان لايملك من التآني والذكاء ما يمكنه من استقصاء البحث حتى يجلس مع الصادقين،

للناس العذر في عدائهم للصوفية لأن محترفي المرقعات والسبح
كثيرون، يمشون على بطونهم زحفا لكل وليمة.

جمع لفظ الحديث النبوي المحبة والذوق في قوله عليه الصلاة
والسلام: "ثلاثي من كن فيه ذاق حلاوة الايمان: أن يكون الله ورسوله
أحب إليه مما سواه، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن
يعود في الكفى كما يكره أن يقذف في النار"، ومن ذلك قوله: "ذاق طعم
من الايمان رضي الله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسوا"، وتحدث القرآن
الكريم عن الصحبة والاتباع وتصديق المتبوع وتخصيص اللع بعض
عباده بالعلم الدني وإطلاعهم على الغيب في قصة موسى والخضر
عليهما السلام.

ومجالس الذكر وردت فيها أحاديث أوردنا بعضها، ويبقى لنا من
مظاهر الصوفية التي ينكرها العامة فيسألون: ما طريقتكم؟ لبس
المرقعات والسماع، إن الصوفية الكرام أطباء للقلوب وهم يعلمون أن
النفس الحيوانية تهفو دائما إلى عاداتها وشهواتها، فهم يعالجونها
تارة بالعزم والحزم وتارة بالمرادة والملاطفة، يأمر الشيخ مريده
لبس الرمق خاصة أن كان يعلم أن في المريد كبرا واعتزازا بالبز،
يسمي الصوفية هذا بخرق العادة، ولكي يخرق الشيخ للمريد عاداته
ويوصله إلى الموقف الفطري إلى النظرة الفطرية بين يدي الفاطر
الخالق، يمنع من عاداته، فيأمره بالصوم والصمت والعزلة والسهر
ولبس المرقع وغير ذلك، هذه رياضة ومجاهدة، وصفها الغزالي

ووصف مواقع الحكمة في التحلي بها، وتحديد الأعمال والكيفيات في ترويض النفس يرجع أمره للشيخ، ومن الشيوخ من لا يفرض ذلك على مريديه، وعلى قوة حال الشيخ مع الله يتوقف الأمر في ضرورة اتخاذ الخلوة وخرق العادات ومجاهدة النفس بالرياضة.

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يفعلون ذلك، كفاهم الذكر لما قال لهم الرسول الكريم وللناس كافة: " قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، ومن يرفض أعمال الصوفية في المجاهدة بزعمه أن ذلك بدعة ما عرفها الرسول وصحبه، إنما يبرهن على جهله بكوا من النفس وضرورة علاجها لتصفو لها العبادة والسعي إلى الله.

والسماع الصوفي معالجة للنفس بطريقة أخرى، إن النفس الحيوانية تطرب لمساع الموسيقى، أي أنها تلين فتكون لديها قابلية عند نشوة الرب للميل حيثما تمال، فإن كان الغناء دنيويا فاجرا كان الطرب سبيلا للفجور، وإن كان السماع يحمل معاني سامية مالت النفس بسهولة إلى حيث يدعوها النشيد الصوفي، ويكفي أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع أصحابه يغنون وردد معهم عندما بنوا المسجد وحفروا الخندق، ويكفي أن مسجده صلى الله عليه وسلم كان مسرحا لمجلس فرح فيه المسلمون، ذلك حين جاء كعب بن زهير ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته المشهورة، تتضمن غزلا جاهليا، وتتضمن مدحا للرسول وصحبه، وما أنكر ععلى كعب منكر غزله، وإنما طرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنشده:

مهند من سيوف الله

أن الرسول سيف يستضاء به

مسلول

فخلع عليه الصلاة والسلام بردته، يسمع الرسول الكريم وصحبه

عزل فيه مثل قول كعب في مسجد الرسول:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لايشتكى قصر منها ولا

طول

فلا ينكرون، وإنما يطربون لما تخلص إليه الشاعر، وما بقي من

القصيصة صنعة وفن استعملا في خدمة الاسلام وتمجيد الرسول

وصحبه.

ويروي أحد كبار علماء المسلمين، والخصم الأول للصوفية، رحمه

الله، وهو الإمام الشاطبي، في كتابه "الاعتصام" قصة أمسك فيها

الفاروق عم رضي الله عنه برجل كان يتغنى، يقول الشاطبي¹:

"حكى أبو الحسن القرافي الصوفي عن الحسن (يعني الحسن

البصري) أمام الصوفية التابعي الجليل) أن قوما أتوا عمر بن الخطاب

رضي الله عن فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن لنا إماما إذا فرغ من

صلاته تغنى، فقال عمر: من هو؟ فذكر الرجل، فقال: قوموا بنا إليه،

فإننا إن وجهنا إليه يظن أنا تجسنا عليه أمره، قال: فقام عمر مع

جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتوا الرجل وهو

في المسجد، فلما أن نظر إلى عمر قام فاستقبله فقال: يا أمير

المومنين، ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ إن كانت لنا كفا أحق بذلك منك أن نأتيك، وإن كانت الحاجة لك أحق من عظمناه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له عمر؟ ويحك، بلغني عنك أمر ساءني، قال: وما هو يا أمير المومنين؟ قال أتنمجن في عبادتك؟ قال: لا يا أمير المومنين، لكنها عظة أعظ بها نفسي قال عمر: قلها فإن كان كلاما حسنا قلته معك، وإن كان قبيحا نهيتك عنه فقال:

وفؤاد كلــــما عاتبــــته
الهجران يبغي تعــــبي
في مدى

لاأراه الدهــــر إلا لاهيا
فقد بــــرح بي
في تماديه

يا قرين السوء ما هذا الصبا
فنى العمر كذا في اللعب
وشباب بان عني فمضى
قبل أن أقضي
منه أربي

ما أرجى بعده إلا الفنا
ضيق الشيب على مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبدا
في جميل لا ولا في أدب
نفس لاكنت ولا كان الهوى
راقبي المولى وخافي
وارهبي

قال: فقال عمر رضي الله تعالى عنه:
نفس لاكنت ولا كان الهوى
راقبي المولى وخافي
وارهبي

ثم قال عمر: على هذا فليغن من غنى"

يقف العامة عند المظاهر ويسائلون الصوفية ما طريقتكم؟ وهكذا سأل محمد عبده شيخه بعد أن وجد في صحبته راحة وطمأنينة ما كان يعرفهما، يقول السيد رشيد رضى¹ حاكيا كلام محمد عبده بعد أن ذكر كيف كان في صعره عازفا عن الدراسة حتى لقي خاله، وكان صوفيا طريقته مدنية:

" في اليوم السابع سألت الشيخ: ما طريقتهم، فقال: طريقتنا الإسلام، أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين؟ قال: لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التفاهة من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين لسبب ولغير سبب، هذه الكلمات كانت كأنها نار أخرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم، متاع تلك الدعاوي الباطلة، والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجحون ، وإن كنا في غمرة ساهون، سألته: ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال : لا ورد لنا إلا القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أرباعا مع الفهم والتدبير، قلت: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا، قال : أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة، وبركتها يفيض الله عليك التفصيل، وإذا خلوت اذكر الله — على طريقة بينها —. وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن، فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطيّر بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي مكان ضيقا،

¹ في كتابه "تاريخ محمد عبده" الجزء الأول ص: 22 — انظر أيضا من هذا الجزء صفحات: 20 وما بعدها، 106 وما بعدها، 927 وما بعدها

وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان ونزوع النفس إلى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد اماماً يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد، هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من محبة أحد أقاربي وهو الشيخ محمد درويش خضر من أهل كنيسة أورين من مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتني إن كانت لي سعادة في الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي".

شهادة محمد عبده نشيد فرحة عظيمة بلقاء الشيخ وصحبة الشيخ، الشيخ مفتاح سعادتته وهو الذي كشف له من أراه ما كان مستوراً، ووسع له ما كان ضاق، وأيقظه من غفلته ليطلب المعرفة وأدب النفس، وبهذه البساطة، ببساطة اللقاء والصحبة والذكر، ببساطة التجربة الشخصية الصوفية، تجدد لرجال كرام دينهم وحياتهم وانفتحت أمامهم سبل الخير وصفت لهم عكرات الأيام، ومن صحب الكرام شم عطرهم وتزود منه على حد تعبير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبقي لمحمد عبده هذه الذكرى العطرة، ولم يسلك رحمه الله على يد شيخ مرب يبلغه مقصده، وإنما عكف على التعلم والتعليم ترده إلى الخير بركة الشيخ درويش، وظن رحمه الله أن التصوف صحبة

ساعة وهبة من نسمات الخير يعيشها المرء لحظة ثم يمضي، لذلك نجده في أخريات يفكر في الانعزال عن ميدان السياسة ليخلو بعشرة شبان يربيههم تربية صوفية، وهكذا يغلط كبار علمائنا فلا ينفذون إلى حقائق السلوك وما يتطلبه من صبر ومداومة للذكر وقيام بشروط الصحبة حتى يأتي أمر الله.

البناء: يجدد الله للناس آيات فيبعث فيهم دعاة قائمين على الحق يتخذهم سبحانه حجة على خلقه، من هؤلاء الرجال في عصرنا الشيخ حسن البناء، رجل مر في سماء المسلمين مر القمر المنير، أضاء لقوم الطريق، وكان فتنة للمترفين والفاسقين، فحاربوه رضي الله عنه حتى قتلوه، وقد ظهر البناء في فترة عمية، الإسلام أنكره أهله، والثقافة الجاهلية سمعت فكر الولدان المغرورين، فكان كلما اهتدى به جيل كان ولا يزال جيل التضحية من أجل دين الله وجيل الكرامة والعزة بالشهادة لله.

شيخ الإخوان المسلمين رجل مجدد بعثه الله ويسر على يديه انبعاثا كان وعدا مشرقا فرحت بطلعته أفئدة المومنين، وحاول إطفائه أعداء الدين، ووقع في فتنته حتى بعض مهازيل القراء وديدانهم.

وشيوخ الإخوان المسلمين معجزة قائمة بذاتها، إنه شاب برز من حيث لا يحتسب الناس بروز الشهاب الثاقب، حادثة سنه وضعف وسائله حير الناس لما رأوا نجاحه الباهر واستقطابه للهمم ومحبة

القلوب حتى قال عنه أديب العربية الاستاذ الجليل علي الطنطاوي بعد أن أشاد بخصاله النادرة¹:

"رحمة الله عليه، فلقد كان مجدد الإسلام في هذا العصر وكن من نواذر الدنيا وآحاد الدهر، وما أظن أنني سأرى مثله أبداً".

فمن أين تكونت هذه الطاقة ومن أين جاءت هذه الجاذبية وهذا التأييد الإلهي الذي به تيسر للشاب الطاهر بناء جماعة طاهرة مجاهدة؟ إنها الصحبة، وإنه سر الله الذي يودعه قلوب الذاكرين، والشيخ البناء رضي الله عنه يلح في كتبه على هذه النقطة، ويلح على التربية الروحية وعلى الذكر والمداومة وعلى الأوراد والوظيفة الجماعية، ويلح على الروحانية الصوفية، ومع ذلك فقليل جداً من الإخوان المسلمين من يدرك تمام الإدراك أنه ما كان لحسن البناء أن يرشد ويربي لو لم يكن هو قد تلقى تربية عن شيوخه الصوفية، وأن سر نجاح الدعوة الإخوانية لا يكمن في الفكر الإسلامي والخطب لكن في صفاء قلب الشاب، صفاء أورثه إياه ما كان اقتبس به بالصحبة والذكر من نورانية لا إله إلا الله.

وقد كتب البناء رحمه الله مذكراته يذكر فيها صحبته منذ الصبا، ويتحدث فيها عن شيخه ومجاهداته، ونورد فيما يلي فقرات من مذكراته شهادة للتجربة الشخصية التي عرفها البناء ومارسها وصبر عليها سنوات طويلة، ولصبره على الصحبة والذكر كان له من القوة

¹ مجلة "المسلمون" العدد العاشر، رجب 1375، ص 23.

والتأييد، ولم يقدر لمحمد عبده رحمه الله، وله صحبة أيام معدودات، أن يربي ويبني ماكان يطمح إليه.

هذا حسن البناء الطفل يلتقي برحمة الله ويحس بسكينة الله في مجلس الذكر، ويكون ذلك أول خطوة للداعية الموفق الجليل في طريقه إلى الله، يقول¹:

" وفي المسجد الصغير رأيت "الاخوان الحصافية" يذكرون الله تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة، وكنت مواظبا على حضور درس الشيخ زهران رحمه الله بين المغرب والعشاء، فاجتذبتني حلقة الذكر بأصواتها المنسقة ونشيدها الجميل (يقصد السماع الصوفي) وروحانياتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر الله تبارك وتعالى، فواظبت عليها هي الأخرى، وتوطدت الصلات بيني وبين شباب هرلاء الاخوان الحصافية... ومنذ ذلك الحين أخذ اسم الشيخ الحصافي يتردد على الأذن فيكون له أجمل وقع في أعماق القلب، وأخذ الشوق والحنين إلى رؤية الشيخ والجلوس إليه والأخذ عنه يتجدد حينا بعد حين، وأخذت أواظب على الوظيفة الزروقية صباحا ومساء.

اتصل البناء الصغير بالاخوان الحصافية بعد وفاة شيخهم، فقد مات الشيخ البناء في الرابعة من عمره، وإنما نفحته صحبة الأفاضل

¹ مذكرات الدعوة والداعية، الطبعة الثانية 1376، ص: 9.

من أصحاب الشيخ، ويسمى التعلق بالشيخ بعد وفاته في اصطلاح الصوفية تبركا في مواجهة السلوك الصوفي، سلوك المقامات والرقى إلى الكماليات، الذي لا يكون إلا على يد شيخ مرب حي مأذون أذن التربية، على أن شخصية السيد الحصافي رضي الله عنه وورعه واستقامته كان لها أبلغ الأثر في قلب الشاب المتبتل فلما اقترن ذلك الحب بالذكر والتلاوة كان له بركة عظيمة أخرجت لنا حسن البناء الفذ رحمه الله، ها هو يصف لنا شيخه الراحل:¹

"فكانت دعوته مؤسسة على العلم والتعليم والفقه والعبادة والطاعة والذكر، ومحاربة البدع والخرافات الفاحشية بين أبناء هذه الطرق، والانتصار للكتاب والسنة على أية حال، والتحرز من التأويلات الفاسدة والشطحات الضارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة على كل حال حتى أنه غير كثيرا من الأوضاع التي اعتقد أنها تخالف الكتاب والسنة مما كان عليه مشايخه أنفسهم، وكان أعظم ما أخذ بمجامع قلبي وملك علي لبي من سيرته رضي الله عنه شدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه كان لا يخشى في ذلك لومة لائم، ولا يدع الأمر والنهي مهما كان في حضرة كبير أو عظيم".

¹ نفس المصدر ص : 10.

عصم الله حسن البناء من أصحاب البدع والفتن من محترفي الزي والسبحة، وظهرت له مبشرات ثبتته على عمله حتى بايع البيعة الصوفية، يقول¹:

" وظلت معلق القلب بالشيخ رحمه الله حتى التحقت بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور، وفيها مدفن الشيخ وضريحه وقواعد مسجده الذي لم يكن تم حينذاك، وتم بعد ذلك، فكنت مواظبا على زيارته كل يوم تقريبا وصحبت الاخوان الحصافية بدمنهور، وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة كل ليلة، وسألت عن مقدم الاخوان فعرفت أنه الرجل الصالح التقى الشيخ بسيوني العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لي بأخذ العهد عليه، ففعل، ووعدني بأنه سيقدمني للسيد عبد الوهاب (نجل الشيخ) عند حضوره، ولم أكن إلى هذا الوقت قد بايعت أحدا في الطريق ببيعة رسمية، وإنما كنت محبا وفق اصطلاحهم".

ويكتب البتاء بعد هذا عن التصوف ومكانه في التزكية الروحية وكيف انحرف المتصوفون المتفلسفون ويلج على ضرورة إصلاح الطرق، ثم يتحدث عن تبثله ومواظبته على الذكر، وكيف كان يرحل مع الاخوان رحلات طويلة لزيارة أضرحة الصالحين، وكيف كان يعتزل أحيانا ويصوم عن الكلام متوجها إلى ربه يفكر في آلاته.

¹ نفس المصدر ص: 13.

ومن ثمرات الذكر الرؤيا الصالحة وهي المبشرات التي يرثها
المومن عن نبيه، وهي نوع من الكشف يكرم الله به الصادقين من
عبادح، يقول البناء¹:

وإن من فضل الله تبارك وتعالى أنه يطمئن ويسكن نفوس عباده،
وإذا أراد أمرا هيا له الأسباب، فلا زلت أذكر أن ليلة امتحان النحو
والصورف رايت فيما يرى النائم أني أركب زورقا لطيفا مع بعض
العلماء الفضلاء الأجلاء يسير بنا الهوينا في نسيم ورخاء على صفحة
النيل الجيلة، فتقدم أحد هؤلاء الفضلاء، وكان في زي علماء الصعيد،
وقال لي: أين شرح الألفية لابن عقيل؟ فقلت: هاهو ذا، فقال: تعال
نراجع فيه بعض الموضوعات، هات صفحة كذا، و صفحة كذا،
لصفحات عينها، وأخذت اراجع موضوعاتها حتى استيقظت منشرحا
مسرورا، وفي الصباح جاء الكثير من الأسئلة حول هذه الموضوعات،
فكان ذلك تيسيرا من الله تبارك وتعالى، والرؤيا الصالحة عاجل بشرى
المومن، والحمد لله رب العالمين"

حسن البناء رجل أكرمه الله بمحبة أوليائه وأجلسه في مجالس
ذكره، وأيقظ فيه غيرة على الاسلام وتشوقا لموعد الله وتوقانا لنيل
رضاه، فمن صحبة الأخيار في قلبه ها لحب الإلهي الذي يغمر قلب
المومن فيحب لإخوانه ما يحب لنفسه، ومن صحبة الأخيار توطدت في
نفسه مثل الاستقامة على دين الله واخلاص العمل له، ومن نور

¹ نفس المصدر ص : 32.

الأخيار اقتبس حتى أصبح لله ذاكرا وإلى دينه داعيا، وعاشر كثيرا من الناس بعد ذلك فاطلع على ما يرتكب باسم التصوف من الحماقات والبدع التي وقاه الله شرها إذ وضعه صغيرا في حجم الرجال الحصايفة رضي الله عنهم.

الصحبة والأواصر: يكتب المسلمون كثيرا في هذه الأيام عن الصوفية والتصوف، منهم من يكتب تاريخا يتقعر في فهمه فلا يتجاوز السطح لعمايته عن الهداية والنور الذي أنزل إلينا مع قرآن ربنا، ومنهم من يكتب مناقب أولياء الله وتاريخهم تبركا ومحبة، ومنهم من يبحث عن اسلامه ويشتم عند أهل الله عبير الصدق والسمو الروحي، ومنهم من يكتب شهادة لله يؤديها لإخوانه دالا على الطريق متحدثا عن تجربته هو، من هؤلاء البناء رحمه الله، ومنهم السيد عبد القادر عيسى الذي كتب بعنوان "حقائق حول التصوف" كتابا جمع فيه آداب وعلم الصوفية الكرام متحدثا من زاوية من صحب وذاق، ولعل من أحسن ما كتب مؤلف السيد عبد الباري الندوي بعنوان : "بين التصوف والحياة" في كتابه حديث عن شيخه ونقل لأقوال الشيخ وأحواله، وقد قدم الكتاب للقارئ الأستاذ المجيد السيد أبو الحسن الندوي، يقول السيد عبد الباري الندوي تحت عنوان "الصحبة والأواصر".

"إن ضرورة البيعة العظيمة هي هذه الرفقى، أو صحبة الشيخ وإحكام الرابطة به، ليسلم الطالب من أخطار الطريق وعثاره، وهو أمر بديهي لا يحتاج إلى دليل، فالرجل لا يستطيع أن يستغني حتى في

الأمر التافهة الواضحة من أمور الدنيا عن صحبة ماهر عارف بحقيقته وكنهه وإعانتة للبراعة فيه، وشتان بين معلومات فن والتبصر في ذلك الفن... أما في هذه الأيام فقد أصاب الناس عدوى هذا المرض كالوباء (مرض الاستغناء عن المرشد الناصح)، وبالأخص في أمر دينهم، بحيث ينهضون للتجديد والاجتهاد في الدين، فضلا عن الاتباع، معتمدين في ذلك على مجرد القراءة والمطالعة، فمن نتيجة ذلك أن كثيرين من أصحاب المعلومات الدينية والدراسات الواسعة الذين لم يصبحوا شيئا يضلون ويضلون وإني لا أعد حالة أمثال هؤلاء إلا كحالة مسلم حديث الإسلام، تلقى إسلامه كله من مطالعة الكتب، ويقوم بكل أعماله من صلاة وصيام وزكاة وحج، وجميع فرائضه وسننه وأركانه وشروطه، باستعانتة بالكتب، ومن المطالعة فيها، إنه ليستطيع أمي تربي في بيئة المسلم المتدينين، وفي وسط ديني، أن يصلي ويصوم بطريق أحسن، بمجرد مشاهدة آبائه ومن حوله يصلون ويصومون وكذلك لاتجد فنا من الفنون ولا شعبة من شعب الحياة إلا ولا بد للبراعة فيها من صحبة رجل ماهر فيها".

ويذكر الندوي بعد هذه المقدمة التي قد لا يستسيغها كثير من الناس حديث شيخه في الموضوع، ومعتذر جدا من لم يجلس في مجلس عارف بالله أن يستثقل كلام الندوي، يقول شيخ السيد الفاضل عبد الباري الندوي:

"أترى وصل أحد إلى الكمال والجودة بمجرد مطالعة الكتب؟ وإنه لأمر ملموس واضح أن الرجل لا يقدر على عمل النجارة إلا إذا جلس مع النجار زمانا، ولا يقدر على أن يتناول آلة من آلات النجارة البسيطة ويرفعها كما يرفع النجارون، إلا إذا جلس مع نجار حاذق يتعلم عليه، ولا يقدر على إجادة الخط إلا إذا جلس عند الخطاط أبصر كيف يتناول القلم، وكيف يمره على الورق، فغاية الأمر أن أحدا لا يستطيع أن يصبح كاملا إلا إذا جلس عند شيخ كامل، وأن صحبته لازمة".

ويدلي السيد الندوي بعد هذا بشهادته، يقول¹:

" وإنه إذا تسنت له الصحبة لأد أطول استنارت بصيرته حتى يصبح يعتقد حالته السابقة شيئا من حماقات والسفاهات، وقد كان هذا شأن محرر هذه السطور وقصته، فقد كنت درست كتبا، وعشت في وسط أصحاب لالعلم المجرد، ونلت شهادة الفراغ، وكنت أعد نفسي من الكتاب والمؤلفين، ولم أكن دون أترابي وزملائي في الفطنة والذكاء، بيد أنني بعدما حضرت مجالس حضرة الشيخ عدة مرات، استبان لي أنني لم أكن إلا رجلا من الأغبياء الأجلاف من ناحية الفهم الديني والبصيرة الدينية، يقول الشيخ:

" خذ رجلا غير عالم، مهما كان عاقلا، ولم يكن صاحب عالما محققا، فابعثه في صحبة محقق لسته أشهر، إنني أحلف بالله أن ذلك

¹ المصدر السابق ص : 131.

المحقق سيثبت ويجعل هذا العاقل مقرا بلسانه بأنه سيفه، وليس عندي طريق للإقناع من أن أخلف بالله، وليس وراء الله للمرء مذهب، فلو احتجت إلى حجة أكبر من هذه، فعليك بالامتحان والتجربة العلمية، وذلك بأن تطلب اجازة لمدة سنة أشهر، واسألي عن اسم محقق، ثم ترى أنك ستقدم وأنت تقول: "إني عاقل"، وتتصرف وأنت تقول: "إني كنت سفيها" لأنك كسبت العقل ببركة صحبة ذلك المحقق".

دع البصيرة العلمية والدينية، أو الباطنية، فمقامها عال، وخذ الحياة اليومية؛ فالذي نسميه فيها: الأدب والحضارة والأناقة لقد شعرنا، بعدما حضرنا مجالس الشيخ وصحبناه أياما، بأننا كنا مخدوعين وآخذين بالقشور والمظاهر، حضر شاعر من جوينبو وقد كان متحليا بالمدنية وأخلاقها ومظاهرها، ولما رجع بعد قضاء عدة أيام (مع الشيخ) كتب رسالة فحواها:

" ان الذي كنا نسميه ثقافة وأدبا عرفنا عنها، بعد ما حضرنا هناك في "تهانة بهون" أنها لم تكن من الثقافة والأدب في شيء".

وقال طبيب بعد ما قضى عدة أيام ههنا: " إن الأمور التي كنا نعدّها من الكمالات ظهرت نقائص، والتي كنا نعها فضائل ظهرت معاييب".

إلى هنا نقرأ في كتاب السيد عبد الباري الندوي، والله دره وهنيئا له إن ظفر بالشيخ المربي الذي قلب له باطن الأشياء حتى بدت له حقيقتها، وأذاقه بكيميائه الروحية سر الوجود، وقد والله جربنا وكنا

نعد أنفسنا كما وصف الندوي فبدا لنا بصحبة أهل الله أننا لم نكن إلا سفهاء، ولا يحسبن الخلي أن الشاعر والطبيب نبذا الحضارة والثقافة بعد صحبة شيخهم، إنما هي يقظة إلى قيمة الإنسان في الكون، فقد كانت تستهلكه وتذهب به قيم نسبية يعبدها تسمى حضارة وثقافة، أما بعد يقظته إلى قيمته عند الله فهو يتحكم في القيم النسبية ويصرفها مصارفها ويسخرها لإيقاظ إخوانه من الغفلة المهلكة عن الله وعن اليوم الآخر، والسالك من الصوفية لا يدبر عن الدنيا وإنما يكون أحرص الناس عليها لأنها مجال الربح والخسارة في حساب الله وميزانه.

الكرامات والتجليات: الدكتور عبد الحليم محمود شاب معاصر، هو من علماء المسلمين الأجلاء، تعرفت عليه في بعض كتبه فوجدت عنده نسمة أهل الله وأحبيته قبل أن أطلع على كتابه في سيرة مولانا أبي الحسن الشاذلي، وعندما قرأت هذا الكتاب علمت من أين كان للرجل طلاوة وحلاوة، وتبدي الأقلام وما تخفيه الصدور، الدكتور عبد الحليم محمود رجل صوفي متعلق بروحانية السيد الشاذلي رضي الله عنه، وهذا ما يسميه الصوفية تبركا، إذ لاتصح الصحبة إلا للأحياء، أما الشهداء الأحياء عند ربهم فإنما يتبرك بهم، ويرحم الله الشيخ التجاني فقد علمنا أن المنتقلين للدار الآخرة لا يصحبون، أي لا يحصل للمريد سلوك في المعراج الروحي إلا أن صحب الأحياء، والدكتور عبد الحليم لم يخبرنا بصاحبه إنما حدثنا عن ضيخ المشايخ الشاذلي رضي الله

عنه وعنا به، والذي سرنى كثيرا أن الدكتور الفاضل تحدث بكل صدق وأمانة عن كرامات الأولياء وعما حصل له من تجليات نورانية، ويفيد الدعوة إلى الله، والناس في ظلام وحيرة وكفر، ان يشهد المومنون لله تعالى بما ييسر الله لهم من تيسير الاسلام ورحمته وبركته، والذي يحدث بما رأى وسمع وذاق يضيف شهادته لسلسلة الشهادات التي أثبت بها أولياء الله على مر الأزمان إيمانهم بالله وبغيبه لأنهم اتصلوا بهذا الغيب حتى صار إيمانهم يقينا وعلمهم تحقيقا.

كتاب السيد الدكتور عن شيخه أبي الحسن كتاب نفيس في خاتمته ذكر للكرامات وشواهد على ثبوتها من الكتاب والسنة، وأهم من كل ذلك في نظرنا شهادة الكاتب نفسه، يقول¹:

" في فترة من الفترات ابتىني الله بموضوع شق على نفسي وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء مدة كنا ناجأ فيها إلى الله طالبين الفرج.

وذات يوم أتى عندي بعض الصالحين، وكان على علم بهذا الابتلاء، وأعطاني ورقة كتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اقرأها واستغرق فيها وكررها منفردا في الليل لعل الله يجعلها سببا في تفريج هذا البلاء.

¹ كتابه " أبو الحسن الشاذلي " القاهرة 1967 ص : 204.

واعتكفت في غرفتي بعد صلاة العشاء، وأضأت نور الغرفة، وأمسكت الورقة بيدي وأخذت في تكرار الصيغة واستغرقت فيها، وإذا بي أرى فجأة أن الحروف التي كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نورا، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نورا في وس هذا النور.

فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت ، وأن هذا النور رمز لذلك وفعلًا أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدهته بنفسي:

في ذات صباح كنت جالسا في المنزل، في غرفة المكتب كعادتي، وكنت في تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت رأسي ناظرا أمامي، وإذا بي أجد أمامي إنسانا فأخذت في تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فرع.

كان طويلا، أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة، يميل لونه إلى السمرة، وعلى رأسه شال أبيض أو ما يسميه الحجازيون: "الغطرة" وكان في وقفته منحنيا قليلا، وقد تأملت ملابسه أيضا في تفاصيلها وشكلها.

لم يتحدث معي ولم أتحدث إليه، وبعد فترة ونحن على هذا الوضع، أنظر إليه في تحديق ويمد عينيه إلي في نظرات ثابتة، أخذ يشف شيئا فشيئا، وألاحظ أنا في وضوح التدرج في هذه الشفافية،

وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه، ذلك ما شاهدته بنفسى وماذا يكون خرق العادات غير هذا.

إن الذين ينكرون خرق العادات، وينكرون الكرامات لأولياء الله إنما ينكرون شيئا أثبتته تجارب الانسانية منذ أن وجدت الانسانية، وأثبتته القرآن الكريم، وأثبتته جمهور الأمة".

انتهى ما أردناه من كلام العالم الشاب، وفرق ما بين العقلية الخرافية وعقل المومن الساعي إلى ربه أن العقلية الخرافية تحوم كالفراش حول مناقب الأولياء وكراماتهم وتجعلها هدفا لآمالها الواهية، وتتحدث عن الأموات وتنسب لهم من الخوارق ما كان وما لم يكن، تستحلى ذلك وهي نفسها أبعد ما تكون عن سلوك المومنين وعملهم، بينما يتعرق المومن على الغيب، بالايمان بما أخبره به ربه وباليقين إن أكرمه الله ويسره لذكره حتى يكشف عنه حجاب الكثافة الحسية، حتى إذا تيقن بوجود غيب الله وأمره فزع إلى الأوامر والنواهي ليكون في عمله وسيرته كما شاء الله، مستقيما على الكتاب والسنة ساعيا فيما يصلحه ويصلح أمته.

لئلا تأثم قلوبنا: أخبر الله عز وجل في كتابه أن من كتم الشهادة، الشهادة الشرعية التي تترتب عليها حقوق الناس، فإنه آثم قلبه، والشهادة لله أسمى من هذه الشهادة الشرعية، ولدي شهادة أوديتها أخشى أن يأثم قلبي، وأتأثم من الكتمان في زماننا هذا الذي طغت فيه الفتنة وتلاطمت فيه أمواج الضلالات والخرافات والأوهام الفلسفية

والشبه علمية، أتائم من الكتمان لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم
توعد بالنار من كتم علما كان عنده، والمسلمون اليوم يجهلون دينهم،
وحتى من كان على مسكة من إيمان تخرج أن يقول على ملا من
الناس: إني آمنت بالله وبغيبه، ومئكته وجنه، وجنته وناره.

وسبة كبيرة في أفواه السفهاء من أبنائنا وأساتذتهم من أعدائنا
تلك التي تسم المسلمين بالغفلة وتسم عقيدتهم بالغيبية، لأن دين الله
وقرآنه مبني على أنه سبحانه الفاطر الذي علم الإنسان عن طريق
العقل علوم المادة المحسنة وعلمه عن طريق الوحي والنبوة علم ما لا
سبيل للعقل في ادراكه، ويأبى الملحدون أن يكون ثم غير ما وصلت
إليه حواسهم، لهذا تكون شهادة الصوفية الأبرار، مهما تنوعت ،
تعزيزا لدعوة الاسلام.

ويرحم الله أخي عبد الباري الندوي الذي شهد على نفسه، كما
أشهد على نفسي، إنه كان يحسب نفسه كيت وكيت وكيت قبل أن
يجلس بين يدي شيخه، ولست بحمد الله أخشى أن أتهم بدعوى صلاح
وتقوى، فقد من الله علي بقاء أوليائه وصحبته فانكشف لي من
جملة الأوهام وهم نسبة العمل إلى نفسي، فإن شهدت بفضل فهو
لذوي الفضل علي، وإن تحدثت فيما أنعم على ربي، وأنا المفلس إلا
من كرمه تعالى وعطائه.

كنت منذ صباي أبعد الناس عن الصوفية وعن اعتقادهم، وكنت،
تدفعني ريح تيار كريه، أو قل تيار ريح كريهة، أكفر الطريقين لشركهم

بالله في زعمي، وزادني نفورا من الصوفية والطريقة أن من المحترفين للسبحة من كانوا مطية للاستعمار ويسخرهم في أغراضه يمشون على بطونهم.

ولما أراد الله بي خيرا انبهني إلى نفسي، وكنت عندئذ في أوج ما يمكن أن يطمح إليه مثلي من صحة وعافية وسمعة ومكانة اجتماعية لم أكن أعلم شيئا عما يسمى بالأزمة الروحية كما وصفتها تجربة الغزالي مثلا، لكن حصل لي بأس من نفسي وتوقان لمعرفة الحقيقة عن وجودي، وكنت نشأت في عبادة الله وتلاوة القرآن منذ صباي، فما أحد أحق بالاستغناء لما عنده مني، وكنت قرأت كتبا كما يعبر عبد الباري الندوي.

فلما خلق الله تعالى الكريم في اضطرار إليه التفتت إلى الكتب استنطقتها، وعجت على أصحاب الرياضات المجوس وهالني ما عندهم من خرق العادات ودرست كتبهم، لكن الله حماني من أميل إلى مذاهبهم بما سبق في علمه، واطلعت في تجارب اليهود والنصارى الروحية، ثم رجعت إلى كتب الصوفية أستقصيها وأنشد المفتاح الذي يفتح باب المعرفة، فوجدت أنهم رضي الله عنهم مجموعون على أنه: "من لاشيخ له فلا مدخل له في أمرنا هذا، ويلحون على أن صحبة الميت لا تكفي، وكنت أنظر فيما كتبه بعض فطاحل العارفين بالله فلا أطيق الاستمرار في قراءتهم لغرابة ما ينطقون.

ولما أياسني طلب الشيخ، لما أراه من عموم الكفر وقلة الصالحين، عولت على الرجوع إلى المجاهدة بنفسي وشمرت على ساعد الجد، ودخلت في مهامه بلا مرشد فداومت التلاوة والذكر والصوم والجوع والسهر والعزلة، وبمثل هذا يتراوحن المتروحون ويجذب المجايب، وفعلنا شعرت بأن زمان نفسي أخذ يفلت من يدي ولا أزداد مع الأيام إلا انغزالا واستجاشا من الناس وضيقا بهذه الحياة الدنيا.

حتى إذا أراد الله أن يتم علي نعمته لقيت على غير ميعاد رجلا لم أكن أعرفه، نطق من دون أن أستنطقه، وأخبرني بأن ما كنت أطلبه موجود، وأن الشيخ المربي في البلاد على قيد أنملة ممن كان يئسا من وجود شاذلي أو جيلي في هذا العصر.

كنت قرأت كتباً وفارقت من هذه الثقافات الأجنبية، وكانت العقلانية الماركسية الفرويدية مرتعا لنشاطي الفكري منذ أمد بعيد تعيس بل تعشش في ذهني جنبا إلى جنب مع إيمان فاتر لاتذكيه العبادة التي نشأت عليها، ولم تكن العقلية العقلانية تفتت أثناء أزمتي في البحث عن الحقيقة، لذا دخلت طريق القوم أحمل معي أوزار عادات جاهلية وعبء أوهاق ثقافية تؤله العقل لا يضعفها تشوقي وتوقاني للمعرفة الكاملة، وأخذ عني العهد الصوفي مقدم الطريقة، وحضرت أول مجلس للذكر فهالني ما رأيت؟ قوم يذكرون الله ويبكون ويصعقون وتقشعر جلودهم وتضطرب أعضاؤهم، ونفرت أشد النفور مما رأيت كما كنت

نفرت من المسلمين الطائفين حول الكعبة يتراكمون ويتزاحمون بثياب رثة وهيات ينكرها من تعود مجالسة العصريين الأتقيين، كنت قرأت في الكتب وصفا مثاليا للمسلم المثالي، وكان الخيال سبق إليه صورة "جنتلمان" حسن البزة متزن الحركات، وهذه مأساة شبابنا عشتها مرتين، وأنكرت حقيقة الإسلام حول الكعبة في أشخاص رجال ونساء حملهم الشوق والمحبة والطاعة لله إلى بيت الله فجاءوا كما هم لا تتم الثياب والهيآت عن إيمانهم وإنما ينم عنه حماسهم وصدقهم، وأنكرت حقيقة الإيمان في مجلس الذكر لأن في مجلس الذكر رجالا من المساكين رثة ثيابهم لكن قلوبهم غضة ندية تتحرك لذكر الله وتضطرب الأعضاء وتطفح العيون بدمع الشكر لله والمحبة له تعالى.

وألهمني الله الصبر على حضور مجالس الذكر، وأخذت أتلو الأوراد المأذونة بعد أن طرحت أورادي التي أنشأتها لنفسي من قبل، وكان ذلك علي شاقا جدا، ولبثت نحو ثلاثة أسابيع أو أكثر أحضر مجالس الذكر وأتلو الأوراد وأنا في شك من أمري، ألسنت مغرورا أن أتبع رجلا، ورجلا لما أراه ولا أعرف عنه إلا ما أخبرني به رجل لقيته على غير ميعاد وأخبرني دون أن أطلب إليه ذلك؟ ثم أرجع إلى نفسي وأتأمل ما يمكن أن يسميه الغافل صدفة فيخيل إلى أنها كرامة من الله وتيسير، ألسنت أطلب شيئا مربيا من زمان؟ ثم أليس القوم يؤكدون أن من صدق في الطلب فلا بد أن يلتقي بمن يأخذ بيده؟ ثم ما بال رجل لا أعرفه يخبرني بوجود الشيخ في لحظة كنت فيها في اضطراب كامل؟

بعد أسابيع قليلة كنت جالسا أتلو أورادي أذكر الله منفردا فشعرت فجأة بحالة جديدة، كنت قرأت عند أصحاب الرياضات المجوس اليوكيين وصفا لما يسمونه الصمت الباطني، وكانت حالتي المفاجئة أمثل ما توصف به انها صمت باطني، راحة شاملة لاتوصف، ذهبت الهموم والأفكار والأتعاب وحل محلها الهدوء، انها الطمأنينة التي تحصل بذكر الله كما أخبر الله في كتابه، لست أدري تهل كانت حالة عابرة أم هي دائمة متصلة ، لا أستطيع أن أحكم اليوم، وإنما حكمت في تلك اللحظة نفسها لأنني كنت حديث عهد بالحالة السابقة، أما وقد جمع الله بكرمه سبحانه همومي فجعلها هما واحدا هو جنبه المقدس فأخال اليوم أن مقارنة حالة الغفلة بحالة الذكر لا يتأتى أبدا التعبير عنها، ويرحم الله السيد التعانوي شيخ عبد الباري الندوي حين تدى من له رغبة في ذوق ما يذوقه الذاكرون، لا أطلب أنا ممن له رغبة، وحتى ولو كان معها شك، أن يأخذ إجازة ستة أشهر، بل يضع أسابيع، بل أسبوعا واحدا، وليسألني، كما قال الشيخ التهانوي، عن اسم عارف بالله يعاشره ويجلس بين يديه يذكر الله أسبوعا.

بعد شهرين من دخولي الطريق سافرت إلى حضرة الشيخ رضي الله عنه، وبقيت في ضيافته ثلاثة أيام، وفي أول مجلس معه رحمه الله ذقت الحال، والحال قوة باطنية وحلاوة تساور القلب والجسم معا، ويصحبها بكاء وقشعريرة، وكنت قرأت عند الصوفية وصفا للحال وما عرفت ما يعنون حتى ذقت، ومن الناس من تكون طلبته في ريق الله

حصوله على الحال، ومنهم من يذهب به الحال ويستخفه فيفتقر عن ذكر الله وعن العمل الصالح، ويتحول حاله إلى اضطراب شيطاني إن لم يعصمه الله، والحال وجد لا يملك الإنسان معه نفسه، فهو غلبة، ومن قرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ن يذوق الحال يجد وصفا لحال الرسول الكريم حين ينزل عليه الوحي فيتصبب عرقا وتأخذه البرحاء، وحين يخطب في الجمعة فتعلو نبرة صوته ويحمر وجهه، هذه أعراض الحال وهي تتنوع، والناس يعرفون ما يسميه بعض الصوفية عمارة، وما يسميه الملاحظون حلقات الرقص الصوفي، إن هذه العمارة استدعاء لحال وتعرض له وتواجد وحنين إلى لذة الحال، ومن أنكر على الذين يفتعلون الحال ويصطفون "ليرقصوا" معذور ومعه حجه، لاسيما أن تدهور الصوفية المقلدون إلى احتراف الرقص ونسبوه للصوفية الأبرار على أن الحال لا عبرة به وليس المقصود من السلوك، بل هو يكون أحيانا حجر العثرة والملهاة المهلكة للسائر متى وقف عنده.

ورجعت من ضيافة حضرة الشيخ في حاة لأجيد أن أعبر عنها، يكفي أن أقول إنني انتقلت من حالة الغفلة الدوابية إلى حالة يقظة وذكر.

وكنت أسمع كثيرا من اخواني الذاكرين يخبرون عما يحدث لهم من تجليات وفتوحات، وأسلم لهم الأمر كما يدعو لذلك أدب الطريق، حتى جاءتني الرؤيا الصادقة بفضل الله تعالى وتلاها تجليات نورانية

في حالة اليقظة لا في النوم، ورأيت الأجسام النورانية على غرار ما قص الدكتور عبد الحليم محمود، وحصل لي من حالات الكشف الشيء الكثير، ولست أفخر بما ليس لي فيه يد، فنعمة الله تستدعي منا الشكر بالتحدث عنها.

كنت أعلم أن الصوفية يأمرن المريـد بـكتمان أحواله مع ربه يخافون عليه الغرور أو العوائق النفسية، لكن شيخي الأول رحمه الله كان يأمرنا بالأنا نكتم، لأن تحدث بعضنا إلى بعض بما يفتح الله عليه يقوي العزائم، وكذلك كان الرسول الكريم مع صحبه يقصون عليه كل صباح، بطلب منه، رؤاهم فيؤولها أو يؤولونها، وكان وقتنا هذا بعد أن عم فيه اللام العقلاني بحاجة إلى من يجهر بالغيب والايـمان به، واكتب كل هذا وأنا واع كل الوعي أن مثقفينا سيأخذ بعضهم شهادتي وشهادة أمثال الدكتور عبد الحليم محمود مأخذ الهزل سيجدون في ترسانة التحليل النفسي هنات يفسرون بها الانحراف المرضي الذي يصاب به من يزعم أنه رأى ما لا يراه الناس، ولا يهمني أصحاب السوح والحروف، أما من يرغب في المعرفة فله مني ومن السيد التهانوي رحمه الله ورضي عنه تحد أن يخصص أياما يسألني فيها عن اسم شيخ يذكر الله في حضرته. أمر مرا سريعا على الكرمات لأنني حضرت منها وسمعت من اخواني الثقات ما لا أحصيه، لكنني أذكر أعظم الكرمات وأنصعها بيانا واعرابا عن الحق والتوفيق، أذكر ما رآته عيناى من تحول الناس فجأة من الشقاء للطمأنينة ومن

الانحراف والإجرام إلى الاستقامة والطهارة، وأذكر من أعرفهم من المدمنين الذين تسمت دماؤهم بالكحول وعجز الطب عن معالجتهم، أحدهم أعرفه باسمه اعترف أنه كان مدمنا منذ ثلاثين سنة وأقلع عن الشرب في مجلس واحد من مجالس الذكر، وآخرون كثير تركوا الشرب بعد أيام قليلة من حضورهم مجالسنا، وأذكر ملحدين تابوا إلى الله في جلسة واحدة وشبابا جاؤونا من الزوايا المظلمة التي يقبع فيها اللصوص بالليل فتحولوا إخوة طاهرين يغدون في غلس الفجر إلى المساجد، وآخرين جاؤونا من هذه الجامعات العصرية يحملون بضاعة ماركس ومركوس فعرفوا الحق وذكروا الله وأصبحوا دعاة للإسلام وسط السخرية والأذى من أقرانهم بشجاعة وثبات يضربون المثل بأخلاقهم واجتهادهم وطهارتهم.

وأختم حديثي عن تجربتي وشهادتي بما من شأنه أن يبعث القلق والرعب في أصحاب العقلانية مخافة ألا يجدوا في ترسانتهم ما به يفهمون، ان رجال الله أهل الله أهل الطريق يتحدثون عن الفناء والبقاء، إذ أن العبد لا يعرف الله بنفسه، وإنا تتأتى له المعرفة ان فنى عن وجوده، يقولون إن وجود الحادث الممكن حجاب عن الله، فإذا فنى العبد عن وجوده الحادث كان الله ولا شيء معه.

المبتدئون مثلي المتعشرون بتقصيرهم وكسلهم لا يحق لهم أن يتحدثوا عن مقامات الرجال. لكن فضل الله علينا معشر المريدين

المبتدئين أن يذيقنا من هذه المقامات ما يسميه الصوفية لوائح وبوارق لنزداد مع ربنا صدقا وإليه سبحانه رغبة وشوقا.

حصل لي ذلك بحمد الله ومن فضله الفائض على خلقه ثلاث مرات، في المرتين الأوليين فنيت عن وجودي بوعي ثابت ليس وعيي ولا أتبينهن لم يبق لي وجود ولست أدري كم دام ذلك لأنه لأخذني بغتة، ثانية أم دقائق؟ أما في المرة الثالثة فإني فنيت وكان مع الفناء وعي بوجود الله، وعي ليس وعيي ولا أتبينه. وتلك حالة تقف أمام وصفها الألفاظ عارية مسكينة تضج إلى ربها من قصور المخلوق عن ادراك الخالق وتفيء إلى تنزيه ربنا عز وجل عن الزمان والمكان، عن الحين والأين، والفناء شيء غير الغيوبة، تنبيه الغافلين.

ورجال الله أهل الفناء والبقاء والمعرفة والارتقاء لهدى القدم الراسخ في هذا الذوق، وللسالكين المريدين في أحضان التربية أمثالنا عاجل البشري بتأييد الله.

أكرمني الله تعالى بصحبة ولي من أوليائه عارفا بالله غنيا به بضع سنوات، وبعد صحبته بزمان عثرت في بعض كتب القوم على وصف الشيخ الكامل، نعتوه بأنه لا يدعى مقاما ولا صلاحا ولا تظهر عليه الكرامة ولا الكشف إلا إن أذن له في إظهار ذلك، وقد كان والله شيعي الأول المرحوم بكرم الله الصامت الناطق المسكين الذي كان يطلب دعاء الخير من البر والفاجر حسن ظن بالله وعباد الله، ولولا أن الله تعالى جعل على يده هذه الهداية الشاملة لكل من اتصل به وأحبه،

وأظهر عليهم الكرامات والفتوحات الباهرة لما عرفه أحد ولبقي سرا من أسرار الله وكنزا من كنوزه الخفية.

وقد انتقل إلى ربه عن هذه الدنيا، وذهبت تلك اليد الكريمة التي أحيتني من موات تغمده برحمته، وجازاه عن أبنائه الروحيين خير الجزاء، وإنما سلاني وسلا إخواني عن فقدان الشيخ الترابي بيننا أنه رحمه الله ما ذهب حتى ترك لنا رجلا، أجلسه بالإذن في التربية، وأخبرنا أن خلفه رضي الله عنه أوسع منه باعا في هداية الخلق وتربية المريدين، فنحن اليوم بين يدي درة يتيمة عارف بالله كامل، هو السميزع الأديب وهو الطبيب الأريب الحبيب، متغنا الله بصحبته ومحبته، فلا نزال عليه عاكفين وببابه واقفين، وأتم الله لنا نورنا ببركته وجعلنا من الواصلين إلى حضرته.

أولياء الله

خلق الله الانسان ليبلوه وليجازيه في الدار الآخرة عن سعيه في هذه الدنيا. وأحاط الله خلقه بحجاب الكثافة المداية وظلمات الغرائز البشرية، وبعث اليهم رسله مبشرين ومنذرين، وجعل نجاة الخلق في تصديقهم واتباعهم للرسل ولمن يجدد لهم الدعوة من أولياء هذه الأمة. فأولياء الله بين ظهرانيها هم الدعوة إلى الله على بصيرة، وهم أهل الله أهل النور والتقوى، فمن فزع اليهم كان له من الله نصيب.

والانسان في عصرنا تتولاه اجاته المتجددة وضرورات عاداته التي ترديه. فهو ولي نفسه وشهواتها، ونفسه وما يتعاورها من شياطين أولياؤه يردونه ويهبطون به أسفل الدركات في دوابيته الجبضة الأثرة. والانسان المعاصر شقي بنفسه تستعبده أشياء حضارته، شقى بأبناء جنسه يتكالب في معمعة النزاعات الاقتصادية والسياسية والجنسية لا يستقيم له أمر، فهو إلى الاسلام أحوج من أجيال سبقت، وهو ينتظر دعوة مخلصه تنقذه وتخط له طريقا للسعادة، طريقا لأحبا يتبين فيه وجوه الربح والخسارة في نشاطه على هذه الأرض بل في كده الكالح عليها. ان جاهلية العصر وظلامه لن تتجلى عن الانسان السعيد الا باكتشاف نور الاسلام يهتدي به الجاهلي ويستنير به المسلم الجغرافي.

ونور الاسلام لا يتم بالدعوة الحرفية، دعوة الإصلاح الاسلامي الجزئي في حياة الفرد والجماعة، إنما يتم بالدعوة للمنهاج النبوي الذي يضع في متناول الناس الاسلام الرحمة الاسلام المعراج: اسلام ثم إيمان ثم إحسان.

بحياة التنظيم الشرعي الذي فرضه الله نقضي على النزاعات والاضطرابات، لكن حياة الروح وحدها تضمن إمكان قبول الناس لشرع الله وقانونه. والتربية الروحية تتناول الفرد في خص خصائصه، ووعيه بوجوده ومصيره، وفي هذه العقدة المركزية التي يبوح بوجودها أو لا يبوح، وهي عقدة الموت وما بعد الموت. بالتركيز

الروحية يكتشف الانسان عالم الغيب فتحل عقده كلها ويتوجه إلى ربه
يتلقى الهداية والرشاد.

تعلم الانسان اليوم كيف يسيطر على الطبيعة ويسخرها وكيف
يغزو الفضاء وكيف يستغل طاقات الذرة وطاقات العقل البشري. وتعلم
كيف يقتصد في استعمال وسائله العلمية ليوفر وقتا يفرغ فيه إلى
نفسه . لكنه لا يعلم وجها آخر للفراغ إلى نفسه غير الاسترواح
والعطلة ومتاع الحس. هذه حضارة الاسترواح **Civilisation** «
de loisirs» بلغها الغربيون وسيبلغها الانسان المتخلف إن لم
تبلعه قبلها صواعق الموت الذري. فهل إذا بلغ العقل مداه في ميادين
المعرفة المادية والاختراع يفيق العقل من غفوته لينقذ الانسان من
كبوته؟ أم سيستمر الاسان في غوايته كافرا؟

المسلمون كانوا أحق أن يقوموا بدعوة إيجابية للإسلام، بحركة
مبادرة يلفتون بها نظر الانسان لقيمة الانسان. لكن حال المسلمين ذلة
وتنازع وتنايز بالألقاب وهزيمة في الاقتصاد وميادين الجهاد. ولن
يحمل الرسالة من هذا وصفه.

{الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور} متى آمن
المسلمون بربهم تولاهم الله ووفقهم ليخرجوا من ظلمات الأهواء
والآثرة والتواكل إلى نور الاتباع والبذل والعمل. ويبقى أمل الانسانية
وأمل المسلمين في النهضة والانبعاث منوطا باكتشافهم لسر الوية

الخاصة هذه التي يكرم الله بها خاصة عباده المومنين ويجعل على يدهم ارشاد الناس وسوقهم إلى حضرة ربهم.

الولاية الخاصة هي قمة ما يبلغه الانسان المتطهر لمتزكي المتقرب إلى الله، فيحيا إن تولاه الله حياة طيبة أبدية في الدنيا والآخرة في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والولي نبراس يضيء الطريق أو نجم به يهتدي أو شمس للمعرفة ساطعة. فهم درجات عند ربهم وصاحب الاذن منهم يحمل رسالة الاسلام يجدد الدعوة ويلوح بالراية فينضوي إلى نوره ولوائه من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

إن المنهاج النبوي في اجتهادنا لانبعاث اسلامي يتشمن ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية. وقد تحدثنا في هذا الكتاب عنشروط صحة القيادة الجهادية وأن أن نعرف ن هم أولياء الله الذين بصحبتهم يتجدد إيمان الفاترين وبمددهم الفائض من ربهم يسطع النور الدال على باب التوبة للعائرين.

بهاء القربة: نستمع إلى أولياء الله يتحدثون عن أولياء الله. الحكيم الترمذي المحدث الصوفي ولي الله تعالى يصف الولاية وعلامات الأولياء فيقول¹:

"الأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى؛ قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار. فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى، لما رأى عليهم من آثار الملكوت. والقلب معدن

¹ كما نقله في "كتاب ختم الأولياء" للحكيم الترمذي طبعة بيروت ص 457.

هذه الأشياء ومستقر النور ... فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد، تآدى إلى الوجه ذلك النور. فإذا وقع بصرك عليه ذكرك التقوى، ووقع عليك مهابة الصلاح والعلم بأمور الله تعالى. ومتى كان على القلب نور سلطان لحث ذكرك الصدق والحق ووقع عليك مهابة الحق والاستقامة. وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه. وإذا كان على القلب نوره — وهو نور الأنوار — بهتتك رؤيته" (نوارد الأصول ص : 140).

هذا تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: " إن لله رجالا إذا رؤوا ذكر الله، يغطيهم سبحانه بهيبته وجلاله، فيحملك توقيرهم إلى خشية الله، وتحملك محبتهم إلى محبة الله، هم أولياء الله من أحبهم وصدق في صحبتهم حق الله يتم القيامة أن يكون ممن ينادون إلى ظل الله. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي!". وفي أحاديث كثيرة إن المرء يوم القيامة مع من أحب، فطوبى لمن أحب الله ورسوله وأحب أولياء الله الدالين عليه.

السعادة القصوى: عبد الرحمان بن خلدون البحاثة الطلعة اثل لنا في مقدمته فصلا نفسيا عن التصوف والصوفية، واثل كتابه "شفاء السائل لتهديب المسائل" قال فيه القول الفصل في ضرورة صحبة العارف الواصل لمن أراد سلوك طريق الله. وانتهى نظره إلى أن

مجاهدة التقوى ومجاهدة الاستقامة لا تحتاج لصحبة عارف إنما تحتاج لمجاهدة وعبادة. أما مجاهدة الكشف والاطلاع فيقول عنها¹.

"المجاهدة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع: وهي محو الصفات البشرية، وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة، حتى يقع له ما يحصل به الموت مت ذلك أو ما يقرب منه (هكذا كان المشايخ يربون مريديهم، وهناك طريق المحبة والشكر قائمة على مداومة الذكر مع الاستقامة على شرع الله. ثم محاذاة شطر الحق اللطيفة الربانية، لينكشف الحجاب، وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان. وهذا هو العلم الإلهامي الذي قدمنا أنه يحصل بالتصفية.

ولهذه المجاهدة عند القوم شروط، فالأول حصول التقوى الذي قدمنا شرح مجاهدتها... والشرط الثاني حصول الاستقامة التي قدمنا أيضا شرح مجاهدتها.

الشرط الثالث الاقتداء بشيخ سالك، قد خبر المجاهدات، وقطع طريق الله، وارتفع له الحجاب وتجلت له الأنوار. فهو يعرف أحوالها ويدرج المريرين في عقباتها حتى تتاح له الرحمة الربانية، ويحصل له الكشف والاطلاع"

ويقول ابن خلدون عن معرفة الله تعالى²:

¹ المصدر السابق، ص 514 ينقل عن "شفاء السائل".

² المصدر السابق: ص 511 ينقل عن "شفاء السائل".

"أعلم أن معنى السعادة حصول النعيم واللذة باستيفاء كل غريزة ما تشتاق إليه من مقتضى طبعها، وذلك هو كمالها. فلذة الغضب بالانتقام، ولذة الشهوة بالغذاء أو النكاح، ولذة البصر بالرؤية، ولذة هذه اللطيفة الروحانية بحصول العلم والمعرفة لأنه، كما قدمنا، مقتضى طبعها وغريزتها، ثم تتفاوت الذات بتفاوت الغرائز في أنفسها.

وقد تبين أن هذه اللطيفة أكمل الغرائز المدركة، فلذتها بالإدراك أتم وأعظم. ثم تتفاوت لذتها أيضا بتفاوت المعلومات: فالعلم بالنحو والشعر والفقه ليس كالعلم بالله وصفاته وأفعاله، والإطلاع على أسرار السوق ليس كالإطلاع على أسرار الملوك ومواطن تدبيرهم...

فإذا كان في المعلومات ما أجل وأشرف، وفي العلوم ما هو أتم وأوضح، وكان الشوق إلى العلم به شديدا، فالعلم به ألد العلوم لا محالة. وليس في الوجود أعلى ولا أكمل من خالق الأشياء وموجدتها ومرتبها. وهل يتصور أن تكون حضرة في الكمال والجمال أعظم من الربوبية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وصف واصف؟ فإن الإطلاع على أسرارها والعلم بترتيبها المحيط بكل الوجودات، علما لدنيا إلهاميا، وإطلاعا كشفيا، هو أعلى أنواع المعارف وأكملها وأوضحها وألذها، وأحرى ما يحصل به الابتهاج والفرح ويستشعر به الكمال.

فقد تبين أن العلم لذيق، وأن ألد العلوم معرفة الله وصفاته وأفعاله وتدبير مملكته، بالعلم الإلهامي اللدني الذي قدمنا شرعه. ولا سيما من طال فكره في ذلك وحرص على الإطلاع على أسرار الملكوت فإنه يعظم

فرحه عند الكشف بما يكاد يطير له. وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق،
والحكاية فيه قليلة الجدوى. ولقد يستشعر شيئاً من هذه الذة طلاب
العلم الكسبي عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي يطول
حرصه عليها وشوقهم إلى معرفتها".

استكشاف الحق: الإمام الغزالي كتب إحياءه لعلوم الدين وضمنه
علماً جديداً أنكره أمثال العلامة ابن تيمية. ومن تلبث في داره قمين أن
ينكر العالم إذا حدثه عنه من جاب البلاد وعرف منها الجبال والوهاد.
يقول الغزالي¹:

"فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور
لا بالتعليم والدراسة والكتابة بالكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من
علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله
تعالى. فمن كان لله كان الله له! وزعموا أن الطريق في ذلك أولاً
بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن
الأهل والمال والولد والوطن وعن العالم والولاية والجاه. بل يصير إلى
حالة يستوى فيها وجود الشيء وعدمه. ثم يخلو بنفسه في زاوية مع
الاقتصار على الفرائض والرواتب. ويجلس فراغ القلب مجموع الهم.
ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث و
غيره، بل يجتهد ألا يخطر بباله شيء سوى الله تعالى. فلا يزال بعد
جلوسه في الخلوة قائلاً بلسانه: الله! الله! على الدوام مع حضور القلب

حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه. ثم يواظب عليه إلى أن يمحي أثره على اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر. ثم يواظب عليه إلى أن يمحي عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا في مكانه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحال بدفع الوسواس. وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله. بل هم بما فعله صار متعرضا لنفخات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة. كما فتحتها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

وعند ذلك، إذا صدقت ارادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته فلم تجاذبه الشهوات ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يلبث، ثم يعود وقد يتأخر. وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفًا. وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ثم استعداد وانتظار فقط.

خصوم الغزالي يعززون اليه وإلى فكره هذا الانعطاف في تاريخ المسلمين الذي أدى إلى ترك العمل والعكوف على طلب الآخرة مع

الزهد في الدنيا وقطع العلائق عن المال والولد كما يعبر الغزالي.
ولهؤلاء الحق لو كان الغزالي خاطب عامة الناس واقترح المجاهدة
مذهباً اجتماعياً، أنما كتب الغزالي لجماعة تقل في كل زمان ومكان من
ذوي الهمم العالية، ثم ان ما وصفه من الزهد في الدنيا وقطع العلائق
انما هو رياضة موقوتة وسوك لفترة معينة يأتي بالتصفية الروحية
التي تصعد بالفرد إلى مراتب الكمال الروحي، فإذا تمت هذه التزكية
أصبحت المجاهدة غير ذات موضوع فهي كانت وسيلة لا غاية.

والذي وصفه الغزالي من المجاهدة هو السلوك الذي أوصاه به
شيخه كما ذكر ذلك في كتابه "ميزان العمل"، نقلنا بعضه فيما سبق.
وليست الكيفية التي وصفها تنفع ان لم يقع للمريد سلوك على يد
الشيخ المربي.

ويوضع هنا اعتراض عام على الصوفية واتهامهم بالانعزال عن
ميادين العمل والانتاج. والصوفية الحق عبر التاريخ كانوا رجالاً جهاداً
في أنفسهم وفي ثغور المسلمين، وإنما سميت رباطاتهم بهذا الاسم
لأنها في الأصل كانت مرابطة إزاء العدو.

ويتهم الصوفية بالانعزال ذوو الفكر العلمي عندما يجدون أن
الصوفية ما كانوا يثورون على الحاكم الجائر، وإنما يدخلون عليه
ويعطونه ويشفعون عنده لذوي الحاجات. وسلوك مثل هذا يذهب
بالاغرار إلى فهم الصوفية فهماً منحرفاً. ان هؤلاء الساجدة يتبعون

السنة لا يحدون عنها، ويقرأون وصية الرسول الكريم بالطاعة ولو لعبد حبشي، ولو لجائر ما أقام الصلاة، فلا يسعهم إلا الاتباع.

وإذا عم الكفر وعطلت شريعة الله فالذي ينزل عن الناس فاراً بدينه سائر على الكتاب والسنة. في بعض الأحاديث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على جماعة المومنين ما داموا أقلية في وجه المعطلين للشريعة وفي كتاب الله تعالى اعتراف وتزكية للذين اعتزلوا فارين بدينهم. قال تعالى عن ابراهيم الخليل عليه السلام: "فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب". وقال عز من قائل عن أصحاب الكهف: {وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا}.

فأية سلك طالبوا الحق المستكشفون للحق فطريقهم لا يشقونها إلا بالحق. وما زكاهم الله تعالى بنوره وفتح لهم من رحمته إلا لأنهم وقفوا عند حدوده وتحببوا إليه سبحانه بالفرض والنفل حتى أحبهم واصطفاهم.

علم الأولياء: تقدم العقل البشري في ميادين العلوم التجريبية شأوا بعيدا، لكنه بقي حائرا أمام ظواهر لا تخضع للعقل. وظاهرة غريبة أن يسخر الاسطول الأمريكي في سرية عسكرية لإجراء تجارب عن اتصال الفكر الخفي « télépathie » ، إنه اعتراف العقل العقلاني أن وراء الأكمة ما وراءها وفي عصرنا عصر الاختراع العلمي يطغى تيار

الرياضات المجوسية اليوكية. هؤلاء الهنود الذين جابوا العالم ينشرون
تعاليمهم ويبشرون بالرياضة الروحية التي تأتي بالسعادة والتوازن.
إنهم يبيعون بضاعتهم للإنسان الغربي الكالح الكادح وتؤيد دعواهم
خوارق العادة التي يراها القاصي والداني. هؤلاء "الفقراء" الهنود
يذهلون العقل العقلاني بما يعرضونه من قدرات خارقة للعادة تبهر
المفكرين والمتفرجين. ثم إن عند الإنسان المتحضر ميلا عظيما إلى
الروحانيات بصفة عامة، هذا ما يسمونه استحضار الأرواح، وهكذا
انكثرا لا تكاد تجد فيها رجلا ولا امرأة لم يضاهد الأشباح في القصور
أو لا يومن بوجود هذه الأشباح. وهناك في جزيرة هايتي وفي إفريقيا
عبادة "الفودو"، عبادة شياطين تخاطب الناس وتشاركهم حياتهم
اليومية. وفي بلاد المسلمين حركات دائبة لمن يكلمهم الشيطان
ويسخرهم ويسخر بهم.

في العالم كله غيب محير يظهر عيانا لعامة الناس وينكره العقل
العقلاني، وفي الإنسان ميل إلى الغيب فهو يتزايد في هذه الظواهر
الغيبية، ويخاثل المحتالون الناس فيندسون لهم باسم هذا الغيب
يتصيدون الأغبياء. وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مائتي
ألف مشعوذ، واحد لكل ألف مواطن! منهم المنجم وقارئ الكف ونجي
الشيطان وبائع الطلسمات!

إن الإنسان حيوان غيبي كما يقول بعض الفلاسفة. وإنه ليحيط به
عالم مليء بالعجائب والغرائب. والمومن بكتاب الله وسنة رسوله يعلم

أن الله خلقا غير ما نراه بأعيننا ومجهراتنا، ويعلم أن الشيطان شيطانان، شيطان من الناس هم الفسقة المفسدون، وشيطان من الجن يوسوس لأصحابه ومطايهه ويزين لهم الكفر والفسوق والعصيان.

حضر الشيخ محمد عبده رحمه الله في زيارته لأوربا مجالس بما يسمونه استحضار الأرواح، وعصمه الله أن يقع فيما وقع فيه الطنطاوي الجزهري وأمثاله، ففسر ظاهرة تحرك الموائد وظهور الكتابة والإخبار عن الغيب التفسير السديد. قال إنه الشيطان، إنه الجن القرين الذي أخبر عنه القرآن والحديث، أو شيطانه كما عبر الرسول، حتى إذا مات الإنسان بقي القرين يدلي على الناس ويوسوس لهم؛ وهكذا يخط القرين خطا كخط الميت ويحدث عن أسرار لا يعلمها إلا الميت وهكذا. وفي بلاد المسلمين اليوم أندية شيطانية يستحضرون فيها الشياطين يلاعبونها وتضحك عليهم. وما "الفودو" والزار وما شابه ذلك إلا ظواهر شيطانية لا تنحصر في إفريقيا وهائتي، بل تجدها بصفة من الصفات وتحت اسم من الأسماء أينما حل الإنسان.

أما الرياضات اليوكية وما شابهها فتنتج لأصحابها كصفا وقدرة على خرق العادات. ويسمى أولياء الله أهل النور والحق اكتساب هذه القدرة فتحا ظلماتها.

هذا ولي الله تعالى مولانا عبد العزيز الدباغ الرجل الأمي يشرح لنا الفتح الذي يقع لمن سمت همته وتطعت لما وراء الحس، واتخذ البلوغ غايته سبيلا. نعلم أن اليوكيين وأمثالهم من أصحاب الرياضات

يسكون طريقهم إلى الشقاء على يد شيخ يدلهم على طلبتهم، لكن حقيقة ما يصلون إليه تجدها عند من علمهم الله من لدنه علما وأعطاهم رحمة. يقول السيد عبد العزيز الدباغ¹: "وأما أهل الحق فلم يفتح في أول الأمر وفي ثاني الأمر. أما الفتح في أول الأمر فجميع ما سبق لأهل الظلام في هذا العالم سمائه وأرضه. فيشاهد صاحب هذا الفتح الأرضيين السبع وما فيهن والسموات السبع وما فيهن ويشاهد أفعال العباد في دورهم وقصورهم، لا يرى ذلك ببصره، وإنما يراه ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يردّها جدار، وكذا يشاهد الأمور المستقبلية مثل ما يقع في شهر كذا وفي سنة كذا. وهؤلاء أهل الظلام وفي هذا الفتح على حد سواء. وذا يقال: الكشف أضعف درجات الولاية، أي لأنه يوجد عند أهل الحق ويوجد عند أهل البال. وصاحبه لا يسأمن على نفسه من القطيعة والحق بأهل الظلام حتى يقطع مقامه ويتجاوزّه".

فهذا هذاه. أما علم أولياء الأمور المتجاوز لكشف العوالم فهو بغيّة السالكين طريق الله تعالى، ويصفه السيد الجليل هكذا.

"وأما الفتح في ثاني الأمر فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى، ويتكلم معهم ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجلّيس لجلّيسه، وكذا يشاهد أرواح المومنين فوق القبور، والكرام الكاتبين

¹ كتاب "الابريز". طبعة محمد علي صبيح، ص 303.

والملائكة والبرزخ وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ. فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم اجتماعه مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق سبحانه، ومشاهدة ذاته الأزلية، لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه. فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق سبحانه ويترقى في معرفته شيئاً فشيئاً إلى أن تقع له المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة. فهذا الفتح الثاني هو الفاصل بين هل الحق وأهل الباطل.

ويشرح ولي الله تعالى خرق العائد الذي يأتي به أهل الظلام، ويفصل الملكوت النوراني والظلمة الشيطانية اخائضة في دائرتها سدة الباطل:

"وأما الفتح الأول فإنه كما يقع لهم يقع لأهل الظلام، فيقع لهم الفتح في مشاهدة الأمور الفانية ويتمكنون من التصرف فيها؛ فترى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله عز وجل. وذلك أن الله تعالى خلق النور وخلق منه الملائكة، وجعلهم أعواناً لأهل النور بالتوفيق والتسديد وخرق العوائد. وكذلك خلق الظلام وخلق منه الشياطين وجعلهم أعواناً لأهل الباطل بالاستدراج والمزيد من الخسران والتمكن من الخوارق".

أكتب هذا وأعلم أنه قول ثقيل لا يستسيغه الغافلون عن الله تعالى.
ولقد مضى على زمان كنت فيه أبحث عن يعطيني الخير اليقين عن
وجود الجن ومخالطتهم للبشر، ورحلت في طلب ذلك رحلات بعيدة.
ولما من الله علي بحصبة أوليائه بدا لي الحق واضحا أبلج وجاءتني
البراهين مما حدث لي أو لأقرب الناس إلي على من أن مأخذ الحق في
كتاب الله وإخبار رسوله، وأصبح إيماني بالغيب والحمد لله يقينا لأن
الغيب عشته وبلوته ولمسته.

أين الباب؟ لا يزال المسلمون منذ القديم يتشوفون إلى موطن
الأولياء، إلى المغرب، ويترقبون ظهور أهل الحق وطلوع الشمس من
مغربها. ويسمى أهل الله بلاد المغرب أرض الأولياء كما يسمون بلاد
المشرق أرض الأنبياء، وبرز من المغرب سادة أجلة مثل الشاذلي
والمرسي والبدوي والرفاعي وجد الشعراني وكثير كثير. وقد ألقى
السيد الجليل الحكيم الترمذي منذ القرن الثالث أسئلة ما أجاب عنها
كلها إلا الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي المغربي. وبعد أربعة
قرون ظلت فيها الأسئلة السبعة والخمسون والمائة لغزا مغلقا، جاء
الحل والفتح على يد ولي الله سلط الله حيا وميتا السنة المنكرين
وبطشهم، فكفره من كفره. وتعلق به طلاب الحق يخالون أن باب
المعرفة هو الاطلاع الفكري على علوم الأولياء. ومحيي الدين أجاب
عن الأسئلة وضمنها الإرشاد إلى الباب الحق، إلى الشيخ الحي حامل
سر الاسم المسمى قطبا وغوثا.

وألف محيي الدين بن عربي كتيباً بأسلوبه الغامض عنوانه:
"عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب"، وفيه، بل ليس
فيه إلا إشارات لموطن الأولياء.

السؤال الخامس والثلاثون بعد المائة من أسئلة الحكيم الترمذي
يتعرض لاسم الله الأعظم، ويجيب ابن عربي بأن أولياء من سبقنا من
الأمم أعطوا حروف هذا الاسم دون معناها، وأولياء هذه الأمة منهم من
له المعنى دون الحروف ومنهم من جمع بين المعنى والحروف.

والسؤال الذي يليه يطلب: أين باب هذا الاسم الخفي عل الخلق من
أبوابه؟ ويجيب ابن عربي رحمه الله تعالى في كتابه: "الجواب
المستقيم" بأن باب به بالمغرب الأقصى¹.

ثم يرجع ابن عربي في كتابه "الفتوحات المكية" فيجيب بشيء من
التفصيل².

"الجواب: بالمغرب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم³:
"لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة".
وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسد باب التوبة ويغلق "فلا
ينفع نفسا إيمانها" ولا ما تكسبه من خير بذلك الإيمان. والمومن لا
يغلق له باب. وكيف يغلق دونه وقد تجاوزته وتركه وراءه؟ فمن عناية
المومن غلقه حتى لا يخرج عليه بعد ما دخل منه. فلا يرتد مومت بعد

¹ "كتاب ختم الأولياء" ص 307.

² المصدر السابق، نقلاً عن الفتوحات: 2 ؛ 121.

³ هذه رواية لمسلم، وقعد حار بعضهم في فهم الحديث، وقرأ بعضهم الغرب بدل المغرب وأولوا ذلك تأويلات واهية.

ذلك، فإنه ليس له باب يخرج منه، فغلق باب التوبة رحمة بالمومن ووبالا على الكافر.

وجعله الله بالمغرب لأنه مجلى الاسرار والكتم. وهو سر لا يعلمه إلا أهل الاختصاص. فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهرا عند العام والخاص، ووقع به الفساد في العموم. وهذا يناقض ما وجد له العالم من الصلاح"

اختصاص بلاد المغرب بهذه الخصوصية، بكونها موطن الأولياء حقيقة لمسها حتى أعداؤنا المستعمرون. ودرس المستشرقون تاريخ المغرب وتاريخ رباطاته فصنفوا تاريخنا ووصفوا المرابطة « maraboutisme » بأنها مذهب اتباع الأولياء الماربرطين أصحاب الزوايا. ولفت نظر المستشرقين طقوس ابتدعها ادعياء الطريق ووقفوا مع "الفولكلور" الملون لا يميزون بين الأحوال الربانية والأحوال الشيطانية وأنى لهم!

وانبعث طائفة من علماء المسلمين الاجلة أمثال السيد ابن باديس يحاربون الطريقة باسم اصلاح سلفي متطهر، وكان لهؤلاء العلماء المبجلين اليد البيضاء على الدين لأنهم حرروا بعض بسطاء الناس ممن كانوا يستغلونهم باسم الطريق. لكن علماءنا الأفاضل ما كان بيدهم معيار الحق ليعرفوا المحق من المبطل، وهكذا احترق الأخضر باليابس، وحشر الاصلاحيون طلاب "الزردة" وطلاب الحق في زريبة واحدة، وبدعوا وكفروا، ولهم عند الله ثواب المجتهدين.

الذين يزعمون ان المرابطية داء هذه الامة محقون مخطئون في
آن واحد. محقون بقدر ما تكون المرابطية ستارا لدعوى
كاذبة، لاحتراف يفتري على الله وعلى الناس. وبهذا المنطق يمكن أن
نقول إن علماء هذه الأمة هم داؤها لأن سمت العلماء وكلام العلماء
يتبناه الفاسق الجاهل ليغر به الناس. وبهذا المنطق يمكن ان نقول ان
المذاهب السنية داء هذه الامة لان من الناس من يستتر تحت اسم
السنية او السلفية ليكذب على اللهو على الناس، وهكذا الشيعة الاخيار
لان الباطنية والروافض يندسون تحت الاسم.

ومن لا يعرف من المرابطية والتصوف الا الزردق والعمارقو بناية
الزاوية وما يغشاها من حي طويلة وسبح غليظة مغبون مرتين، مغبون
على مستوى التحقيق الفكري، مغبون في معرفة طريق الحق طريق
التزكية والطهارة القلبية. افلا ينظرون كيف تكون هذه الزوايا مستشفى
لامراض القلب ما دام يعمرها شيخ مرب عارف با لله، فإذا انتقل إلى
الدار الآخرة ولم يترك وارثا مربيا تحولت زاوية التبرك إلى مدرسة
بشكل من الأشكال تحافظ على تعاليم الدين وتؤوى إليها المؤمنين؟ أفلا
ينظرون فعالية الزوايا السنوسية مثلا وأثرها البليغ في حياة جزء كبير
من قارة افريقيا، كيف علمت هذه الزوايا وكيف ربت الدعاة
والمجاهدين؟ أفلا ينظرون إلى مات من الزوايا المنتشرة في دار
الإسلام يشع منه روح الطهارة والإيمان؟ السادة التجانية أدخلوا
الإسلام إلى افرسقسا كلها، وحين طغى الكفر في بلاد المارد أتاتورك

كان السادة التجانية والنقشبندية وإخوانهم من رجال الطريق الذاكرين أول من جهر بإسلامه في الشارع في مظاهرات 1945 و 1950.

في بلاد المشرق استوت الطريقة على نظام تبركي يسالمة من لا يعتنقه، وباستثناء فتن قديمة انتهت إلى غايتها كف المسلمون في المشرق عن مطاردة الصوفي وهمزه ولمزه، أما في بلاد المغرب فقد تركت الاصلاحية السلفية خطا هجوميا لا تزال به أثارة من تصلب، وإن كنا نرى اليوم من هؤلاء السلفية الاصلاحيين من أخذ يعرض على أصابع الندم على ما فرط في حق الصوفية، ولأنه لم يتعلم أن يميز بين الغث والسمين، أما في المشرق فقد كثرت الكتابة عن التصوف ممن اطلع على الكتب في غالب الأحيان، وقليل ما يكتب رجال الطريق أهل الذوق. فإذا كتب مفكرون عن التصوف فغالبا ما يمجدون أمثال الجنيد والجيلي ويتملون بذكر المناقب والاخلاق العالية. وممن يكتبون عن التصوف اليوم رجال فكر خاضوا في لجاجات سياسية أو فلسفية¹، حتى إذا أعياهم البحث رجعوا يبيحثون عن الطريق إلى الحق وعن الباب، فأين الباب؟

وفد علينا رجل من علماء احدى جامعات الشرق، وبلغني أنه يطلب الشيخ المربي. فسعيت إليه وأخبرني أنه جاب الصحاري والجبال في هذه البلاد يطلب شيئا عما وجد. وأخبرته انا بما أعلمه

¹ خالد محمد خالد يكتب عن التصوف بعنوان " الوعد الله " وانظر ما يكتبه في هذه الأيام رجل فتنه الفكر العقلاي في زمان هو مصطفى محمود، ثم تاب ورحل من الشك إلى الايمان.

ودللته على الخير فأبدي عزمه على الرحلة إلى حيث دلته. وما سمعت عن الرجل بعدها إلا بعض خبه يكون فيها الهزبر الكاسر. حتى لقيته يوما، وما عرفني، في غرفة مريض من ذوي الصلاح الدينين والجاه الدنيوي، فرأيت الرجل يقبل اليد والركب يتوسل في قضاء حاجة من حوائج معاشه، فعلمت أن الذي هو أعز من الكبريت الأحمر ليس الشيخ المربي وإنما هو صدق الطلب.

ووفد إلى هذا البلد بعض علماء المسلمين ومفكريهم ورجال الدعوة الإسلامية منهم؛ فبغني أن الكثيرين يسألون عن الشيخ المربي، وكأنهم يتوقعون ظهور الغنقاء المعذب، لكن من يتولى الإجابة عن سؤالهم: أين الباب؟ فوم لا يعلمون أن لطريق الحق باب يولج منه، ومنهم من حمل الإصلاحية أسملا مهلهلة وقد حملها أمثال ابن باديس رحمه الله لباس صدق وتقوى.

لقات تاريخية

كان للصوفية الكرام فعالية عظيمة في تاريخ المسلمين، هم كانوا مجددي الدين وحاملي لواء الحق. وإن كان ممن ينتسبون إلى طريق الله رجال عنف تسموا مهديين فإن رجال الله كانوا العلماء العاملين وكانوا المجاهدين وكانوا هداة تقاة. اقرأ كتاب الندوي: "ربانية لا رهبانية" ففيه الغناء.

إن أول من حارب الاستعمار وأقوى من حارب الاستعمار في بلاد المسلمين عالم صوفي يعرف الناس جانب حياته كمجاهد عالم ويطوي

من له نبات خفية أن أول صفة لهذا الرجل هو أنه صوفي. إنه عبد القادر الجزائري طيب الذكر قدس الله روحه. ليس قصدي أن أقص حياته أو أسرد أحداث جهاده. إنما أحب أن أنبه من يريدون معرفة تاريخ هذه الأمة إلى قراءة كتابه "المواقف" في ثلاث مجلدات عسى أن يجدوا عناصر تعينهم على إصدار حكم نهائي في حق الصوفية، أهم رجال خمول أم رجال عمل، أقصد الصادقي لا المحترفين.

أحب أن أورد قصيدة قالها عبد القادر رحمه الله يوم لقي شيخه وأخذ عنه وهو السيد محمد الفاسي. يقول في هذا الصدد السيد جواد المرابط¹.

" أما المرحلة الثالثة فهي التي تم له فيها الفتح العظيم. وكان ذلك عندما سافر حاجا سنة 1279 حيث أقام في مكة سنة ونصفا مقبلا على العبادة والخلوة وحيث التقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتتلذذ عليه. وهو ما يشير إليه الأمير في قصيدته الرائية التي مطلعها:

أمسعود جاء السعد والخير واليسر وولت جيوش النحس ليس لها ذكر
والتي يقول فيها:

¹ كتابه "التصوف والأمير عبد القادر الحسيني الجزائري" طبعة 1966 ص : 28.

أمولاي طال الهجر وانقطع أمولاي هذا الليل هل بعده
الصبر فجر؟

أسائل كل الخلق هل من يحدثني عنكم فينعشني
مخبر الخبر؟

إي أن دعيتي همة الشيخ من بعيد: ألافادن، فعندي لك
مدى الذخر؟

فشمرت عم ذيلي الإطار وطار جناح اشتياق ليس يخشى له
بي كسر

فأنعم بمصر ربّ الشيخ وأنعم بقطر طار منه له
يافعا ذكرا

فمكة ذي خبر البلاد فديتها فما طاولتها الشمس يوما ولا
النسر

بعا كعبتان كعبة طاف حولها حجيج الملان بل ذلك عندهم
الظفر

وكعبة حجاج الجناب الذي وجل فلا ركن ديه ولا حجر
سما

وشتان ما بين الحجيجين فهذا له ملك وهذا له أجر
عندنا

وفيهما حلالي الذل من بعد عزة فيا حبذا هذا ولو بدؤه مر

وذاك من فضل الإله ومنة علي فما للفضل عد ولا حصر
فقل لملوك الأرض أنتم فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كثر
وشأنكم !

لله در المجاهد الكبير ، ولئن تاه بهمته على الملوك فإن قصيدته
هذه ومعانيها الدقيقة تتيه أن يفهمها غير نزيها الذين دعته هممة
الشيخ كما دعت عبد القادر إلى مجد الدنيا والآخرة.

كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه: "موجز تاريخ تجديد
الدين وإحيائه" عرضا لجهاد من نشروا الإسلام ودافعوا عن صفائه،
ولم يجتمع لديه إلا وجوه صوفية كرام أمثال عمر بن عبد العزيز
والأئمة الأربعة والغزالي والشيخ أحمد السرهندي وولي الله الدهاوي
وآخرين. وكتب السيد الجليل أبو الحسن الندوي كتابه: "رجال الفكر
والدعوة في الاسلام" فلم يجتمع له إلا رجال صوفية كرام أمثال الغزالي
وأحمد بن حبل والجيلي وجلال الدين الرومي وآخرين.

ونحن في هذه الصفحات القليلة نعرض إلى أثر الصحبة الصوفية
في حياة الأمة. هؤلاء الصوفية الوديعون المسالمون الأقوياء متى
انتهكت حرمة الله يسعون بدعوة مفتوحة إلى التوبة لعامة الناس
وخاصتهم، بل إنهم يبذلون الجهد كله لإصلاح رجال السلطان لأن
بصلاحهم تصلح الأمة كلها. إنهم يؤمنون بما سميناه بلغة العصر:
ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية. إنهم لا ينازعون ذوي الأمر أمرهم بل
يحملون إليها كما يحملون لعامة الناس بشرى الرحمة التي جاء بها

الرسول عليه الصلاة والسلام. ومتى وجدوا استجابة من السلطان تحول تاريخ الأمة ورجع إليها خيرها وقوتها.

هذا مولانا عمر بن عبد العزيز الشاب المترف ربيب القصور ظهر بعد ظلمة الفتن الأموية يعيد شؤون المسلمين إلى نصابه، وإنما بعثته صحبة ولي الله صالح. وهذا صلاح الدين الأيوبي ظهر في زمن ضعف فيه المسلمون وتخاذلوا، وإنما أصبح صلاح الدين صلاح الدين بصحبة رجل صالح، وهكذا في المثاليين الآخرين من الأمثلة الأربعة التي نسوقها.

إن هذه اللقاءات التاريخية، لقاءات رجال الدعوة برجال السلطان، أزمنة حاسمة في تاريخ الأمة تحدث عندما تشتد بالمسلمين الأزمات وتتهكهم المحن.

همة عالية: قال السيد الجليل مولانا عمر بن عبد العزيز بعد أن ولي الخلافة:

"إن لي نفسا ذواقة تواقه، كلما ذاقت شيئاً تافت إلى ما فوقه، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان، ثم تافت نفسي إلى العلم بالعربية فأصبت منه حاجتي، ثم تافت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الله فتزوجتها، وتافت نفسي إلى الإمارة فوليتها، وتافت إلى الخلافة فأدركتها، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا فوقها تافت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة".

الهمم الذواقه التواقه محض استعداد قد تتجه للخير فتنفع الناس وقد يسوء اتجاهها فتكون أنكى على الناس لأنها تصبح شرا مكررا لا حد له. وهمة عمر بن عبد العزيز رفعتة من انحلال الأمراء وطغيانهم إلى درجة الصديقين المجاهدين. فما سر هذا المعراج، وأية قوة أمسكت بلباس الحرير صاحب المشية العمرية التي يضرب بها المثل وسارت به مسيرة الرجال؟ يقول ابن عبد الحكيم¹: "فقدم رجاء (بن حيوة) على عمر ضيفا وأقام عنده، ولم يأل عمر في إطفاه وإكرامه وتقريبه، وأقا أياما... ثم رغب رجاء في صحبة عمر وصادقته على النسك والعبادة"

وإذن فقد كان لعمر صحبة مع رجاء صحبة على السك والعبادة، وهذه الصحبة السنية سموها فيما بعد صحبة صوفية. رجاء بن حيوة صحب اميرا مترفا فعبد الله معا، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك وفاته أشار عليه رجاء بتولية الأمر لعمر، وبعد تولي عمر الخلافة كان صاحب رأيه ووزيره هذا الرجل الصالح.

وجدت الهمة الذواقه التواقه من يواجهها ويربها، فبلغت شأوا بعيدا في إصلاح حال المسلمين. ويرجع الفضل للصحبة الخيرة التي أتاحها الله للأمير وأتاح بها للأمة فرصة لتظل إطلالة قصيرة على عهد العمرية الفاروقية. ولئن كان مولانا عمر بن الخطاب ورث خلافة لن ينازعه فيها منازع والناس لا يزال الاسلام طريا في قلوبهم، فإن عمر

¹ نقلا عن كتاب "الخليفة الزاهد" لعبد العزيز سيد الأهل، الطبعة الثالثة ص : 79.

بن عبد العزيز ورث ملكا عضودا وورث ترفا وتهالكا على الدنيا وفسادا كبيرا فقاوم التيار وجاهد حتى قتلوه رحمه الله، وما جاءه الخير والقوة إلا بصحبة الأخيار. فمن هو رجاء صاحب الناسك؟

يقول عنه ابن عبد الحكم¹: "وكان رجاء بن حيوة بن جرول الكندي من أهل الأردن العلماء، وكان أعبد أهل زمانه من أهل الشام، مرضيا حكيما صاحب بلاغة وأناة ووقار. وكانت الخلفاء تعرفه بفضلته فيتخذونه وزيرا مستشارا وقيما على عمالهم وأولادهم. وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كبيرة منذ عبد الملك بقدرة مداخله عليهم. فلما كان سليمان أصبح لرجاء عنده من الخاصة والمنزلة ما ليس لأحد، وجعل سليمان يثق به ويستريح إليه".

وعقد له الأصبهاني في كتابه "حلية الأولياء" ترجمة تشير إلى الوقار والصدق وحسن السمات. وتلك صفات رجل الدعوة، وما وصفه ابن عبد الحكم من مخالطته للحكام رد ضمني للذين يظنون أن المومن النقي لا يغش الحاكم. رجاء يقف بين الخلفاء وبين شهواتهم وقساوتهم يعظ ويوعد ويقول كلمة الحق. وتلك شيمة الصوفية الأبرار لا ينغزلون عن الدنيا وهمومها إلا ريثما تصفو قلوبهم من الشوائب، فإذا كان لهم ما راموه من ذلك حملوا كلمة البشرى كل محمل وسعوا إلى إصلاح الناس محتسبين لله، باذلي النصيحة لله ورسوله وكتابه وللمومنين خاصتهم وعامتهم. هذا الامام الغزالي يعترف بامامة

المقتدر العباسي ويسعى لاصلاحه، حتى إذا يؤس رحل ليوسف بن تاشفين الرجل المجاهد فلم يدركه وحال بينهما الموت. وهذا الشعراني يقص علينا كيف يدخل على السلاطين لقضاء حاجات الناس. ليت شعري ماذا يسمى أصحاب الايديولوجية مثل هذا: واقعية سياسية؟ أو بدائية فكرية؟ وما يهمنا! فإن القوم الكرام مسلمون قبل كل شيء والمسلم من سلم المسلموت من لسانه ويده. فمذهبهم سنية واتباع ورفق وترفق.

هدف رجال الله الفعالية في الاصلاح، تلقوا الأمر بذلك من كتاب ربهم وسنة نبيهم فهم يتداولون النصح بذلك ويتناقلونه بينهم. وقد نقل صاحب الحلية عن رجاء بن حيوة ما يلي¹:

" حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن اسحق حدثنا سوار بن عبد الله حدثنا سالم بن نوح عن محمد بن ذكوان عن رجاء بن حيوة قال: إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك، وكانت لي منه منزلة، إذ جاء رجل، ذكر رجاء بن حيوة من حسن هيئته، قال: فسلم فقال: يا رجاء! إنك قد ابتليت بهذا الرجل وفي قربه الوقع (الهلاك) يار رجاء! عليك بالمعروف وعون الضعيف ! واعلم يا رجاء أنه من كانت له منزلة من السلطان فرفع حاجة انسان ضعيف، وهو لا يستطيع رفعها، لقي الله يوم يلقاه وقد ثبت قدميه للحساب. واعلم يا رجاء أنه من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته. واعلم يا رجاء أن من أحب

الأعمال إلى الله فرحا أدخلته على مسلم. ثم فقد. فكان يرى أنه الخضر عليه السلام".

هكذا تنتهي الرواية؛ يرى رجاء أن نجيته وناصحه كان عبد الله الذي آتاه رحمة وعلمه من لدنه علما. وللصوفية لقاءات مع الخضر والذي قصدنا إليه هنا أن رجاء وأمثاله من أهل الله قوم يقفون لنصرة الضعيف ورفع حاجاته وقول كلمة الحق عند السلطان الجائر.

وكتب عمر بن عبد العزيز ربيب الرجل الصالح وصاحبه ونجيته صفحات مجيدة في تاريخ الإسلام. إنه رد المظالم! وما أدراك ما رد المظالم! إنها رجولة تبدأ بالتجرد، تجرد القائد المجاهد ينبذ نبذ النواة ما كان عليه عاكفا من شهواته وقصوره. ويخرج القائد المجاهد إلى الناس في ثيابه القصيفة تضم قلبا كبيرا وعزما ماضيا، ويشد على يد المستغلين وبنثر الخير وينظم الأمر. وكان لعمر رضي الله عنه جولات، في مدته القصيرة التي لم تتجاوز عامين، في ميادين التثقيف والإصلاح الاجتماعي وضبط الأموال وتقويم الحكام الرعية.

إن لنا في ابن عبد العزيز أسوة، أسوة لرجال الدعوة في انتظار رحمة الله تأتي بتدبيره تعالى على يد من شاء هدايتهم من حكام المسلمين بالرفق الاسلامي والتؤدة لا العنف، وأسوة لحكامنا أن قدروا أن يتبينوا خطوط القوة في سيرة حفيد الفاروق ويلتمسوا لأنفسهم سيرة على نمطه، ولهم فيه أسوة أن يردوا الظلمات وجمعوا إرادة

أمة مفتونة خائرة ليوجهوها وجهة الخير، وجهة الله ورسوله، قبل أن يغتالها غول الحلول الثورية الشيوعية الكافرة السائرة إليها دولنا على درب الانقلابية.

فيما يلي نبذ من اخبر مولانا عمر بن عبد العزيز ليست تفي بالحاجة إلى معرفة سيرة الرجل الفذ لكنها تضع معالم الطريق. ولي الخلافة بعدها من سليمان بن عبد الملك، فم يرض حتى رد بيعته على الناس وجعلهم في الخيار فأبوا أن يقلوه. فعندها التفت إلى نفسه:

"فأما ثيابه فقد نزعها، وغسل عنه ذلك الطيب، ولبس كساء بثمانية دراهم. وأما شعره فقد دعا الحجام فأخذ منه كل فضلة، ثم أمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر، فبلغ بيعه ثلاثة وعشرين ألف دينار وأربعة وعشرين، ثم دفع المال إلى بيت المال"¹. وبطل الابهة والسراقات وضم كل ذلك لبيت المال. ونظر في من حوله فرأى رجلا عرفه بالصلاح فجعله أخص الناي به:

"ثم نظر عمر في وجوه الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الأنصاري، وكان تقيا، فقال له عمر حين رآه: والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن،

¹ عبد العزيز سيد الأهل: "الخليفة الزاهد" ص 99.

ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة،
خذ هذا السيف قد وليتك حربي"¹.

وعمد إلى بيته فجرد نساءه وبنيه من كل فضلة، وجرد بيت
سليمان وكان مليئاً بالجواري عرض على عمر كالدُمى فسرهن.
ثم غاب عن الناس مع مولاه مزاحم الرجل الصالح ثلاثة أيام جمع
فيها سجلات الاقطاعات ،التي في يد بنى امية،ثم خرج على الناس في
ثياب قدر رجاء بن حيوة باثني عشر درهما: حلة من قميص ورداء
وسراويل وقباء وعمامة وخفين. ووقف مزاحم دونه فخطب الناس
قائلاً² بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أما بعد فإن هؤلاء (يعني بي أمية رهطه) عطايا ما كان ينبغي لنا
أن نأخذها، وما كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن
يعطونها. واني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب. واني قد
بدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم! فجعل مزاحم يخرج سجلا
سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا لعمر أو للأمرء، ثم يقرأوه فيأخذوه
عمر وبيده الجلم فيقطعه، وما زال حتى جاء الظهر ونأى المؤذن
للصلاة".

وأمر عمر ألا ينتفع أحد بأرض مغتصبة، ونادى أن ليس أحد مال
إلا بما في كتاب الله.

¹ المصدر السابق ص 101 نقلا عن ابن عبد الحكم.

² المصدر السابق عن ابي الجوزي ، ص : 103.

هكذا بدأت السيرة المجيدة؛ فبعد أن اكتسب عمر "قابلية التصديق" « Crédibiliyé » عند الناس تيسر له أن يدخل الإصلاحات الجذرية التي كانت خليفة أن تغير مجرى تاريخ الأمة لو لم يعالجه ثعالب رهطه الجبناء ويدسوا له الموت. إن اخلاصه وصدقه مع الله مكناه من الفوز على الفتنة والاثرة لأنهما هيناً له أن ينتصر على نفسه بالحق.

المترفون من أمرائنا، أمراء الأسر العريقة وأمراء الانقلابية، يتخبطون في مداهم الفتنة لا يصلون إلى خير، أولئك يعميهم ترف المال والعقار، وهؤلاء لا ينهضون من مس الهوس الفكري والترف المذهبي. وليس المفتاح إلا الصدق مع الله تعالى والرجعة إلى دينه بعزيمة كعزيمة عمر، يقص بجلمه سجلات الباطل وعهوده ولسجلات مترفينا وعهودهم أظلم عند الله لأنها ما تتناول العقار تستأثر به فقط، وإنما يخط فيها موثيق وبود تحل ما حرم الله وتلغي شريعة محمد رسو الله.

ما أروع الاسوة التي عطر الله بها تاريخ بني أمية، تاريخ القومية والعصبية والظلم، إذ أخرج من صفوف بني عبد شمس شاباً مومناً ترك وراءه زخرف الحياة وأبهة الملك، يخاف ربه فلا تصده هيبة الخلق ولا يعتريه وهن في سبيله سبيل الله ورسوله. كان رضي الله عنه يدخل على بناته يسلم عليهن بعد صلاة العشاء. فدخل يوماً فلما أحسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب. فسأل الحاضنة:

ما شأنهن؟ فقالت: إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن، فبكى عمر ثم قال لهن: يا بناتي! ما ينفعكن أن تتعشين الألوان ويمر بأبيكن إلى النار؟ فبكين حتى علت أصواتهن.

هذا الرجل القوي بقوة اله طهرت روحه حتى أصبح أمين اله في أرضه يبطش بالحق ويهدي إلى الحق، وبتوفيق الله وتسديده وجهد المومن التائق لرضى ربه فأقام عمر العدل ووضع الظلم فجاءه من الله النصر المبين إذ عم الخير كل الناس حتى فاض المال فلا يجدون له موضعا. حكى رجل من ولد زيد بن الخطاب قال: "انما ولى عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرا، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله. قد اغنى عمر بن عبد العزيز!"

إن الحل الاسلامي لمشاكلنا الدنيوية لن يتأتى أبدا بالعنف لأن العنف على المسلمين زيادة في الفتنة، والفتنة وموقفها ملعونة بلسان الشارع، فلا يزكى الله لأنه خروج عن قانون الله. ونحن إذ ننشد قائدا مجاهدا تبرز عينا طلعتة من دنيا الترف الفكري المذهبي أو دنيا الترف التالد الغارقة فيه قادتنا، وإذ نعرض سيرة الخليفة الخامس عليه السلام، وإذ نكتب المنهاج النبوي لتغيير الإنسان نبحت عنه من مطلب التزكية الروحية من فلاح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى، إنما

نلتمس مخرجا لضيق حاضرننا وظلمة المستقبل في أعيننا بالرفق الإسلامي والعزيمة المومنة، بالصدق مع الله والتعرض لموعوده. وإن قوانين الاقتصاد والاجتماع يراها شبابنا وذوو الشأن منا المفتونون تتعقد في أزمة صراع طبقي لها حل واضح حتمي في صحف الشيوعية وواقع الثورات الاشتراكية، إنه العنف الثوري. وإنها لنشوة في أحلام شبابنا المثقف على نهج الفكر الملحد أن يتتبعوا "مراحل" التعقد اذي ينتهي إلى غاية مرسومة يتولى عندها زمام الأمر ثوريون أبطال يحسنون منطق الجدلية ويحسنون السلوك الجدلي الذي يقضي أن تفنى طبقة طبقة حتى يهلك الظالمون. ونرى رحمه الله في أفق هذه الأمة تبشر بخلافة على منهاج النبوة؛ حين يصنع الله لنا ويضطرنا اللجوء إليه ويبعث فينا رجلا كعمر بن عبد العزيز رحمه الله.

رجال الرباط: آل أمر الأمة بعد الفتنة الكبرى وبعد يزيد والوليد إلى أثره وترف، ولم يبق هم للخليفة الأموي في هداية الناس إلى ربهم، وحاول سيدنا عمر بن عبد العزيز أن يعيد الأمر إلى نصابه حاملا رسالة من زعم المترفون أنهم له خلفاء، فكانت الشهور الثلاثون زمن جهاد في كل الواجهات، جهاد لهداية الخلق لا لجباية أموالهم الباطل. وكتب الخليفة الصالح إلى عامل له اشتكى أن الناس يدخلون في الاسلام تفاديا لدفع الجزية: "ويلك إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا".

وبعد وفاته رضي الله عنه رجعت الدولة دولة جبابة كما كانت، وقوي الطغيان الأموي، واستشرت العصبية العرقية، واستبعد الذين كانوا يسمونهم موالى بمعنى الاحتقار ولم تكن الكلمة على عهد الرسول وصحبه إعنوانا لمن دخل في ولاية المسلمين ومحبتهم. أقصى الموالى من ميادين العمل وامتنهوا، وتلك خاصة بارزة من خصائص الجاهلية، حتى بلغ السيل الزبا وثار "الولى" وحكم بنو العباس، فتضاعف الترف باتساع المملكة، وكان هرون والمأمون وسلسلة الأمراء الذين انفقوا كنوز الأرض في الولائم البرمكية الجامعة بين إقدام العربي وحيويته وبين الترف الفارسي الكسروي.

يقول السيد أبو الحسن الندوي واصفا تدهور المسلمين وترفعهم¹: ولم يكن رجال الحكومة، حتى الخلفاء، أمثلة كاملة في الدين والأخلاق، بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم ونفسياتهم في الحياة العامة والاجتماع، وأصبحوا أسوة للناس في أخلاقهم وعوائدهم وميولهم. وزالت رقابة الدين والأخلاق، وارتفعت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنها لا تستند إلى قوة لديهم ولا تحميها حكومة، وإنما يقيم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، والدواعي إلى خلافها متوافرة قوية. فتنفست الجاهلية في بلاد الاسلام ورفعت رأسها، وأخذ الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات

¹ "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"، البعة السابعة، ص: 134.

والشهوات واستهتروا استهتارا. وظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هناك من رغبة جامحة إلى اللهو ، وتهافت على الملاهي والملذات ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها، وبهذه السيرة، وبهذه الأخلاق المنحطة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي وسالة الاسم، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء ، وتذكر بالله والآخرة، وتحض على التقوى والدين، وان تكون أسوة للناس في أخلاقها، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمنا طويلا: "سنة الله في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا"

ونتيجة ترف المترفين تتمزق دولة بني العباس في الشرق ودويلات الطوائف في الأندلس، وهكذا شهد القرن الخامس تفهقرا ينذر بزوال الإسلام في الأندلس لولا أن قيض الله للإسلام رجلا خرج من رباط صوفي هو يوسف بن تاشفين. وشهد القرن السادس تصلب الصليبيين في بلاد المشرق وطغيانهم حتى قيض الله لهم صلاح الدين الرجل المجاهد التقى، وشهد العالم الإسلامي بعد ذلك زحف التتار الذين مزقوا ملك بني العباس، لولا أن الله أرسل عليهم جيوشه من المماليك لهلك المسلمون. وكان للمماليك تربية صوفية وفتوة، ويذكر المقرئزي أنه كان لهم أورااد معلومة هي من صميم تربيتهم العامة، كما يذكر الشعراني في طبقاته الكبرى كيف كان ببيرس قاهر التتر يخرج بحفاوة بالغة مع جيوشه احتفالا بمقدم السيد أحمد البدوي ولي الله الكبير وكيف كان يتذلل بين يديه. صوفية كل هؤلاء الرجال الذين

ابتعثهم الله لإنقاذ الإسلام في عصور الظلمة السابقة، ومن الصحبة
لأولياء الله ننتظر الخلاص من ورطتنا الحالية.

بنو العباس كانوا في القرن الخامس ساديين في قصورهم،
والفاطيون قبعوا في مصر لاهين عابثين، بينما قويت شوكة الفرنجة
في البر والبحر. وفي بلاد المغرب الأقصى برزت طائفة البرغواطيين
المارقة الكافرة وعم بلاؤها. في هذه الأثناء كان في مشارف الصحراء
المغربية الجنوبية رجل يسمى عبد الله بن ياسين يؤسس رباطا صوفيا
تخرج منه الرجال الذين حرروا الأندلس من العدو الغازي وزادوا في
عمر الإسلام بالأندلس قرونا عدة.

عبد الله بن ياسين تلميذ رجل صوفي يدعى وجاج، وكان وجاج
صاحب رباط صوفي شيخه سيد القيرواني أبا عمران الفاسي ، صوفي
سنده ينتهي للإمام الجنيد. وإنما قدم بلاد الملتمين في الصحراء مع
أمير تلك البلدة يحيى بن ابراهيم الذي جاء بالفقيه الصوفي ليحيي سنة
رسول الله. وعظم الملتزمون الداعي الشاب عبد الله بن ياسين وسمت
مرتبه بينهم، عظموه وقصدوه. ورباهم رضي الله عنه تربية رجولة
وفروسية على التقل والتعفف كما تريد السنة النبوية وكما هو شأن
أصحاب الربط الصادقون. يتحدث مؤرخ معاصر عن الربط في ذلك
العصر كما يلي:¹

¹ كتاب " قيام دولة المرابطين " للدكتور حسن أحمد محمدو 1957 ص : 133.

" كان أهل الربط يتقللون من الطعام، فلا ياد يزيد على الشعير والزيت.. كانوا يتقشفون في الملابس كتقشفهم في المأكل، لا يلبسون إلا الخشن الذي يستر العورة ... وقد خدمت هذه الرباطات الإسلام أجل الخدمات وأسدت إلى السنة المحمدية أيادي بيضاء، فعصمت أهل المغرب، لم تعبت بهم يد الفتنة في وقت انتشرت فيه المذاهب الضالة... كما عمل المرابطون على نشر الإسلام والدفاع عن حوزته وإعلاء كلمته. فكانت الرباطات ملاجئ يعتصم بها الناس وقت الفتنة... حتى إنه ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية، وهم الذين دكوا صرح الفتن المذهبية في إفريقية والمغرب".

وبينما كانت في رحاب دار الإسلام قصور تشاد وتعمر، وتغور تهمل ويدخلها العدو، أخذ عبد الله بن ياسين يربي جيلا قويا على الكتاب والسنة يصف المؤرخ منهاج التربية في رباط الصحراء هكذا:¹

" ولم يكن عبد الله بن ياسين في الواقع مجرد فقيه يفتي بين الناس فيفسر القرآن ويروي الحديث، بل كان رجلا نافذ البصيرة بعيد النظرة ذكيا خبيرا بالمجتمع الذي يعيش فيه، له قدرة خارقة على التأثير في نفوس مريديه... وروى المؤرخون أنه كان يتردد طويلا قبل أن يضم المرید إى زمرته، فإذا وافق على ادخاله في رباطه ألزمه

¹ المصدر السابق، ص : 142.

أن يظهر روحه من الدنس والرجس، وأن يسلم اسلاما جديدا، وأن يحاسب على ما اقترفت يداه من اثم في حياته السابقة.

ولما تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تربية نخبة قوية ظهرت أرواحها وقويت عزيمتها خرج للجهاد جهاد نشر الدعوة إلى الله. لكنه لم يناعز ذوي الأمر أمرهم، وإنما بقي مرشدا مربيا وترك الامارة لأهلها حتى آلت إلى تلميذه يوسف بن تاشفين. يقول المؤرخ¹: "وقد قنع عبد الله بن ياسين في هذا المجتمع بدور الامام الذي يعلم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقود الناس إلى الطريق السوي".

وآل الأمر للمجاهد العظيم خريج الرباط الصوفي رجل الإسلام الفذ يوسف بن تاشفين فحمل راية الجهاد وحارب الكفر في بلاد المغرب وهزم الكفرة المردة وتهيأ له فتح الله للمسلمين على يده في مواجهة الصليبية الحانقة الغازية لبلاد الأندلس.

وكان الزمان لم يتحول منذ القرن الخامس، فالمسلمون اليوم خاشرون أمام عادوهم، وفتن الضلالات البائدة أعقبتها فتن المذهبية الاشتراكية والنزاعات الايديولوجية. ما أبه الليلة بالبارحة! وما أحوجنا إلى رجال دعوة يصرفون همه للتربية والتبشير بموعود الله مدركين كما أدرك عبد الله بن ياسين ان الدعوة والقيادة الجهادية دعامتان للنهضة الاسلامية ! وما أحوجنا لقائد مجاهد مثل يوسف بن تاشفين! إن كان للمولى عمر بن عبد العزيز فضل التخلي عن ملك

ظاهر مترف فإن فضل يوسف أن حافظ على سمت الرباط وتقلله لم تفتنه الشهرة والقدرة. رضي الله عنهما في شهمين كريمين!

يقول المؤرخ في وسف يوسف المجاهد²:

" وكان يوسف بن تاشفين كفتا لذلك المجهود المضني (مجهود الجهاد) وهذه المسؤوليات الجسام "لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه وسداد رايه ويمن نقيبته" فقد توفرت له الصفات التي تجمع حوله قلوب شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة ... فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التي كان يقودها بفطنة وحسن طالع يسبغان عليه جلال الفروسية التي تلهب حماسة الجند، فيندفعون وراءه اندفاع الصاعقة. كما كان جوده وتقشفه واحتقاره لمظاهر الترف في ملبسه ومسكنه أسوة حسنة وقدوة يحتذيها كل مرابط مخلص. بل بلغ من تقشفه وزهده انه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الابل ولا يشرب سوى لبنها، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة التي توفرت له أن يؤلف القلوب وبذكي الحمية في النفوس ويصبح سيد الموقف بلا منازع".

وكانت تنتظر هذا الرجل السيد مهمة عظيمة، فقد كان البر الاندلسي في أحلك ساعاته، يقول المؤرخ³:

¹ المصدر السابق ص : 145.

² المصدر السابق ص : 222.

³ المصدر السابق ص : 259.

" إن الأوضاع في الأندلس تناهت في السوء، وأصبحت الحياة فيها شاقة عسيرة، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها؛ تحكمت الذاتية في أطماع الناس شعبا وحكما، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لا يحسبون حسابا لغدهم، منغمسين في الترف متهافتين على الملذة. وكان من الممكن أن تضطلع إمارة إشبيلية بحركة توحيد القوى الإسلامية في شبه الجزيرة، وكانت الظروف ترشحها لمثل هذه الزعامة، ولكن أمراءها أعمتهم الأهواء الخاصة، وابتاعوا السلم الزائف بأفدح الاثمان، ومدوا أيديهم للطاغية يحالفون ليفتك بإخوانهم في الدين".

تهياً للمجاهد الكبير مستشعرا تقوى الله متدربا بالصبر والایمان، فعبر إلى الأندلس ولقي العدو الفاتك الصائل على قلوب الأمراء الخائرين المترفين، فكانت معركة الزلاقة وما فتح الله ليوسف يومها عيداً للمسلمين. يقول المؤرخ¹:

" وكان لهذا النصر صدى عظيم في الشعور الإسلامي العام، إذ سرعان ما تناقله الناس في الأندلس والمغرب، واحتفلوا به أبلغ احتفال، وراح المؤرخون يشبهون يوم الزلاقة بيوم القادسية واليرموك، وعمت الفرحة بلاد المشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي هنا يوسف بهذا النصر، واعتبره الأمير المثالي الذي كان يرجو أن يظهره

¹ المصدر السابق ص : 274.

الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهنئين مباركين".

صلاح الدين: يصلح الدين كلما قىض الله رجلا يجدد في نفسه جهاد التائبين ويجدد سيرته للناس القدوة الحية الكاملة ويجاهده شؤون المسلمين. ويشاء الله أن يكون من بين هؤلاء الرجال مجاهد تائب متطهر حمل لقب صلاح الدين بعد أن كان للدين صلاحا.

صلاح الدين الأيوبي معجزة من معجزات الله؛ يبرز في زمن بلغ فيه الفساد أقصى ما يمكن أن يبلغه، وهجم فيه عدو قوي متماسك شري والمسلمون شيع وطوائف في كل مدينة مملكة، ولكل أمير حاشية مترفة تتباهى وتتنافس بما تناله من أموال المسلمين تبدها في ملذاتها. وفي الشارع فتنة وفي الأندية فتنة، وللدعوات الهدامة سوق رائجة.

وهياً الله السيد نور الدين بن زكى فمهد لصلاح الدين. صلاح الدين التائب من مجونه الرجل الذي قارع الصليبيين وهزمهم وضرب مثلاً للرجولة والشهامة. كتب عنه الاستاذ علي الطنطاوي يقول¹: " هذا الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر، ثم جاد بها بيد الكرم، هذا الذي روع أوربة مرتيت؛ مرة حين قهر جيوشها بسيفه ومرة حين شده نفوسها. هذا النموذج الأثم للقائد المنصور، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل، والمسلم الصادق. وكان المحرر

¹ مجلة " المسلمون" العدد الثالث، 1384.

الأعظم، حرر هذه البلاد، الشام وفلسطين، من استعمار الأوربيين بعدما استمر نجوا من مائة سنة.

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه أعظم الإعجاب وأصدق الحب، وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد وأعطر السجايا. وكان اسمه من أضخم الأسماء التي رنت في سمع الزمان، ودوت في أجاء التاريخ، وخلدت على وجه الدهر : "صلاح الدين الأيوبي".

سقطت على أقدامه الدول، ووقفت على أعتابه الملوك، ودانت له الرقاب، وانقادت الخزائن. ومات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهما ودينارا ذهبيا واحدا. ولم يترك دارا ولا عقارا. فجهز وأخرجت جنازته — كما يقسم القاضي ابن شداد — بالدين!! «.

يذكر ابن شداد القاضي أن صلاح الدين تاب عن المحرمات والملذات التي لا يتنزه عنها مثله من الأمراء ولا يفصل لنا كيف تمت هذه التوبة، ومن كان المرشد الذي أخذ بيد الشاب المترف حتى جعل منه رجلا. ولعل ابن شداد رحمه الله لم يتعرض لذلك لأن الصحبة الصوفية كانت أمرا عاديا في القرن السادس والسابع فقد كانت الرباطات زالخانقهاات منتشرة في المشرق انتشارها في المغرب. ونجد عند المقرئزي إشارة إلى هذه الصحبة فيذكر اسم القطب النيسابوري، ويخبر أن صلاح الدين أخذ عقيدته عن الدليل. يقول المقرئزي¹:

¹ " السلوك لمعرفة دول الملوك" الجزء الأول — القسم الأول ص : 41.

" ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تطريت سنة 532. كان أبوه نجم الدين أيوب واليا بها، ثم انتقل بابنه إلى الموصل، وصار منها إلى الشام، وأعطى بعلبك فأم بها مدة. ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة وجالس مشايخ أهل العلم، فجمع له الامام قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمود بن مسعود النيسابوري عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه. فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده، ويأخذها عليهم. وكان يواظب على الصلاة مع الجماعة حتى قال يوما: "لي سنون ما صليت إلا في جماعة"، وكان إذا مرض استدعى الامام وحده صلى خلفه...

وكان صلاح الدين رحمه الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء. وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً.

كان الرجل اذا ذاكرا لله حسن العقيدة قد اخذ عقيدته عن دليل. ولا اخال ان المقرزي يقصد دليل علماء الكلام انما يقصد الصحبة الصوفية. و زكي الملك العادل بتقريب العلماء و الافاضل من المسلمين و اعلامهم، مثل القاضي الفاضل، والقاضي ابن الزكي، و القاضي ابن شداد. وكان ياتى الى العلماء و الصالحين يزورهم، فقد أخذ أولاده وزار بهم الحافظ الأصفهاني في الاسكندرية. وكان كثير التهجد والدعاء والبكاء، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد.

ومن تقواه رضي الله عنه استمد هذه القوة الكبيرة وهذه المهمة السامية والسجايا والمزايا والشجاعة والفتوة والكرم. ذكر اله ودعاه حتى أثار قلبه فأصبح طاقة هائلة نفاذة، وانصرف همه إلى أحوال المسلمين المنكسرين المشتتين المنهزمين فكرس أوقاته و كل جهوده لسعي واحد؛ هو الجهاد في سبيل الله. قال ابن شداد: ¹

"ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آله، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبته الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه و سكنه و سائر بلاده. ووقع من الدنيا تالسكون في ظل خيمته تهب بها الرياح ميمنة وميسرة. وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد".

اننا اليوم ننهزم امام اعدائنا لاننا نوثر الدعة و العيش الرغد على خيمة الجهاد. و لا تبني الرجال المتطلعون الى موعود ربهم بالنظر في صحف الايدولوجية وسجلات القوم الكافرين، انما تبني الرجال في المسجد في صلاة الجماعة وفي الخلوات يذكر فيها اسم الله ويدعى فيها الله ويبكي فيها خوفاً منه تعالى وشكراله وتزلفا اليه. وبالصحبة للاخيار تتفق الهمم من اكنانها وبالذكر تزول غشاوة الغفلة عن

¹ النوادر السلطانية ص 17. نقلا عن ابي الحسن الندوي في كتابه "الاسلام من جديد!"

القلوب. هذا هو المنهاج النبوي الذي صنع عمر بن عبد العزيز
اليوسفين الصالحين. ولا تقوم لنا قضية ولا نجتمع
من شتاتنا ولا تقف امام عدو الا باكتشاف هذا المنهاج والسير
على هديه.

يوسف بن ايوب كان في نفسه صغيرا، فهو متواضع حلیم لا
يغضب لنفسه ابدا لهوانها عليه. هذه هي الفتوة الصوفية، وهذه سمة
الاقوياء الذين تجول الدنيا حولهم لانهم ذكروا الله ونسوا انفسهم، و
من ذكر نفسه ونسي الله كان من الهالكين، و تمكث مع شهواته
ونزواته عن جهاد الكرام. صلاح الدين رضي الله عنه كان يبذل من ذات
يده ويبذل من ذات نفسه لا تعترضه متعة التملك والتعالي. فهو كان
قائد المعارك يخوضها بنفسه ويكون في ميدانها اكثر الكماة بلاء
واعظم الرجال نصيبا من الاجتهاد والاستبسال، قال ابن شداد في واقعة
عكا:

"وهو (السلطان) كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب الى طلب، و
يحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الاطلاب بنفسه وينادي بالاسلام
وعيناه تذرفان بالدموع. وكلما نظر الا عكا وماحل بها من البلاء وما
يجري على ساكنتها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على
القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب اقداح مشروب
كان يشير بها الطيب."

نعم، رجل مومن يهتف بالاسلام و يذرف الدموع! هذا هو القائد المجاهد الذي نحتاج اليه اليوم، يكون على مثال صلاح الدين، يبيع نفسه لله وينسى لهوه، ويرصد كل التقوى وكل الجهد لبناء الاسلام والذود عنه.

ان من بين الدعاة الالحاد والفكر في دار الاسلام اليوم قوم يرون ان المعركة الاولى يجب ان تكون في عواصم بلاد المسلمين. يريدون ان يتقاتل المسلمون و تسفك دماؤهم حتى تنتصر العقيدة الايديولوجية اولا وينهزم الاسلام، وبعدها ينظر الباقون هل لهم عدو في القدس وغيره من ثغور المسلمين. و لن يجدوا و لا شك عدوا لان الايديولوجية دين يسوي بين اليهود والمجوسي والعربي الذي انسل من تقاليد الاسلام!

معاذ الله ان ياتي المسلمين خير ممن هنهم في الرياش و القصور او همهم في النصب البطولية التي يحلم بها كل مرشح للزعامة الاضطرابية او من المفتونين المترفين بالفكر الجاهلي العنيف. وان اللص السافر الذي يهرب الاموال متخفيا لينفقها في شهواته اقل خزيا من اللصوصية المسترة تحت شعارات الحفاظ على الثروة. وكلاهما عند الله مخزي ممقوت.

ذكرنا صلاح الدين بفساد الدين وخراب الذمم في عصرنا. ولا للمصدور من ان ينفث. وانما قصدنا ان ندل على باب التوبة والرجولة، على منهاج التربية الاسلامية التي اخرجت للناس نماذج ساطعة

للطهارة والقوة والفعالية.يرحمك الله ين ابن ايوب فقد بلوت البلاء الحسن،ز عند الله كرم المثولا والعطاء لمن خشيه سبحانه وجاهد في سبيله.

بقية الخلفاء الراشدين:في القرن العاشر الهجري فتت الدولة المغوليةالاسلامية مباك جبار اسمه"اكبر" بلغت فيه المفسد والضلالات منتهاها كما يعتبر الاستاذ المودودي.كفر الامبراطور "اكبر"واخترع للناس دينا جديد مزج فيه تعاليم الاسلام بترهات المجوسية الهندية، ثم اخذ يتنكر للاسلام شيئا فشيئا حتى كان كفرا صريحا وحتى اصبحت اسما احمد ومحمد وما شاكلها من ابغض الاسماء عند الملك وحاشيته لبغضهم صاحب الرسالة الاسلامية صلى الله عليه وسلم. وانتهى الامر بالملك الكافر أن ادعى الألوهية واتخذ للولة شعار"الله اكبر"يرجع الألوهية الى نفسه. وكان سلام رجال البلاط أن يقول المسلم : الله أكبر، ويرد عليه الحاضرون: جل جله. وقتل العلماء واضهد الناس في دينهم. وضافت الدنيا على المسلمين سيما والفتنة بالدعوات الزائفة دعوات الباطنية "والفلاسفة" وأصحاب البدع استشرت وعم بلاؤها.

في هذه الأثناء بعث الله للمسلمين في الهند رجلا نحيفا ضعيفا تربى على يد شيخ صوفي "باقي الله" أنه الشيخ أحمد السرهندي الذي جاهد في اللخ حق جهاده، جاهد بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعا إلى الله على بصيرة وربى المريدين. وشاء الله أن يتخرج من زاويته نادرة من نواذر الزمان هو الملك الصالح "أورنك زيب" من حفدة

الطاغية أكبر. من زاوية السيد السرهندي تألق نور صبح جديد لم يلبث أن أضاء بلاد الهند حتى عاد الاسلام إلى عزه وصفائه. بالمنهاج النبوي، منهاج الصحبة والجماعة والذكر، حييت أمة الاسلام بالهند كما حييت به أول مرة تحيى. وبالمنهاج النبوي تخرج المنقذ الفاضل الأواه القائد الجهادي حفيد الطاغية الجبار.

ولنا أن نتأمل تدبير الله تعالى على المنهاج النبوي منهاج الصدق والتصديق بالنظرة الفطرية والنظر العقلي معا. إن الله جل شأنه يصرف أمور عباده لا يحجره المنطق البشري، ويخرج الحي من الميت كما يشاء. وتفاؤل الصوفية وانتظارهم لفرج الله ورفده لا تمنعهم من السعي والعمل، إنما يكون موعود الله للمومنين هاديا لهم يسلكون إليه على الأمر والنهي. هذا رسول الله الأمين عليه الصلاة والسلام يحدثنا أن الله سيعيد الخلافة على منهاج النبوة بعد فساد الزمان وهذا هو يأمرنا بالرفق وعدم العنف والدؤوب على العمل بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى يأتي أمر الله، ويتحقق التدبير الإلهي في التاريخ وموعود الله للمومنين على المنهاج النبوي بالرفق والتؤدة. الشيخ النحيف الضعيف الصوفي مولانا أحمد السرهندي ما قاتل بالسيف وما جاهد كفر أكبر بالعنف، إنما دعا إلى ربه فأيده الله، حتى إذا انتقل إلى ربه دخل زاويته طفل صغير كان هو معقد التدبير الإلهي بعد أن طغى الكفر وعم خراب الدين.

ننقل أخبار الملك الصالح "أورنك زيب" عن مقال للأستاذ الفاضل السيد علي الطنطاوي¹:

"ولما مات أكبر وولي ابنه جهان كير (أي زمام الدنيا) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي بن الشيخ أحمد السرهندي أن يشف على تربية طفل صغير هو أحد حفدة جهان كير.

ولم يكن هذا الطفل كبير إخوته، ولا كان ولي العهد، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك. ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده، وبذل له رعايته كلها، فنشأ نشأة طاب في مدرسة دينية داخلية بين المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوده، والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط أتقنه، وألم بعلوم عصره. وربى مع ذلك على الفروسية ودرب القتال.

... وكان جلوسه على سرير الملك سنة 1068، وكأني بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية سيدخل خلوته ويعمل من قصره مدرسة أو تكية يصلي ويقرأ في كتب الفقه ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهدا فيها! كلا يا سادة! وما هذه خلائق الإسلام، ولا هذه طريقة العمل لإسعاد الناس وإقامة العدل ورفع الظلم وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض. كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب (نقول نحن : بعد أداء صلاة الفرض) بل هو خير من صلاة النفل (نعم!) وصوم التطوع. وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة ! (نعم نعم !).

¹ مجلة " المسلمون " العدد الخامس 1374، ص 81 وما بعدها.

لذلك ترونه ليس لامة الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه يقضي على الخارجين ويقمع المتمردين ويفتح البلاد ويقرر العدالة والأمن في الأرض. وما زال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة، ومن بلد يصلحه إلى بلد، حتى امتد سلطانه من سفوح هماليا إلى سيف البحر من جنوب الهند. وكاد يملك الهند كلها حتى قضي شهيدا في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيدا عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيلو.

ومن خاض هذه المعارك استنفذت وقته كله، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل أو نظر في أمور الناس. ولكن أورك زيب حقق مع ذلك من الإصلاح ما لم يحقق مثله إلا قليل، قليل من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها بمثل عين العقاب كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نامة فساد، وأقر كل بادرة اضطراب، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقيا من الزندقة التي جاء بها "أكبر" أبو جده. وكانت الضرائب الظالمة ترهق اناس، ولا ينال أمراء المجوس لفح نارها؛ فأبطل منها ثمانين نواع. وسن الضرائب سنة عادلة...

وبنى المساجد في أقطار الهند وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دورا للعجزة ومارستانات للمجانين ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل في الناس جميعا، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء. وكان أول من جعل للقضاء قانونا فكان يحكم في القضايا

الكبرى بنفسه لا حكما كيفيا بل حكما بالمذهب الحنفي معللا له مدلا عليه. ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية. وكان للامبراطور امتيازات فالغاها كلها. وجعل نفسه تابعا للمحاكم العادية، ولمن له عليه أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس".

انك تقرأ سيرة أحد الخلفاء الراشدين! ليس عمر وعلي وحدهما يجلسان أمام القاضي مع عامة الناس، وفي خزائن الله تعالى لهذه الامة المرحومة فضل مذكور، ولعل رحمة الله تدركنا برجل يرح الامتيازات ويقضي ليله ونهاره في النظر لما يصلح المسلمين. بيد أن صرح الامتيازات لا يتأتى إلا بتربية تجرد القلب لله تعالى قبل أن يكون استعداد لتجرد الجسم والنفس الحيوانية من أوهام الرئاسة وشهوات الدنيا. لا بد من سلوك وتخلق، وقد رأينا أن للملك الصالح الهندي أورادا وشيخا. فها هي أخلاقه وأعماله ومعاملاته مع مولاه عز وجل. يقول الطنطاوي¹:

" وكان بعد ذلك كله يؤلف، ألف كتابا في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية. ويكتب الرسائل البليغة التي تعد في لسانهم من روائع البيان. ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمرتها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها، وأنه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك، وأنه كان شاعرا موسيقيا ولكنه ترك ذلك وكرهه، وأبطل ما

¹ نفس المصدر ص : 500.

كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا، ولم يكن يراهم لآزمين
لامة تبني فيالأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك
مجال، والجمعة في المجد الكبير ولو كان غائبا عن المصر لأمر من
الأمر يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثم يذهب حيث شاء. وكان
يصوم رمضان مهما اشتد الحر، وما أدراك ما حر الهند! ويحيي
الليالي بالتراويح، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة في كل أسبوع
من أسابيع السنة، ويداوم على الطهارة والوضوء، ويحافظ على
الأذكار، ويمد أهل الحرمين بالصلاة المتكررة الدائمة.

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم والبراعة في فنون الحرب
وفي التنظيم الإداري. فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعب هذه العبادة، ويقضي بين الناس، ويؤلف العلم،
ويكتب المصاحف، ويحفظ القرآن، ويدير هذه القارة الهائلة، ويخوض
هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته، ويعيش حياة مرتبة، فوقت لنفسه،
ووقت لأهله، ووقت لربه، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها.

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل، وكان أعظم ملوك الدنيا في
عصره. وكانت بيده مفاتيح الكنوز، وكان يعيش عيش الزهد والفقر،
وما مد يده ولا عينه إلى حرام، ولا أدخله بطنه، ولا كشف له إزاره.
كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير،

من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدوقل. هذا هو الملك الذي قلت أنه كان بقية الخلفاء الراشدين، توفي في مقل هذا الشهر =شهر ذي الحجة) من سنة 1118 هـ. وما رأى الناس يعده وقلما رأوا قبله مثله.

رحمه الله على روحه الطاهرة".

أما بعد: فهؤلاء رجال أربعة نبغوا في هذه الأمة حين سامها الخسف، وخرجوا نشأ جديدا وعملا صالحا مجددا من أصلاب ملوك وأمراء منهم الطاغية الكافر والمومن التقى، في دولة مترفة والظلام سائد والحق قليل أهله.

والعبرة ماثلة أمامنا في تاريخ الاسلام لا ينكرها إلا جاهل أو مباحك. إنه المنهاج النبوي كلما توفرت شروطه أعطى نتائجه الباهرة. إنها أول الصحبة الخيرة صحبة المومنين الاتقياء المشايخ أهل الله، وإنها الاستعداد والهمة المتوثبة عند المرید الصادق. وحيث تتوفر شروط المنهاج النبوي، الشرط الموضوعي والشرط الشخصي، يبرز القائد المجاهد على مسرح التاريخ ثمرة للتربية الاسلامية الكاملة، تائبا من خطياه وترفه، كما تاب عمر بن عبد العزيز وصالح الدين أو ناشئا في عبادة الله في الرباط الصوفي كما نشأ يوسف بن تاشفين وبقية الخلفاء الراشدين أجوبة الأزمنة الأخيرة أورنك زيب.

إن رجال الدعوة إلى الله ينغلقون أحيانا إذ لا يعرضون دعوتهم على الخاصة كما يعرضونها على العامة. ومنهم من يغلب على أمره فيذهب

مذهب العنف والمعارضة ويتنكب المنهاج النبوي منهاج الرفق والتؤدة، لذلك تتعثر الدعوة متأثرة بالمنهج الجاهلي دون أن تشعر، وتتخذ الدعوة الاخيار تاريخ الاسلام قراءة فاحصة لاكتشفوا أن الله تعالى جعل في الرفق خيرا كثيرا كما بشر رسوله الكريم، وأعطى رجاء بن حيوة جليس الأمراء والخلفاء الأمويين المترفين كرامة تربية عمر بن عبد العزيز، وأعطى سبحانه عبد الله بن ياسين مرشد أمراء الملتزمين السائر في ركابهم مزية اخراج رجل الساعة أمير المسلمين ابن تاشفين. وجعل سبحانه الشيخ أحمد السرهندي النحيف الضعيف الذي كان يكتب الأمراء المارقين مع أكبر ويزورهم يدعوهم إلى الله مفتاحا للفرج، إذ هيا زاوينة ليدرج فيها قلب كبير طاهر هو قلب الطفل الصغير حفيد الطاغوت.

إن قادتنا وأمراءنا ذوي الجاه من أبنائنا تاكل قلوبهم الأحقاد والنزعات وإننا في مجتمع الكراهية قاسية قلوبنا يتراءى لنا افعوان الحقد الطبقي تطعمه الأثرة والترف يقويه، فحاجتنا إلى القول اللين، إلى من يبشرنا برحمة الاسلام أكثر من حاجتنا إلى صف يعرض الصفوف ويعنف على هذا الفريق وذاك.

إن دعوة الاسلام الحق، الدعوة إلى الله على بصيرة، ما كانت ولا يصح أن تكون صفا يعادي ويعارض، وإن سبيل العنف والاعتراض يسير مسلكه لأنه يصيب منحدرًا غريزيا ويوازيه، منحدر التنافس على الدنيا والرئاسة. ورسالة الاسلام رحمة محمولة للجميع، يقول الداعي

إلى الله : "يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلاني من المكرمين". يعرض الداعي الى بضاعته، بضاعة التقوى، على الصغير و الكبير حتى يعلم الكل أن الكبير عند الله من آمن وعمل صالحا وأن الصغير من أعرض عن ربه وعقل عن ذكره. الداعي إلى الله سبيله وعر وحمله ثقيل، وليس يسلك سبيل ربه وينهض بالحمل إن لم يصبر على موقف مخالف لمواقف الناس وإن لم يصبر حين يكذبه الناس وينكرون منهجه.

بعث الله تعالى سيدنا موسى وآزره سيدنا هرون، وأمرهما بالرفق والتؤدة وهما من سمات كما أخبرنا الرسول، قال لهما ربهما:

« اذهبا إلى فرعون أنه طغى فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى".

وفي عصرنا تستفحل الجهالة في الناس؛ فإن كان من قادة المسلمين بكل من مصر فراعنة عديدون، فإنه ليسع رجال الدعوة أن يقولوا القولة اللين كما قال موسى وأخوه، لعل الفراعنة يتذكرون أو يخشون.

التوحيد والإسلام السياسي: هم الاستعمار على كل بلاد المسلمين فما نجا من الاتلال الأجنبي إلا شبه الجزيرة العربية. وحينما كان العدو يفتك بالمستعمرات الإسلامية ويكيد بأيقاظ النعرات الجاهلية ليقا تل العربي المسلم أخاه المسلم التركي برز إلى الوجود وجه جديد للإسلام مشخصا في الحركة الوهابية والقيادة السعودية، وجه مشرق شجاع

يقابل ولاؤه لله ولاء زعماء العرب لمن سخرهم في هدم الرمز الأخير للوجود الاسلامي، اعني الخلافة العثمانية المريضة، ويقابل بتماسك صفوفه خور المسلمين وتفتتهم في أرجاء دار الإسلام، ويقابل برجولة المسلم البدوي المستبسل تخنث المسلمين المتدهورين.

إن من مثقفينا من يذكر تعصب الفقهاء النجديين وأعراضهم عن الشيطان الكامن في التلفون والمذياع لينكت ويسخر. ومنهم من يحجبه التحرك السعودي نحو الحكم عن الحافز القوي الذي وراء هذا التحرك. ومنهم من لا يرى في ذلك إلا جفاء البداوة النجدية يهبط على أرض آمنة طيبة.

واليوم وقد زال الحذر النجدي من شياطين المخترعات العصرية. وأعقبه تفتح صبياني على اقتناء السيارات الأمريكية "والكادجات" المستوردة، وخفت، بل ذهبت، حدة جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شوارع مكة والمدينة، وماتت الخلافة العثمانية وانكشف الكيد الإنكليزي بالعرب عن ترد في الهاوية سحق، يمكن أن نتساءل بموضوعية: ما هو هذا الذي برز في شبه جزيرة العرب؟ أهى انتفاضة سياسية يتبعها أسراب من الفقهاء المتعصبين، أم هو تجديد للدعوة الإسلامية في ظل سيف مجاهد قائد؟

والجواب الموضوعي هو أن الحركة السعودية الوهابية كانت في هذا القرن أروع صفحة في التجديد والجهاد الإسلاميين. ويعطيك التأمل في تاريخ العرب المعاصر أن المسلمين العرب كانوا مطية

للاستعمار عن طوعية منهم، بزعم محاربة الاستعمار التركي والتعسف والظلم تعبيراً عصرياً عن الفتنة المزمنة بين عناصر المسلمين ما كان لها أن تنسي خطر الكفر الخارجي، وإذا أنسته فقد ذهبت الخلافة العثمانية بخيرها وشرها وذهبت معها ریح المسلمين خاصة منهم قومنا العرب، وضعف الطالب والمطلوب. وتحرك الموحدون السعوديون اسندوا ظهرهم لله بينما كان غيرهم يستند الى وعود الكافرين. ونصرهم الله وكاد بهم لاعداء الاسلام. وهذه امور كلية، الذاتية الاسلامية والاستغلا في الراي. و الرجولة في الميدان، لا تقاس باعراض التفتح الثقافي الذي يفتقده المثقفون عند فقهاء نجد فيسخرون من ضيق نظرة المشايخ البادين. ولو تأمل المثقفون لعرفوا اصالة الذي يلعن شيطان المخترعات ولترا اى لهم ما كان يمكن ان تعطيه هذه الاصالة من فاعلية امام عدو غاز مكفهر.

إن لقاء الدعوة الموحدة الوهابية بالأسرة السعودية كان واحداً من هذه القاءات المباركة التي جمعت صدق رجال الدعوة بصدق القيادة الجهادية، ولما أزهى هذا اللقاء بعد قرنين خرج نتاجه طيباً. وكانت الدعوة الوهابية رد فعل ضد انحدار الإسلام الصوفي¹ الذي أصبح عبادة للقبور، فلما بلغت الدعوة مداها أصبحت فعلاً ومبادرة في بناء

¹ إنه تناقض أو يوصف الاسلام بغير كونه إسلاماً، وقد ذهبت بالمسلمين رياح المذهبية حتى أصبح ثم إسلام سني وآخر شيعي، وإسلام سلفي وآخر صوفي وتجاوز هذه المذهبية في البحث عن طريق يفتح القلوي للتلقي من القرآن والسنة وليس إلا التربية، التربية الشاملة التي تبدأ بالروح تطهرها، وهذا موضوع كتابنا.

دولة مسلمة هي اليوم معقل من معاقل الإسلام تعقد عليه الآمال وينصب له أعداء الإسلام العداء ويطوقونه.

ذهب الملك المجاهد عبد العزيز وذهب الملك التائه رحمه الله وغفر لنا وله ولجميع المسلمين، والدولة الإسلامية السعودية اليوم تتنازعها في الداخل نزعات التجديد المتميزة بالاستهلاك لبضائع الترف الأجنبي ونزعات الحفاظ التوحيدي المتطهر، وفي الخارج تسعى لإقامة اسلام سياسي عالمي على دعائم التجمع العقدي والولاء المشترك لقومية إسلامية. وإزاء كل هذا قصور وأمر. فما حظ قيادة جهادية في النجاح إن كانت القيادة يتزعمها من تثقل يديه عادات ترفية موروثة؟ وهل للإسلام السياسي فرصة لإعادة القوة للمسلمين وإخراجهم من التخلف والذل؟

إذا جئنا نقيس بمقاييس انسان العادة، أي في مستوى سياسة الغافلين وبقيمهم التي لا تعدو وابية الإنسان وخضوعه لعوامل الاقتصاد والتسخير والمدافعة بين الشعوب، فإن قيام إسلام سياسي يجمع بين الكتل البشرية الهائلة من المسلمين الجغرافيين فرضية لا ينكر إمكانها العقل. لا سيما والعالم تتوزعه اليوم تكتلات مكونة أو هي في طريقها إلى التكون. فالمسلمون السبعمئة مليون إن استطاعوا أن يتحدوا، وقدرتهم على الاتحاد رهن بنضج قياداتهم وهو أمر محتمل وإن كان لا تبدو بوادره، يمثلون قوة عديدة لا يستهان بها وموارد اقتصادية تعطيهم قوة المساومة على قدر براعتهم في السوق

السياسية الدولية. والإسلام السياسي إن أصبح إيديولوجية موحدة صادقة كفيل أن تعطي للكتل البشرية السبعمئة بديلا عن الإيديولوجيات القومية الضيقة إن استطاع القادة أن يتحدوا. أقول: الإسلام السياسي الصادق لاشير إلى هذه المذاهب الاشتراكية على اختلاف ألوانها المتكررة تحت صفاق التسميات الإسلامية. وأوضح ما أعني بالإسلام السياسي فأحدد منطلقه من تعريف لذات بتعارضها مع غيرها: نحن وهم: ويتحدد هدفها وهو التكتل لتكون قوة عالمية ولننال استقلالنا الاقتصادي.

وكل هذا، إن نجح ولا إخاله يفعل، يصنفنا مع الأمم على مستوى العادة.

وليس هذا ما نسعى إليه وما نكتب حوله، إنما نعني بالاتباع الإسلامي تجديدا كاملا وحملا للرسالة وتبليغها للعالم. والإسلام السياسي يدمجنا في هذا العالم عالم الجاهلية، وإن كان هذا الاندماج يتم تحت شعار ذاتية إسلامية.

لعل المساعي القائمة لتوحيد المسلمين الجغرافيين يسهم في إيقاظ وعي الكتل البشرية الهائلة، ولعله يكون الخطوة الأولى في طريق التحرر من الجاهلية، لكنه يمكن أيضا أن يكون الخطوة الأولى نحو ركود إسلامي جديد وبعيد المدى، فيدحن الإسلام الذي هو اسلام الوجه لله وحمل رسالته ويسخر لخدمة أهداف اقتصادية سياسية هي الغاية لا

أن يعبد الله في الأرض وفق قانونه الكامل ليكون المومنون خلفاء الله في أرضه.

أيا ما كان الأمر فدعوة الاسلام السياسي دعوة صادقة، وإن كانت آفاقها مغلقة في حدود القومية العرقية والتكتل في ذتية تعارض الآخرين وتقابلهم، فلائمة ذلك على رجال الدعوة أساسا، ويفعل رجال الدولة ما يتاح لهم وما يظنونونه الحق.

أما القصور والأمور الموروثة التي تثقل يد رجال الدولة الداعين إلى إسلام سياسي فعائق نفسي¹ وموضوعي لأي تجديد اسلامي كما نريده، قويا مشرقا فعلا يخلق رجالا حاملين للرسالة ذوي نورانية وإيمان. ساكن القصور له عائق من نفسه أن يحمل أعباء التجديد، وقد رأينا كيف تطهر عمر بن عبد العزيز ومن سردهاه من رجالات التجديد قبل أن يحققوا للمسلمين ما حققوا. والترفع عائق موضوعي لأن من ينشأ في الحلية لا يكون في الخصام مبينا. وانظر من أين برزت لنا آية الانبعاث الماوي؛ كان القائد الصيني في "ينان" بلد قفر منقطع يعطي المثال لتربية على الثقل والصبر والاحتمال؛ كان الرجل ملزما أن يقدر بيته في الجبل، في الصخر الصلب، وأن يزرع القفر فليس له معاش إلا مما يستخرجه منه، وأن ينتج لباسه ويصنع سلاحه، كل

¹ ليس هذا العائق فقط في انعدام " قابلية التصديق " وانعدام الثقة من جانب الحكوم، بل في ثقل المتخيم الدائر حوله نفسه أيضا، وأني يصلح أمة ويسوسها بالحق من لا يقدر يحكم نفسه ويسوسها، مهما صلت نيتة !

ذلك في انطلاق ثوري ينبذ عادات الترف الفكرية منها والعلمية، ومن هذه التربية تخرج رجال الثورة الصانعين للانبعاث الذي يبهر العالم.

إن صوتا ينطق بالاسلام صادقا خليق أن يثير محبة كل مسلم صادق، والدعوة إلى الاسلام السياسي يحمل لنا أملا في المستقبل وبرهانا على أن بالاسلام رمقا. لكن كل هذا لا ينسينا أن الاسلام قيام بشهادة القسط في الأرض، والقسط هو العدل، هو التوزيع العادل للثروة، هو التعبئة الجادة التي تعطي العدل وتعطي الغناء.

الانبعاث الاسلامي الذي نريده لابد أن ينتصب ندا لتحديات العصر، وأن يحقق التنمية السريعة التي لا تكون إلا بتعبئة يلتقي فيها وازعا القرآن والسلطان.

على وجه الأرض اليوم طوائف مسلمة حققت النمو الاقتصادي هي مجموعات الأمم الاسلامية في روسيا. ومآت الآلاف من العلماء والفنيين الذي اخرجتهم التعبئة السوفيتية من بين دعوة لينين وقهر ستالين ذوو كفاية فنية علمية ولا ريب، وإن كان لهم التمسك الشديد بالاسلام فذلك بفضل وعيهم القومي الذي حركه الاضطهاد الكافر فقاوموا الاضطهاد بالتكتل العقدي الذي تهيمن عليه أرواح آلاف العلماء والشهداء.

هؤلاء المسلمين ساقهم السوط السوفيتي للمدارس وحملهم على العمل في جو تساو معاشي ومثالية شيوعية فاعلة.

فهل يدرك المسلمون السياسيون في مؤتمراتهم ضرورة وصعوبة
التعبئة أم أنهم ينتظرون أن يهاجر مسلمو طشقند وتبريز لبلاد الاسلام
كما يهاجر يهود روسيا لاسرائيل؟ وإن هاجروا فألى أين، وفي ظل أية
فكرة سيعملون؟

من حيث ينتظر المسلمون من يبعثه الله لتجديد الانسان وتغييره لا
نسمع من الاسلام السياسي إلا تدبيرات لتكديس المال وتوحيد الاعلام،
ولن يكون هذا بديلا يقبه الناس للدعوة الاشتراكية القومية التي تموه
بالتسمية الاسلامية إذ لم تستطع أن ترميها ظهريا.

ولا يزال الباب مفتوحا للقائد المجاهد كما ننشده، "يعيد المسلمين
إلى الاسلام"، وإن كان يصعب علينا هذا التعبير المعروف عند المرحوم
سيد قطب، لأننا لا نخرج أحد من الاسلام ما دام ينتمي ويشهد أن لاإله
إلا الله وأن محمد رسول الله. وإنما نقول أن على القائد المجاهد
المنشود أن يتوب ويدعو للتوبة، أي للرجوع للحق وتعلم للحق
واكتشاف جديد للاسلام كدعوة عالمية ترفع الانسان من مستوى العادة
إلى مستوى الفطرة، تعطيه روحانية ونورانية وقوة كما فعلت الدعوة
الأولى.

ولا يدخل هذا في حساب الاسلام السياسي، ولو حضرت مجلسا
لسألت: "هل نحن مسلمون؟"، وهذا سؤال أساسي، إذ ليس اسلامنا
مسلمة كما يخيل لمن يطرح مع المرحوم السيد شكيب أرسلان سؤاله:
"لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟".

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

على سطح الأحداث تضيع جهود الأمة الإسلامية، فلا غناء عندهم في الدفاع عن حوزتهم لأنهم لا يقدرّون على جمع كلّنتهم، ولا غناء عندهم في كفاية حاجاتهم الاقتصادية لأن الأثرة أنهكت الضمائر وخربت الذمم فلا تقوم لهم قائمة ولا تستقيم لهم الدنيا كما تستقيم لغيرهم. ومجتمع المسلمين مجتمع كراهية وتناؤ وتناؤ بالألقاب، فما من طاقة يحصل عليها المسلمون إلا كان مصيرها أنتضيع في إرضاء النزوات العارضة، نزوات حب الرئاسة والفس على الأخ الجار، وانتظاؤ فرصة خصام حزبي أو مهبي أو فرصة غفلة تتبخ انقلابا واضطرابا. و تنصرف طاقات المسلمين، وهي ضخمة، إلى بناء استقلال اقتصادي وقوة تضرب العدو الجاثم على صدورنا.

جهود ضائعة في كل الميادين، وكدح غير منظم ولا موجه لا يبلغ أن يكون عملا، وإنما هو اضطراب محموم، ومال مبدد في يد السفهاء المترفين.

جهود ضائعة تنهك الفكر الذي كان يمكن أن ينظم ويهيء جو العمل، وتنهك الثقة بين الناس الضرورية للقاء بناء.

إنها القتنة، مجلاها التناؤ والتناؤ، وانشغال كل بما لا يعنيه عما يعنيه، ومجلاها العنف أصبح مذهباً في تدبير أمور العيش والسياسة،

فلا معول لأحد على ما ينتزعه بقوة الصارم أو قوة الغش والتدليس.
إنها الفتنة العارمة تتأجج نارها في أسواق المزايدات الإيديولوجية
السياسية، وفي أسواق الانتهاز والابتزاز، وكل ذلك ينتظر تعبئة
إسلامية بالمبايعة الصادقة.

وثقل الفتنة يقعد بنا عن الحركة، فجهودنا معها ضائعة كما يتخبط
الطفل في يد حاضنته لا تبلغ حركته الواهية أن تخفف من القبضة
القوية، فجهوده ضائعة غير مسؤولة.

بأسنا بيننا شديد ونحن لعبة العالم لا نقترح على أنفسنا ولا يقترح
علينا أساتذة الإيديولوجية إلا مخرجا واحدا نطل منه على دنيا الكرامة
والقوة؛ يقترح علينا أن نصطف صفوفًا قومية ندافع عن الدم الزكي
والمجد الخالد. ونلبي هذا النداء وننفق على إحياء قومياتنا جهودنا،
أموالنا وعرق جبيننا وبحة حناجرنا لتحيا القومية الاشتراكية أو
القومية الحرة. ويأبى الله أن تزكو هذه الدعوة وكيف والرسول علما
أنها عند الله نتنة؟ ويأبى الله أن تكون لنا القومية قوة وكيف وهي
تشئت الأخوة الإسلامية والرحم الإنسانية؟

اننا والعالم معا لعبة في يد اليسار اليهودي الكائد الذي يتخذ
غرائز التخريب في شبابنا وكهولنا مطية لبذر الشر، إنه كيد شياطين
البشر، ولا يفلت منه أبدا من يبحث له عن انتهاء في الشرق أو
الغرب، أو عن انتماء خارج الشرق والغرب عند عالم ثالث مقهور له

حماته وله هناته يعرفها الفكر اليهودي والسعي الصهيوني حامي العالم الثالث ومؤسس فكره.

خرج العالم الإسلامي من يد الاستعمار لتمسك بمقاليد أيد يحركها فكر أجنبي تنكر لواقع موروث ضعيف منهزم، وتدرج العالم الإسلامي بعد استقلاله السياسي إلى واقع ثان ضعيف منهزم، وقد آن لدعاة القومية والاشتراكية أن تخرج الأمور من أيديهم لترثها أيد جديدة تتحرك، ألا يكن بالإسلام، فستتحرك استجابة لفكر جديد وتفاعلا مع واقع جديد واقع يتألق فيه نم الثورة الصينية والانتصار الماوي، واقع يبحث فيه العالم عن توازن جديد بين دعوة الثورة العظمى المحررة للإنسان وبين دعوة الاستعمار الخالد المخاتل.

الناس يتكثرون ويتربصون ببعضهم الدوائر، وهلى هامش الانسانية يعيش سبعمائة مليون مسلم يقتلون في الصين وروسيا والفلبين، ويساوم على دمائهم وأموالهم في كل مكان، يضرب بعضهم بعضا في الهند والسند، ويضحك على مقدساتهم في فلسطين، ولا يقدرون أن يعقدوا بينهم حتى حلف الزنابر تجتمع على عدوها.

أية قوة معنوية وأي حافز « **idée-force** » يعيد لأمة الإسلام حياتها وقوتها إن لم يكن الإسلام؟ إننا لا ننتظر أن تتمحي من عقول شبابنا وكهولنا المفتونين صور الاشتراكية العريضة المنتصرة في الصين وفتنام وروسيا بين عشية وضحاها، ولا ننتظر ان ينبذ قومنا العرب وسائر المسلمين ما ابتلوا به من عادات جاهلية في أساليب

الفكر والعمل هونا ويسرا. وبتعبير أوضح لا ننتظر أن يقوم للمسلمين دولة ناجحة بفعل عصا موسى.

ليس للإسلام نموذج حي ناجح جذاب يلفت الأنظار المستعجلة ويستحوذ على الهمم ويجمع الجهود الضائعة لتكون قوة عملا. وإلى هذا يضاف جهل المسلمين بإسلامهم، بل انقطاع شباب المسلمين عن إسلامهم انقطاعا كاملا في كثير من الأحيان. وبهذا تكون طريق العودة إلى حكم إسلامي طريق جهاد وعمل دائب.

رجال الدعوة الإسلامية المجاهدون بذلوا أنفسهم ودماءهم في سبيل الله وقتلوا وشرّدوا، وأحدثوا بجهادهم للإسلام ذكرا بما برهنوا عليه من فعالية المسلم في الاقتصاد والحرب ومواساة الخلق على السواء. وكان الإخوان المسلمون وأمثالهم من رجال الدعوة، ولا يزالون، نماذج للطهر والإيثار والعمل الصالح والرجولة.

وأمام رجال الدعوة أبواب للجهاد لما تطرق، تطلب حزما وعزما وصبرا، وتطلب كد الليل والنهار.

إن الإسلام سلام ورحمة، إنه تحرير الإنسان من عبودية عاداته الدوابية ليرتفع إلى مستوى الإنسان المكرم عند الله، الإنسان المومن المحبوب في الملأ الأعلى، ذي القيمة السماوية الخالدة، وكمال الدعوة في التبشير بقيمة الإنسان، والتبشير بالسبيل المؤدي إلى هذه القيمة، بالتربية الروحية التي ترفع المرید لله تعالى فتقربه ن جنباه.

فمن رجال الدعوة كثير يلحون على الإسلام — الشريعة الأرضية القمينة أن تبرز أنظمة البشر، وهذا حق لا ريب فيه، لكن الدعوة التي على هذا النمط دعوة مبتورة، لأنها تعرض لمشاكل الإنسان على الأرض وتترك الإنسان الذي بعث من أجل تحرير روحه وإرادته معاً الرسل والأنبياء.

الدعوة الإسلامية أخذت تشق طريقها في ضمائر المسلمين، ملوا الشعارات والمذاهب فهم يتوقعون كل كلمة تكتب عن الإسلام، ويهتزون فرحاً لكل عمل إسلامي ينجح أو يتراءى للناس أنه ينجح، ويتشوفون لعدل إسلامي، لنور إسلامي يفتح آفاق المصير القوي العزيز.

فلهؤلاء المسلمين الساهرة قلوبهم في انتظار فرج الله ورحمته، ينبغي لرجال الدعوة الإسلامية أن يشرحوا أمرين اثنين:

الأول: أن يحدثوهم عما سمينه "التجربة الشخصية"، أن يدلوهم على المنهاج النبوي الذي يرتفع بالمسلم إلى مرتبة الإيمان ثم إلى مرتبة الإحسان، وبهذا المنهاج يتحرر العقل من عقالة، فيؤمن بالغيب ويقف أمام الله تعالى موقف الفطرة، وينظر إلى العالم وإلى الإنسان نظر الفطرة، يرى مشروع الله تعالى فيما يقع من الأحداث ويسلك أزماءها سلوكاً شرعياً كما أمر الله، يبذل نفسه ونفيسه في إعلاء كلمة الله، ويتخذ للعمل عدة العلم وعدة النظام وعدة الولاية بين المؤمنين يربطهم رباط المحبة فيكونوا جماعة لا مجتمعاً. وبهذا المنهاج النبوي

يتعلم المومن وتتعلم جماعة المومنين أن تسلك في عملها مسلك السمات والتؤدة والاقتصاد وهي سيما الصالحين وخصال الأنبياء.

على رجال الدعوة أن يشروا للمسلمين إن لله أولياء جعلهم رحمة في خلقه، ويدلوهم على الصحبة، ويدلوهم على المحبة الالهية، ويدلوهم على رباط المودة وطاقة المحبة ونور الاخاء والولاية بين المومنين. في دنيا العنف والكراهية وينبغي لرجال الدعوة أن يدلوا على المحبة وعلى التؤدة والرفق.

قيمة الانسان لا يعثر عليها إلا في المحبة، ولن تقنعه القيم الاقتصادية والاسترواحية التي تقوم عليها الحضارة المادية.

إن كلبة الانسانية في الاسلام عند المسلمين، وأن أول خطوة للتأكد من ذلك أن تصحب وليا لله عارفا بالله، يسلك بك على المنهاج النبوي طريق معرفة الله والايمان اليقيني يغيبه وآخرته ورضوانه.

ثانيا: أن يحدثوهم عن رحمة الاسلام ونزوعه عن وسائل العمل الجاهلي ووسائل العنف. وأن يحدثوهم عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوارد عن الفتن التي تصيب المسلمين، وعن مصير المسلم إلى النار إن حارب أخاه المسلم وحمل في وجهه السلاح.

أن يحدثوهم أن الاسلام سلام ورفق لا سيم في زمن الفتنة، وبذلك يتجه كل عمل اسلامي لتحقيق ثنائية بين الدعوة، لأن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن. معنى هذا أن تنفتح الدعوة رجال الدعوة والقائد المجاهد، الاسلامية على الخاصة والعامة، أي أن تكون نصيحة

لله ورسوله ولأئمة المسلمين. ومعنى هذا أن تتجنب الدعوة الإسلامية التنظيمات السياسية لكيلا تكون صفا من الصفوف أو معارضة سياسية، لأنها إن فعلت نزلت من المطلق إلى النسبي، من مستوى الدعوة إلى الله للخلق كافة إلى مستوى نزاعات اقليمية دنيوية.

نعم، إن الدعوة إلى الله تكون أقوى وأنجح إن كانت تستند إلى واقع اسلامي ناجح في بقعة من بقاع الأرض. لاشك في هذا! وهذا ما حاولته جماعات اسلامية ذات تنظيم سياسي تنظيم مالبة لا تنظيم واجب وإن كانت تريد إزالة الأحزاب السياسية من بلاد المسلمين، وهذا ما تحاوله جماعات أصبحت أحزابا معارضة وبؤرة خصام بين رجال مسلمين من أصحاب الدعوة، لعلمهم شعروا، بفراصة المومن، إن الدعوة إلى الله لا ينبغي أن تطرح "للجماهير" تصوت عليها تقبلها أو ترفضها أو تعييبها.

فلا يبقى إلا السعي لدلالة المسلمين كافتهم على باب التوبة، لا يبقى إلا الدعوة إلى الله، إلى الاسلام الرحمة إلى الاسلام السعادة، حتى إذا أراد الله نشأت قيادة جهادية تزرع بالسلطان من لا يستجيبون لداعي القرآن. لا يبقى إلا السعي لدعوة الناس كافة، عامة الناس والقادة والزعماء والأمراء دعوة واحدة مفتوحة رفيقة، بالقول اللين على المنهاج النبوي بالسمت النبوي والتؤدة والاقتصاد، حتى يتم لقاء تاريخي كما عودنا الله.

والدعوة إلى الله بعد ذلك وقبله مجالها الشهادة بالقسط، ولذلك بعث الرسل والأنبياء عليهم السلام. قال الله: "لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط".

وقيام الناس بالقسط معناها المثول والشهود بين الناس نموذجاً للإيمان والمحبة والاستقامة. معناه قيام رجال الدعوة بتمثيل الدعوة تمثيلاً قوياً متفوقاً. معناه حمل جماعات الدعوة عبء القيادة الروحية والفكرية والعملية بين قوم غافلين مفتونين، بعقلية واجب لا عقلية مطالبة، بهدف التربية والانضباط لا بالتهيج. وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

يقول الله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر}.

يحسب بعض رجال الدعوة أنهم خانوا الأمانة إم لم يحملوا السلاح في وجه الظالمين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. وهذا صواب أن كان للإسلام التمكين في الأرض. ولا أمر للمسلم ولا نهى عليه تجاه الظالمين من لم يكن له في الأرض كما تنص الآية. وإن القيام بشهادة القسط بين الناس أعلى مرتبة وأجمل موقف يثبت فيه رجل الدعوة زمن الفتنة وذهاب التمكين من يد المومنين، ولمن لا يقدر على ذلك مندوحة في كتاب الله وسنة نبيه أن يعتزل من يعبدون من دون الله كما اعتزل إبراهيم وأصحابه الكهف. وأ الله تعالى إذ يقول لنبيه: {

لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر}.
إنما يشير إلى أن المومن مادام مستضعفا في الأرض ليس له التمكين
لا يسأل عن بغي الباغي وإلحاد الملحد.

حسبنا الله لاإله إلا الله حسبنا الله سيوتينا الله من فضله ورسوله،
انا إلى الله راغبون. اللهم انك أمرتنا بالصلاة على نبيك وحبيبك، اللهم
فيه نتوسل أن تفك قيودنا وتحل عقودنا وترحم هذه الأمة أمة رسولك
فتجعل منها للعالمين رحمة.

اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما صليت على
سيدنا ابراهيم، وعلى آل سيدنا ابراهيم إنك حميد مجيد. وبارك على
سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا ابراهيم
وعلى آل سيدنا ابراهيم في العالمين أنك حميد مجيد.